دروس إسلامية

الدكتور

عبدالجبار فتحي زيدان الحمداني

الطبعة الثانية

العربي الجيد
الموصل - العراق

اسم الكتاب : دروس إسلامية

اسم المؤلف : الدكتور عبد الجبار فتحي زيدان

مطبعة الأخوة

نشر وتوزيع

مكتبة الجيل العربي

لصاحبها ذاكر خليل العلي

الموصل شارع النجفي

الطبعة الثانية ١٤٣٨هـ=٢٠١٨م

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٤ لسنة ٢٠٠٩م

المقدمة

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، والْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ، وخاتَمِ النَّبيين ، وعَلَى آلِهِ وأصْحابِهِ أجْمَعِين ، من الأنصارِ والمهاجرين ، والذين اتبعوهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّين

وبعد ، فهذا كتابي : دروس إسلامية ، تتضمن مواضيع مختارة ، ومعلومات ، وجدتُ أنَّه من المفيد جدًا أن يطلع عليها القارئ المسلم ؛ ليزداد يقينًا بإسلامه ؛ وليتخذها زاده في توعية من جعلهم الله تحت رعيته ؛ ولتكون سلاحه يردُّ بها كيد الكائدين .

أسأل الله ، جلَّ شأنه ، أن ينفع بها المسلمين ، وأسأله سبحانه ، أن يتقبَّلها منِّي عملًا خالصًا لوجهه الكريم ، اللهمَّ آمين .

الدرس الأول

(إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ)

بسم الله ، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار.

ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

من بركات شهر رمضان نزول القرآن فيه ، ففي ليلة القدر نزل القرآن الكريم من السماء السابعة إلى السماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أخذ يتنزل منجمًا على قلب الرسول ﷺ حتى اكتمل في ثلاث وعشرين سنة.

كان رسول الله ﷺ عند نزول الوحي، ولو آية أو بعض آية ، يدعو أحد الكتبة فورًا ليدوّن ما نزل من القرآن على الرغم من أنّهم كانوا يعتمدون على الحفظ فقد اتخذ النبي ﷺ كُتّابًا للوحي من بينهم الخلفاء الراشدون ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد ، وثابت بن قيس، وكان الرسول ﷺ يحفظ كل ما ينزل عليه من القرآن ، وكذلك يأمر صحابته بحفظه ثم يأمر كُتَّاب الوحي بكتابة كل آية تنزل عليه، وقد استطاع المستشرق بلاشير أن يحصي أربعين من كتاب الوحي.

وكان ترتيب الآيات بأمر من الرسول ﷺ . فقد أخرج الإمام أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن عفان ﷺ عن عمرو بن العاص قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ){النحل : ٩٠}

فالترتيب توقيفي من عند رسول الله ﷺ ، بلغ ذلك بالتواتر، وكذلك ترتيب السور في الأصح والأرجح ، وكان كلّ ما يكتب يوضع في بيت رسول الله ﷺ وينسخ كل كاتب من كُتَّاب الوحي نسخة منه لنفسه ، فتضافرت نسخ هؤلاء الكتاب والصحف التي في بيت النبي ﷺ مع حافظة الصحابة الأميين وغير الأميين على حفظ القرآن وصيانته، فتحقق بذلك قوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ){الحجر : ٩}

وكانت الصحف المكتوبة بين يدي رسول الله ﷺ التي وضعت في بيته قد ربطت بخيط خشية أن تضيع وتفلت منها نسخة ، فهذا هو الجمع الأول وكانت الغاية منه حفظ القرآن الكريم من النسيان أو الضياع.

جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ :

كتب القرآن كله في عهد النبي عليه الصلاة والسلام إلّا أنّه كان مفرق الآيات والسور ، وأول من جمعه في صحف مرتب الآيات كما رويت محفوظة عن الرسول ﷺ هو أبو بكر ﷺ وقد أمر أبو بكر ﷺ زيد بن ثابت في جمع القرآن وكتابته مرة ثانية ، وهو من كُتَّاب الوحي أنفسهم وكان الصحابة رضي الله عنهم حافظين للقرآن الكريم ، وكانت الآيات تقابل بين الحفظ والكتابة فكان التوافق بينهما تامًّا ، فالآيات التي تكتب تسمع من الحفاظ ، وقد استغرق جمعه عامًا واحدًا ، وكان عمر ﷺ قد استشار على أبي بكر ﷺ بجمع القرآن ثانية ، فأبو بكر ﷺ نفذه ، وزيد بن ثابت كتبه فالجمع الثاني للقرآن الكريم كانت الغاية منه جعله في مصحف واحد بعد أن كان في صحف متفرقة ، أي : أن أصل هذه الصحف هي الصحف نفسها التي كتبت بأمر رسول الله ﷺ وبين يديه وبإشراف واحد من كُتَّاب الوحي أنفسهم، وظلت هذه الصحف عند أبي بكر ﷺ حتى توفاه الله ، ثم عند عمر ﷺ في حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

واختيار زيد بن ثابت لجمع القرآن ثانية في عهد أبي بكر ﷺ يرجع إلى ما كان يتمتع به زيد من مؤهلات أهمها :

١-إنّه ممن حفظ القرآن كله عن ظهر قلب على عهد النبي ﷺ .

٢-إنّه من أبرز كُتَّاب الوحي ومن أكثرهم ملازمة للنبي ﷺ .

٣-إنّه ممن شهد عرضة القرآن الأخيرة بين يدي النبي ﷺ التي بيَّن فيها مانسخ ومابقي ، فأمر بترك المنسوخ وإبقاء الناسخ وقرأ الرسول ﷺ القرآن بحالته الأخيرة على زيد بن ثابت ، وكان ﷺ يؤم الناس به حتى توفي ﷺ .

٤-تميزه بالأمانة ورجاحة العقل وقوة الاحتمال.

٥-قدرته على سلوك أدقّ طرق البحث العلمي والتحرّي في الجمع.

وقد عاون زيدًا في هذه المهمة عدد من الصحابة منهم عمر بن الخطاب ﷺ وأُبَي بن كعب ، وامتاز هذا الجمع بعدة ميزات أهمها:

١-إنّ منهج الجمع كان من أدق مناهج البحث والتحري العلمي.

٢-إنّه اقتصر فيه على ما لم تنسخ تلاوته كما أمر الرسول ﷺ .

٣-إنّ الآيات والسور كتبت على الترتيب الذي تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ كما هو عليه الآن ، وثمة مسألة جديرة بالذكر، هي أن بعض كتبة الوحي ، كما تبين، كانوا ينسخون لأنفسهم نسخة مما يكتبون لرسول الله ﷺ وإنّ منهم من واصل الكتابة بعد وفاة الرسول ﷺ في خلافة أبي بكر ﷺ حتى أتمه ، من هؤلاء علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وأُبَي بن كعب، ويظهر من بعض الروايات أنّ عليًّا ﷺ كتب القرآن على ترتيب النزول وقدم المنسوخ على الناسخ ، وقد روى هذا عدد من المؤرخين القدامى منهم ابن حجر وفي شرح الكافي للمولى صالح القزويني عن كتاب سليم بن قيس الهلالي أنّ عليا عليه السلام بعد وفاة النبي ﷺ لزم بيته وأقبل على القرآن يجمعه ويؤلفه فلم يخرج من بيته حتى جمعه كله ، ويمكننا أن نقول

بعد ذلك أنّ المصحف الذي جمع أول مرة واعتمده المسلمون قاطبة هو ما جمع في عهد أبي بكر ﷺ وبمشورة عمر ﷺ وأنّ المصاحف الأخرى التي جمعها نفر من الصحابة كمصحف علي ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما لم يعتمدها المسلمون ؛ لأنها لم تظفر بما ظفر به المصحف المعتمد من دقة البحث والتحرّي ومن الاقتصار على ما لم تنسخ تلاوته ولا على ترتيب آياته وسوره بتوقيف من رسول الله ﷺ يضاف إلى ذلك أنّ عليًّا ﷺ كما ذكر في شرح الكافي أنّه كتب في مصحفه تأويل بعض الآيات وتفسيرها بالتفصيل ، مما يجعل ذلك احتمال اختلاط كلامه بكلام الله من غير قصد، فتفسير الآيات عمل فردي لا علاقة له بنص القرآن المنزل.

كما أنّ عليا ﷺ قد كتب في مصحفه أيضًا منسوخ التلاوة التي لا تعد من القرآن ؛ لأنّ الرسول ﷺ قد أعلم المسلمين بعد اكتمال القرآن في آخر حياته بالآيات المنسوخة تلاوتها، أي: المنسوخة لفظًا ومعنى التي أمر بعدم تلاوتها وكتابتها ، وأعلمهم بالآيات الأخرى المنسوخة معنى لا لفظًا التي أمر بكاتبتها وتلاوتها من دون العمل بمعناها.

جمع القرآن في عهد عثمان ﷺ :

اتسعت في عهد عثمان ﷺ رقعة الدولة الإسلامية وساح المسلمون في الأرض وانتشر القّراء في الأمصار يعلمون الناس القرآن، وكان أهل كل إقليم يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، فأهل الشام يقرؤون بقراءة أُبَي بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود، وأهل البصرة يقرؤون بقراءة أبي موسى الأشعري ، وهكذا فكان بينهم خلاف في حروف الأداء ووجوه القراءة وكان هذا مرخصًا به على عهد النبي ﷺ على نحو ما سنعرف من الأحرف السبعة ، ولكن المسلمين الجدد لم يتفهموا الأمر على وجهه الصحيح فوقع بينهم النزاع والشقاق وأخذ كل فريق يدعي أنّه على الحق وأنّ غيره على الباطل ، واستفحل الداء حتى كاد يكفر بعضهم بعضا،

قال علي بن أبي طالب. وكان ذلك قد تعارف بين الصحابة في عهد النبي ﷺ فلم يكن ينكر أحد ذلك على أحد لمشاهدتهم من أباح ذلك وهو النبي ﷺ فلما انتهى ذلك الاختلاف (يعني في القراءات) إلى ما لم يعاين صاحب الشرع ولا علم بما أباح من ذلك ، أنكر كل قوم على الآخرين قراءتهم واشتد الخصام بينهم.

فلعدم تمكن أكثر العرب من قراءة القرآن بلهجة قريش التي نزل بها ولأنّ الرسولﷺ أرخصهم بقراءة القرآن بلهجاتهم بأمر من عند الله عز وجل فلم يجمع أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما الناس على قراءة القرآن باللهجة التي كتبت بها الصحف بين يدي رسول الله ﷺ وظهرت أول محاولة لتوحيد اللهجات في عهد عمر ﷺ لكنها لم تكن منظمة وشاملة يقول ابن جني : روي عن عمر ﷺ أنّه سمع رجلًا يقرأ : (ليسجننه عتى حين) بدلا من القراءة المشهورة (لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ)(يوسف : ٣٥} فقال من أقرأك هذا؟ قال: ابن مسعود: فكتب إليه أنّ الله عز وجل أنزل هذا القرآن عربيًّا وأنزله بلغة قريش فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل والسلام ، وقد كان ابن مسعود من قبيلة هذيل، وفي لهجتهم إبدال حاء (حتى) عينًا.

وفي سنة ٢٥ من الهجرة السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان اجتمع أهل الشام وأهل العراق على فتح أرمينيا وأذربيجان وكان الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ممن خرج للجهاد قائدًا لأهل المدائن من أعمال العراق فلحظ كثرة اختلاف المسلمين في وجوه القراءة وسمع ما كانت تنطق به ألسنتهم من كلمات التجريح والتأثيم فاستعظم ذلك وأكبره وقام بهم خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه.

ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا والله لأركبنّ إلى أمير المؤمنين وجاء فزعًا إلى المدينة ولم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال له: يا أمير المؤمنين: أدرك هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود

والنصارى. واتفق أنّ عثمان أيضًا قد وقع له نحو ذلك فاستشار ﷺ الصحابة قال: ما تقولون في هذه القراءة فقد بلغني أنّ بعضهم يقول: إنّ قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد أن يكون كفرًا ، قال الصحابة فما ترى؟ قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد. قال الصحابة: فَنِعْمَ مارأيت.

تنفيذ الجمع

ألف عثمان ﷺ لجنة لتنفيذ عملية الجمع الجديدة في مطلع سنة ٢٥ من الهجرة من أربعة من حفظة القرآن هم: زيد بن ثابت وهو أحد الذين شهدوا كتابة القرآن بين يدي رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث. وأرسل عثمان ﷺ إلى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها طالبًا الصحف التي عندها وهي عينها الصحف التي جمعت في عهد أبي بكر المأخوذة أصلًا من الصحف التي كتبت بين يدي رسول الله ﷺ فأرسلتها وشرعت اللجنة بنسخها وهذا ما ورد في صحيح البخاري.

وقد اعترف كثير من المستشرقين بورع أعضاء اللجنة الرباعية هذه في نسخ المصاحف ونذكر على سبيل المثال قول (بلاشير) : لا يسع أحد الشك في عمق شعور أعضاء اللجنة بمسؤوليتهم ولئن فاتهم منهج البحث الذي لم يكن متيسرًا لأحد في عصرهم لم يفتهم الاحتياط والورع.

منهج الجمع

سارت اللجنة في عملها على قواعد ثابتة هي:

١-اعتماد الصحف التي تم جمعها في عهد أبي بكر ﷺ التي تعدّ أصلًا للصحف التي كتبت في عهد الرسول ﷺ وقد كان زيد بن ثابت ﷺ أحد كتبة هذه الصحف في عهد النبي ﷺ المشرف على كتابتها في عهد أبي بكر ﷺ وها هو الآن المشرف على كتابة القرآن مرة ثالثة في عهد عثمان ﷺ

٢-اعتماد لهجة قريش أساسًا للنسخ عند اختلاف أعضاء اللجنة في كتابة شيء من القرآن.

٣-اعتماد القراءة المتواترة عن النبي ﷺ أساسًا للكتابة وترك ما سواها من وجوه القراءات المختلف فيها وما كانت روايته أحادًا.

٤-عند كتابة لفظ تواتر عن النبي ﷺ على أكثر من وجه تبقي اللجنة هذا اللفظ خاليًا من أيّة علامة تقصر القراءة به على وجه واحد.

٥-اعتماد ترتيب الآيات والسور على حسب ترتيب النبي ﷺ في العرضة الأخيرة في السنة التي توفي فيها.

٦-بعد الفراغ من كتابة المصحف الإمام ، النسخة الأولى وقبل نسخ بقية المصاحف يراجعه زيد بن ثابت ثلاث مرات ويقابله بصحف أبي بكر المعتمدة أصلًا على الصحف التي كتبت بين يدي رسول الله ﷺ ثم يراجعه عثمان بنفسه زيادة في الاحتياط وأمانًا من الخطأ والنسيان.

عدد المصاحف

اختلفت الروايات في عدد المصاحف التي نسختها اللجنة وأرسل بها عثمان إلى الأقاليم الإسلامية وأرجحها أنّها ستة مصاحف، فأرسل عثمان مع المصحف الخاص بكل إقليم مقرئًا وحافظًا فكان زيد بن ثابت مقرئ المصحف المدني ، وعبد الله بن السائب مقرئ المكي ، والمغيرة بن شهاب مقرئ الشامي ، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئ الكوفي ، وعامر بن عبد القيس مقرئ البصري ، فهؤلاء خمسة مقرئين لخمسة مصاحف لخمسة أقاليم وبقي المصحف الإمام احتفظ به عثمان ﷺ لنفسه.

حرق المصاحف الأخرى

بعد أن أثبتت اللجنة نسخ المصاحف وأرسل بها عثمان ﷺ إلى الأقاليم الإسلامية طرح فكرة التخلص من المصاحف الفردية وذلك لجمع

الأمَّـة علـى مصـحف رسـمي واحـد يعتمـد عليـه المسـلمون جميعًـا ، فأيـد الصحابة جميعهم فكرته.

فقد روى أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال: سمعت علي بن أبـي طالـب يقـول: لا تقولـوا فـي عثمـان إلّا خيـرا مـا فعـل الـذي فعـل فـي المصـاحف إلّا علـى مـلأ منـا. وقـال: لـو وليـت مـا ولـي عثمـان لعملـت بالمصاحف ماعمل

وقد أحرقت بقية المصاحف للأسباب الآتية:

١-كانت بقية المصاحف مصاحف فردية كتبها أصحابها لأنفسهم وليس للأمة.

٢-لـم تتميـز تلـك المصـاحف بمـا امتـازت بهـا المصـاحف التـي استنسختها اللجنة في الجمع الثالث من الضبط والدقة.

٣-كل صحابي قد يكون اعتمد على قراءة سمعها من رسول الله ﷺ . فأثبتها في مصحفه وهي تختلف عن القراءة الثانية التي أثبتها الثاني في مصحفه وهي أيضًا القراءة التي سمعها من رسول الله ﷺ لأنّه عليه الصلاة والسلام كان يقرئ الصحابة القرآن كاملًا بلهجته ولهجة قومه ، وقد كان ذلك في عهد النبي ﷺ رخصة وتيسيرًا لهؤلاء ؛ لأنّهم ما كانوا يستطيعون قراءة القرآن بلهجة قريش التي نزل بها، لكن بعد أن تعوّد العرب المسلمون من غير قريش على لغة قريش وتعلموها وسهل لهم قراءة القرآن باللهجة التي نزل بها عاد لا مسوغ لأن يقرأ المسلم القرآن بغير هذه اللهجة فأصبح من الواجب إلغاء هذه الرخصة بعد زوال أسبابها والدافع إليها هذا ما قال به السلف كالقاضي الباقلاني والطحاوي.

٤-كانت في بقية المصاحف زيادات للإيضاح والتفسير، فنفر من الصحابة كان قد أدخل شيئًا من كلامه للتفسير ، بين الآيات القرآنية في مصحفه الذي كتبه خاصًّا به ، مثال ذلك قوله تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ)}البقرة : ١٩٨{ فقد أثبت ابن مسعود في مصحفه : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلًا من ربكم في مواسم الحج ، ومن ذلك أيضًا قراءة ابن عباس : يأخذ كل سفينة صالحة غصبا. بزيادة صالحة ، وأصل الآية في القرآن : (وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) [الكهف : ٧٩] ومما لا شك فيه ، كما يقول الدكتور صبحي الصالح أنّ تلك الزيادات كانت للتفسير والإيضاح ؛ لأنّها مخالفة لسواد المصاحف التي أجمعت عليها الأمة ، وقد أوضح ابن الجزري هذه الحقيقة فذكر أنّ هؤلاء القراء أضافوا مثل هذه الزيادات للإيضاح ولم يحترزوا من اختلاطها بكلام الله ؛ لأنها كتبت في مصاحفهم الخاصّة بهم ولأنّهم جميعهم محققون ومن حفظة القرآن ، فكانوا آمنين من الالتباس. فهذه الزيادات أدرجت على سبيل التفسير ولا سبيل لعدها من الأحرف السبعة وذكر ابن حازم ما ملخصه : لم يكن في الأمر من داع إلى حرق تلك المصاحف ؛ لأن الاختلاف بينها كان طفيفًا لا يخلو منه نسخ في أي كتاب كان ، ولكن عثمان ﷺ إنّما كتب النسخ وبعث بها إلى الآفاق حرصًا على الحفظ الدقيق واحتراسًا لذلك ؛ لتكون مرجعًا للواهم والمتردد في حرف أو حركة أو كلمة من ذلك الطفيف.

ثم أخذ المسلمون ينسخون من المصاحف العثمانية بالرسم نفسه ؛ لأنّ القراء كانوا يروون كيفية رسم الكلمات إلى جانب روايتهم للقراءة ، وهكذا قامت المصاحف المنسوخة مقام الأمّهات الأصول ؛ لأنّها نسخ منقولة عن النسخة الأصلية بلفظها ومعناها ورسمها، ويجب أن يعلم أنّه ليس كل حرف في خط المصحف يجب قراءته ، فهناك أحرف كتبت في الأصل للرسم تجميلا للخط ولا تقرأ كرسم الواو مثلًا في (الصلوة) و (الزكوة) فإنّها تكتب ولا تلفظ ، وأصبح معروفًا لدى كل قارئ من قُرّاء الصحابة والتابعين

وإلى يومنا هذا ما الحروف التي تكتب في خط المصحف العثماني ولا تلفظ والتي تكتب وتلفظ.

الكلمات التي اختلف رسمها في المصاحف العثمانية

ثمة عدد من الكلمات اختلف هجاؤها في المصاحف العثمانية بنقصان حرف أو زيادة حرف وقد جاءت الرواية بتحديد هذه الكلمات المختلفة عن الأئمة المتقدمين الذين حصروا تلك الحروف في وقت مبكر، وأُلِّفت في هذا الموضوع عدة كتب منها كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبي إمام أهل الشام (ت ١١٨ هـ) ويجب التمييز بين نوعين من اختلاف الكلمات في المصاحف العثمانية، فهناك بعض الكلمات رسمت بخطين مختلفين لكن دون أن يترتب عليه اختلاف في اللفظ مثل (ْ بِئْسَمَا يَـأْمُرُكُمْ بِـهِ إِيمَـانُكُمْ إِن كُنـتُمْ مُّـؤْمِنِينَ) [البقرة: ٩٣] في بعض المصاحف مقطوع (بئس ما) وفي بعضها (بئسما) موصول. وهناك قسم آخر من الاختلاف في هجاء الكلمات يشمل زيادة حرف أو نقصه مما يترتب عليه تغيير في طريقة اللفظ ، وقد أثبتت المصادر الأولى أنّ هذا الاختلاف يرجع إلى المصاحف الأئمة التي أرسلت من المدينة إلى الأمصار في زمن عثمان ﷺ أو أنها وجدت في المصاحف القديمة التي نسخت من تلك المصاحف المرسلة وبلغت تسعة وثلاثين موضعا. قال ابن حجر العسقلاني: والحق أنّ الذي جمع في المصحف العثماني هو المتفق على إنزاله المقطوع به المكتوب بأمر النبي ﷺ واشتمال المصحف العثماني على عدد قليل من الأحرف السبعة محمول على أنّه نزل بالأمرين معا، وأمر النبي بكتابته لشخصين أو أعلم بذلك شخصًا واحدًا وأمره بإثباتها على الوجهين ، فكانت هذه الأوجه التي أمر النبي بكتابتها مما خالفت خط المصحف كان جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير ممكن إلّا بإعادة الكلمة مرتين ففرقتها اللجنة في المصاحف ؛ لذلك جاءت بوجه في مصحف وبوجه آخر في مصحف آخر من المصاحف العثمانية ، لكي تحفظها الأمّة كما نزلت

من عند الله عز وجل ، وعلى ما سمعت من رسول الله ﷺ التي أمر النبي بكتابتها بين يديه، فهذا سبب اختلافها في الأمصار.

وأخيرا فإنّ القرآن لم ينقل في الصحف والكتب فحسب وإنّما ظاهر نقل الكتب والصحف حفظ القرآن والتلقي بالمشافهة والعرض بالسماع ، وقد وجد القُرّاء أحيانًا أنّ الكتابة لا تضبط اللفظ فكانوا ينصّون أن ذلك الحرف لا يضبط إلّا بالمشافهة كقراءة حمزة (الصراط) في فاتحة الكتاب بين الصاد والزاي، وليس في الكتابة العربية رمز يمثلها ؛ لذلك نجد ابن مجاهد يقول : ولا يضبطها الكتاب ، ويقول في قراءة أخرى ولا تضبط إلّا باللفظ ، وقد بلغ حرص القُرّاء على إتقان الرواية إنّه إذا تقدمت السن بالقارئ توقف عن الإقراء خشية التحريف. أي تحريف الصوت ، لا اللفظ العام أو الكتابة، فكان سليمان بن مهران يقرئ الناس ثم ترك ذاك في آخر عمره.

فالقرآن الكريم نقل إلينا كتابة وحفظًا في الصدور بلفظه ومعناه وصوته ؛ ذلك أنّ هذه القراءات نقلت مشافهة عن رسول الله ﷺ وليس اجتهادًا أو استنباطا من رسم الخط ؛ لأنّ الرسم سنة متبعة قد توافقه التلاوة وقد لا توافقه فمن رسم الكلمات في المصحف : وجائ [الزمر: ٦٩] وتقرأ: وجيء ، و (لا اذبحنَّهُ)[النمل: ٢١] بكتابة ألف بعد (لا) وتُقرأ : لأذبحنّه ، ومثل ذلك (ولا اوضعوا) [التوبة : ٤٧] وتقرأ : ولأوضعوا ، ومثل هذا كثير وقراءة بخلاف ما رسم ، وقد أجمع القراء المسلمون واتفقوا جميعًا على أنّه لا رأي في القراءة بعد النبي ﷺ إلّا بما ثبت عنه ، ولا قبول إلّا بما قرأ به ، أو أقره أو علّمه.

وقد كتب المصحف في عهد عثمان ﷺ خاليًا من النقط والشكل ، لأنّ المسلمين الأُوَل كانوا يضبطونه قراءة من دون حاجة إلى ذلك إلّا أنّه بعد انتشار الأعاجم والخشية من عدم ضبط قراءة القرآن من قبل الأتباع رأى الغيورون على هذا الدين ضرورة وضع علامات على الرسم القرآني من النقط

والشكل كعلامات الضمة والفتحة والكسرة والشدة وهمزة القطع والوصل ونحو ذلك، ووضع النقاط للتفريق مثلًا بين الجيم والحاء ، والتاء والباء دون أن يغيروا في صورة الكلمة التي رسمت في مصحف عثمان ﷺ وقد كان أبو الأسود الدؤلي تلميذ علي بن أبي طالب أول من دعا إلى وضع مثل هذه العلامات ، ثم تم ذلك على يد نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر (ت ٩٠ هـ) وهو من النحاة والقراء المشهورين في عهد عبد الملك بن مروان ، ذلك ليصل إلينا كتاب الله بالصورة التي هي بين أيدينا اليوم ليتحقق وعد الله سبحانه : (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) {القيامة: ١٧}

إنّ الطريقة التي جمع بها القرآن والحالة التي انتهى إليها هي التي أرادها الله أن تكون ، فقد أراد جل شأنه أن يحفظ كتابه ويجمع ويتلى بقراءاته المنزلة ولعل من حكم ذلك.

تيسير قراءة القرآن على الأمّة أو إرادة معاني هذه القراءات جميعها، لمعنى من المعاني البلاغية أو إرادة أحكامها مجتمعة.

فهذا هو كتاب الله الذي أوحاه الله إلى محمد ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام ، في حديث رواه البخاري وغيره عن فاطمة عليها السلام قالت أسرّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل يعارضني بالقرآن مرة كل سنة ، وأنّه عارضني العام مرتين ، ولا أراه إلّا حضر أجلي ، والمراد من معارضته له بالقرآن كل سنة مقابلته على ما أوحاه إليه الله تعالى ، وذلك حتى يكون أثبت وأرسخ ، فقد كان جبريل يطلب من رسول الله ﷺ أن يعيد عليه ما أُوحي إليه من قرآن مرة كل سنة وكان ذلك في رمضان ، إلّا في العام الذي توفي فيه فقد قرأه على جبريل مرتين ، وكان رسول الله ﷺ إذا أقرأ قارئًا شيئًا من القرآن طلب منه أن يعيد هذه القراءة بين يديه ليتبين له إتقان حفظه.

لقد كان رسول الله ﷺ حريصًا أشد الحرص على حفظ ما ينزل عليه من القرآن حتى إنّه كان يحرك لسانه وشفتيه في أثناء نزول الوحي عليه ليسرع في الحفظ لئلّا ينسى شيئا مما يتلو عليه جبريل عليه السلام من القرآن

قال تعالى: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ {١٧} فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ {١٨} ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ القيامة) {القيامة : ١٦-١٩] فالله سبحانه، يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام : يامحمد لا تجهد نفسك فإنّا قد تعهدنا بحفظ هذا القرآن وجمعه ونشره بين الناس كاملًا غير منقوص ولا محرف.

جاء في كتب التفسير: سئل القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد الأزدي ، الإمام المفسر المتوفى سنة ٣٨٢هـ ، الذي قالوا عنه : إنه لم تحصل درجة الاجتهاد واجتماع آلته بعد مالك . إلّا لإسماعيل القاضي ، سئل عن السرّ في تطرق التغيير للكتب السالفة ، وسلامة القرآن من طرق التغيير له ، فأجاب : إنّ الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم قال تعالى : (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة :٤٤] وتولى الله حفظ القران بذاته . فقال : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر :٩] أي : حافظون له من الشياطين ، وفي كل وقت تكفل الله بحفظه . فلا يعتريه زيادة ولا نقصان . ولا تحريف ولا تبديل بخلاف غيره من الكتب المتقدمة ، فإنّه تعالى لم يتكفل بحفظها ، بل قال : إن الربانيين والأحبار استحفظوها ، ولذلك وقع فيها الاختلاف .

وحفظ الله للقرآن دليل على أنّه منزل من عند الله تعالى ، إذ لو كان من قول البشر لتطرق اليه ما تطرق لكلام البشر ، وقيل يحفظه في قلوب من أراد بهم خيرًا ، لو غيّر أحد نقطة لقال له الصبيان : كذبت ، وصوابه كذا ، ولم يتفق هذا لشيء من كتب سواه .

وذكر القرطبي في تفسيره أن يحيى بن أكثم المتوفى سنة ٢٤٢هـ وكان قاضيا رفيع القدر عالي الشهرة من نبلاء الفقهاء ، حكى أنّه كان

للمأمون ، وهو أمير إذ ذاك ، مجلس نظر، مجلس يجتمع فيه الناس والعلماء ، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الهيئة ، طيب الرائحة ، فتكلم فأحسن الكلام ، دعاه المأمون ، فقال له : إسرائيلي ؟، قال : نعم ، قال له : أسلم ، فقال ديني ودين أبائي ، وانصرف ، قال : فلما كان بعد سنة جاء مسلماً ، فتكلم في قضايا الفقه فأحسن الكلام ، فدعاه المأمون وقال له : ألست صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى ، فقال : ما كان سبب إسلامك ؟ فقال : حين انصرفتُ في العام الماضي من مجلسك أحببتُ أن أمتحن هذه الأديان ، وأنت تراني حسن الخط ، فال : فعَمَدتُ إلى التوراة فكتبت منها ثلاث نسخ ، فزدتُ فيها ونقصتُ ، فأدخلتها الكنيسة فعرضتها عليهم لبيعها ، فأُعجبوا بها ، ورحبوا بي ، فاشتروها مني ، وعمدت الى الإنجيل ، فكتبت ثلاث نسخ منه ، فزدتُ فيها ونقصتُ وأدخلتها البيعة فعرضتها عليهم لبيعها ، فرحبوا بي ، بعد أن أعجبوا بها واشتروها مني ، وعمدت إلى القرآن فكتبت منه ثلاث نسخ ، فزدتُ فيها ونقصتُ وأدخلتها الوراقين ، وهم الذين كانوا يورقون القرآن الكريم ويكتبونه ، فعرضتها عليهم ، وهي حسنة الخط ، فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموها ، ولم يشتروها مني ، فعلمتُ أنّ هذا الكتاب محفوظ ، فكان هذا سبب إسلامي .

قال يحيى بن أكثم راوي هذه القصة ، فحججتُ تلك السنة فلقيت سفيان بن عُيينة المتوفى سنة ١٩٨هـ ، وهو من الموالي ، سكن مكة وتوفي فيها ، كان حافظًا ثقة واسع العلم كبير القدر ، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، له الجامع في الحديث وكتاب في التفسير ، قال يحيى فذكرت لسفيان هذا خبر إسلام هذا اليهودي ، فقال : تجد مصداق ذلك في كتاب الله عز وجل ، فقلت : في أي موضع ، قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : (بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ) [المائدة :٤٤] فجعل حفظه منوطًا بهم فضاع ، أما القرآن ، فقد قال فيه سبحانه :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩] فتكفل الله عز وجل ، بنفسه حفظه ، فلم يضع .

وقد كانت إحدى الحقائق التي أكدها الطبيب الفرنسي موريس بوكاي في كتابه (الكتاب المقدس والقرآن والعلم دراسة الكتب السماوية في ضوء المعارف العصرية) : أنّ القرآن حفظ من أيّ تحريف كان ، ومما قاله في هذا الباب : " إن القرآن بقي كما نزل على محمد ﷺ لم تمسه يد تغيير، حفظ في الصدور وقت نزوله ودونته كتبة الوحي وضمه المصحف الشريف " وأثبت أنّ التوراة والأناجيل أصابها كثير من التحريف عبر قرون طويلة ، كما أثبت تناقضها الفظيع[١] ويقول الدكتور صبحي الصالح : والذي يعلمه علم اليقين كلّ باحث مثقف أنّ كتابًا غير القرآن لم يحظ بالعناية التي حظي بها ، ولم يصل إلينا كما وصل فجاء كما قال شفالي: " أكمل وأدقّ مما يتوقعه أيّ إنسان[٢] وقد استنسخ المسلمون من المصحف العثماني آلاف النسخ جيلًا بعد جيل ، وقد بقي المصحف العثماني نفسه على الرغم من انتفاء الحاجة إليه حتى سنة ١٣١٠هـ حيث كان محفوظًا في مقصورة في مسجد بدمشق وله بيت من خشب[٣].

اللهم يسر لنا حفظ القرآن والعمل بمقتضاه وشفعه فينا يوم الدين اللهم آمين.

---

(١) مجلة آفاق عربية، السنة الثانية، العدد (١) لسنة ١٩٧٧م.
(٢) مباحث في علوم القرآن نقلا من مصدر أجنبي، ﷺ ٨٩.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٩، هامش م٣.

الدرس الثاني

نزول القرآن على سبعة أحرف

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد

فقد كان العرب يتكلمون بلهجات مختلفة ، أحصي منها أكثر من عشرين لهجة ، تعرض لها اللغويون وجعلوا لها أسماء وألقابًا منها :

الاستنطاء : وهو جعل العين الساكنة نونا. فيقولون : أنطى بدلًا من أعطى وقرئ قوله تعالى: (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَر)(لكوثر:١} انا أنطيناك الكوثر، وورد الحديث الشريف: اللهم لا مانع لما أنطيت ولا منطي لما منعت. بدلًا من: لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت. وورد كذلك في الحديث النبوي الشريف: اليد المنطية خير من اليد السفلى. بدلا من: اليد المعطية خير من اليد السفلى وورود مثل هذه الأحاديث يكون على أحد أمرين : إمّا أن يكون الرسول ﷺ قد تكلم بهذه اللهجة مراعيًا لهجة من كان يخاطبه ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان يكلم الأقوام كلًّا على لغته، وإمّا أن يكون الذي نقل هذا الحديث من أصحاب لهجة الاستنطاء وروى الحديث بلهجته ، لا كما سمعها من رسول الله ﷺ الذي كان يتكلم بلهجة قريش ، ومنها :

الطمطمانية ، وهي إبدال لام التعريف ميما فيقولون مثلًا: طاب امهواه، وصفا امجو، يعنون بذلك: طاب الهواء وصفا الجو، ويروى أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وهو بين صحابته فقال له يارسول الله : هل من امبر امصيام في امسفر؟ فردّ عليه ﷺ فقال: ليس من امبر امصيام في امسفر، فقال له صحابته رضي الله عنهم يا رسول الله ماذا قال لك وماذا قلت له، فقال: قال: هل من البرّ الصيام في السفر ، فأجبته ليس من البرّ الصيام في السفر. ومنها :

الفحفحة (لهجة هذيل) : وهي قلب الحاء عينا في (حتى) وكانت هذه اللهجة في مصحف عبد الله بن مسعود ﷺ أحد القراء الأربعة المشهورين ؛ لأنّ عبد الله بن مسعود كان من قبيلة هذيل ، ومنها : الكشكشة : وهي إبدال الكاف المؤنثة في الوقف شينًا أو إلحاقها شينًا، وقد قرئ القرآن الكريم على هذه اللهجة كقراءة من قرأ (وقد جعل ربش تحتش سريا) وقراءة من قرأ (إن الله اصفاش وطهرش واصطفاش على نساء العالمين) بدلًا من القراءة المشهورة : (قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا)[مريم : ٢٤] : (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ)[آل عمران : ٤٢]

وأخرج الطبراني في الأصغر والبيهقي في دلائل النبوة عن جابر: جاء رجل الى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول : إن أبيه يريد أن يأخذ ماليه ، فقال عليه الصلاة والسلام : أدعه ليه. وهذه لهجة بعض القبائل وهي إلحاق آخر الكلمة هاء السكت كما في قوله تعالى: (مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ {٢٨} هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ) {الحاقة: ٢٨- ٢٩}.

فقد كان العرب قبائل مختلفة ولهجاتهم متعددة ، وكلٌّ منها ما كانت تستطيع أن تقرأ القرآن إلّا بلهجتها وقد يحصل مثل هذا بين أفراد القبيلة الواحدة واللهجة الواحدة ذلك لتباين مستويات الأداء الناشئة عن اختلاف الألسن وتفاوت التعليم ، فقد ذكر ابن جني في كتابه الخصائص عن السجستاني في كتابه الكبير في القراءات قال: قرأ علي أعرابي القرآن بلهجته : طيبى لهم وحسن مآب . فقلت طوبى ؛ لأنّ القرآن الكريم نزل بهذه اللهجة، وهي لهجة قريش ، فقال الأعرابي : طيبى، ، فقرأها بلهجته ولم يستطع قراءتها بلهجة قريش، فلما طال عليّ قلتُ : طو، طو ، قال: طي، طي، أفلا ترى أنّ هذا الأعرابي كيف نبا طبعه عن نقل الياء إلى الواو، فلم يؤثر فيه التلقين ولا ثنى طبعه عن التماس الخفة هزٌّ ولا تمرين.

وقد ورد في الصحيحين : البخاري ومسلم قول الرسول ﷺ إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسّر منه ، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا الباب ، وروايات الحديث على كثرتها لا تحدد معنى الأحرف السبعة إذ لم تتعين بنصٍّ من النبي ﷺ .

وينحصر موضوع الأحرف السبعة في نطاق الاختلاف في اللفظ ومنحى النطق دون اختلاف المعنى ، وقد دارت آراء جمهور العلماء في هذا الإطار، لكنهم لم يتفقوا على تفسير معين إلّا أنه يمكن إجمال مذاهبهم على قولين :

القول الأول : هو أنّ عدد السبعة لم يقصد به الحصر أي : حقيقة العدد بل المراد التسهيل والتيسير والسعة.

القول الثاني : ذهب أكثر علماء السلف إلى أنّ المقصود بالسبعة في الحديث الحصر ، وأرادوا حقيقة العدد لكن اختلفوا في تعيينها وأشهر الآراء في هذا القول رأيان :

الرأي الأول : أولهما أنّها سبع لغات من لغات العرب ، وليس معنى ذلك أنّ في الحرف الواحد سبعة أوجه ، فهذا ما لم يسمع به قط ، وإنّما المراد بذلك أنّه نزل على سبع لغات متفرقة في جميع القرآن من لغات العرب فيكون بعضه نزل بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة أهل اليمن وكذلك سائر اللغات ومعانيها في هذا كله واحدة.

والرأي الثاني: أنها سبعة أنواع من القراءات ، فقد جعلوا مثلًا من اختلاف حركة الإعراب بابًا أو نوعًا من الأحرف السبعة فقد قرأ ابن مسعود : ما هذا بشرٌ، برفع (بشر) بدلًا من نصبها في القراءة المشهورة : (مَا هَذَا بَشَرًا) {يوسف :: ٣١].

وجعلوا من إبدال حرف بحرف كقراءة (الصراط) بالسين والصاد نوعًا ثانيًا.

وجعلوا من اختلاف النطق بالتفخيم أو الترقيق، والإمالة أو الفتح، والإظهار أو الإدغام ونحو ذلك نوعا ثالثًا، وهكذا إلى أن أوصلوا هذه الأوجه إلى سبعة أنواع.

والصحيح قول السلف فكثير من لغات العرب التي عدت لغات هي في الحقيقة لغات فرعية تعود إلى لغة واحدة ، فهي مهما كثرت وتعددت يمكن إرجاعها إلى سبع لغات أصلية فيكون المقصود بالأحرف السبعة هذه اللغات السبع ، ويمكن أن يكون المقصود بها سبعة وجوه عامة من القراءات.

وقد ورد أنّ النبي ﷺ لم يلتزم عند تعليمه القرآن للمسلمين لفظًا واحدًا ، روى أبو عبيد القاسم بن سلام ، قال: حدثنا يزيد ويحيى بن سعيد كلاهما عن حميد الطويل عن أنس بن مالك عن أُبَي بن كعب ، قال: ما حكّ في صدري شيء منذ أسلمت إلّا أنني قرأت آية وقرأها آخر غير قراءتي فقلت (له) أقرأنيها رسول الله ﷺ فقال (لي) أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أقرأتني آية كذا وكذا؟ قال : نعم، وقال الآخر: أليس تقرئني (يا رسول الله) آية كذا وكذا؟ قال: نعم، (فأقرّ رسول الله ﷺ بالقراءتين على الرغم من اختلافهما) فقال: إنّ جبريل وميكائيل أتياني فقعد جبريل عن يميني وميكائيل عن يساري فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف وكل حرف كاف شاف.

وروى الضحاك عن ابن عباس: أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب ، وفي حديث ابن عباس في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال أقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف، وفي حديث أُبي عند مسلم أنّ ربي أرسل إليّ أن أقرئ القرآن على حرف فرددت إليه أن هوِّن على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرئ القرآن على حرفين ، فرددت إليه أن هوِّن على أمتي ، فأرسل إليّ أن أقرئ القرآن على سبعة أحرف ، وفي حديث آخر أنّ جبريل عليه السلام قال له :

إنّ الله يأمرك أن تقرئ أمتك على سبعة أحرف فأيّما حرف قرؤوا فقد أصابوا، وروي عن علي وابن عباس ﷺ من أنّ النبي ﷺ كان يقرئ الناس بلغة واحدة فاشتد ذلك عليهم فنزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد أقرئ كل قوم بلغتهم.

وقد جاء في الصحيحين عن ابن شهاب أنّ عمر بن الخطاب ﷺ قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرؤها على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة (أي: كدت أثب عليه) فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرؤها قال: أقرأنيها رسول الله ﷺ فقلت: كذبت فو الله إنّ رسول الله ﷺ قد اقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقتُ به أقوده إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها، فقال رسول الله ﷺ : أرسِلْه ياعمر ، ثم قال: اقرأ ياهشام فقرأ عليه السورة التي سمعته يقرؤها فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلتْ، ثم قال: اقرأ ياعمر، فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ ، هكذا أنزلت، إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فأقرؤوا ما تيسّر منه، والذي يفهم من قوله ﷺ (ما تيسّر منه) أنّها رخصة للقبائل التي كانت لا تستطيع أن تكره ألسنتها على لهجة قريش أو على اللهجة الأصلية.

وذكر ابن قتيبة أنّه كان من تيسير الله لأمة القرآن في أول نزوله أنّه سبحانه أمر رسوله ﷺ بوساطة جبريل بأن يقرئ كلَّ قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فالهذلي (مثلًا) يقرأ (عتى حين) لأنّه هكذا يلفظ بها ويستعملها، والأسدي يقرأ (تِعلمون) و (تِعلم) و(وتِسود وجوه) يقرؤها جميعها بكسر التاء لا بفتحها، والتميمي يهمز ويقرأ (فؤاد أم موسى)، والقرشي لا يهمز فيقرأ (فواد أم موسى).

ولو أنّ كل فريق من هؤلاء أُمِر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلًا وشابًّا وكهلًا لاشتدّ ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ولم يمكنه القراءة بلهجة قريش إلّا بعد رياضة للنفس طويلة ، وتذليل للسان وقطع للعادة ، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل له متسعًا في اللغات ومتصرفًا في الحركات لتيسيره عليهم في الدين.

يتبين مما مر ذكره مسألتان:

أولاهما : أنّ القرآن الكريم نزل بلهجة قريش لفصاحتها، فقد كانت تمثل اللغة الأدبية المشتركة بين القبائل العربية، هذا في الأعم الأغلب، أي: أنّ القرآن الكريم أنزل بغير هذه اللغة أيضًا من ذلك مثلًا أنّ لهجة تميم تنبر الهمزة فتحققها ويشاركها في ذلك أكثر البدو فيقولون: رأس، وبئس، وفؤاد، وخاسئة، في حين يسهل الحجازيون (القرشيون) الهمزة ولا ينبرونها إلّا إذا أرادوا محاكاة التميميين فيقولون: راس، وبيس، وفواد، وخاسية، وقد نزل القرآن الكريم بهاتين اللغتين.

والثانية : أنّه حين يذكر أنّ القرآن نزل بلهجة قريش لا يعني هذا أنّه نزل بقراءة واحدة ، إذ لم تكن لهجة قريش قراءة واحدة ، بل كانت تتضمن عدة قراءات، في ضوء ذلك يمكن القول ، والله أعلم ، إنّ القراءات في عهد رسول الله ﷺ والمشمولة بالأحرف السبعة كانت على قسمين :

قراءات مؤقتة ، لم يكن الرسول ﷺ يقرأ بها في صلاته ؛ لأنّها في الحقيقة لم تكن قراءات منزلة ؛ وإنّما أقرّ بها رسول الله ﷺ مراعاة لِلَهجاتِ القبائل، وهذه هي القراءات التي ألغاها عثمان ﷺ لأنّها كانت في عهد رسول الله ﷺ رخصة وتيسيرًا لكل من لم يستطع أن يقرأ القرآن إلّا بلهجته الخاصة، وقد أبطلت هذه الرخصة في عهد عثمان ﷺ ذلك أنّ الناس تعودت ألسنتهم على قراءة القرآن بالقراءة التي كان يقرأ بها رسول الله ﷺ في صلاته.

وقراءات دائمة ثابتة تابعة للغة قريش وأخرى تابعة للغات قبائل أخرى نزل بها القرآن الكريم لا مراعاة للهجات تلك القبائل ولكن لكون هذه القراءات بلغت مستوى لغة قريش من حيث بلاغتها وفصاحتها، وهذه هي التي أبقاها عثمان ﷺ ووحد الأمّة الإسلامية على اختلاف لهجاتهم للقراءة بها ؛ لأنّها قراءات أريد بها ان تتلى ويقرأ بها إلى قيام الساعة ، وهي المدونة في المصاحف التي بين أيدينا اليوم تحت اسم القراءات السبع والقراءات العشر التي هي نفس المصاحف التي جمع فيها زيد بن ثابت القرآن وأرسلت في خلافة عثمان ﷺ من المدينة إلى الأمصار، وعرفت باسم المصاحف العثمانية نسبة إلى الخليفة الثالث الذي أمر بنسخها وإرسالها، وهذه المصاحف هي نفسها المنقولة عن الصحف التي جمع فيها زيد بن ثابت أيضا القرآن في خلافة أبي بكر الصديق، وهي نفسها المنقولة عن القطع التي كتبت عليها القرآن في عهد رسول الله ﷺ بأمره وتحت سمعه وإشرافه.

ومما يجب التنبيه عليه أنّ هذه القراءات لم تكن في كل آية من آيات القرآن الكريم بل تشمل عددًا معيَّنًا في كل سورة ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ عبارة (سبعة أحرف) لا تعني أنّ كُلًّا من هذه الآيات المشمولة تقرأ سبع قراءات أو عشر، من ذلك مثلًا (مالك يوم الدين) و (وملك يوم الدين) [الفاتحة: ١]، فهذه الآية من سورة الفاتحة تقرأ بهاتين القراءتين فقط ، و(يعرشون) [الأعراف: ١٣٧] تقرأ بقراءتين فقط بكسر الراء ، وبضم الراء، ، و(جمع) [الهمزة : ٢] تقرأ بقراءتين فقط (جمع) بفتح الميم وتخفيفها ، و(جمع) بفتح الميم وتشديدها، و(عليهم القتال) [البقرة : ٧٧] تقرأ (عليهم القتال) بكسر الهاء والميم و (عليهم القتال) بضم الهاء والميم و(عليهم القتال) بكسر الهاء وضم الميم، فتقرأ هذه الآية بهذه القراءات الثلاث فقط.

وأكثر القراءات عددًا أربع، وهي في ألفاظ قليلة كقوله تعالى: وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ) {يوسف: ٢٣} فقد قُرِئَتْ أربع قراءات نذكرها فيما بعد ، ونلحظ أن جميع هذه القراءات خطها واحد ومعناها واحد ، والحكمة من وجود هذه القراءات يمكن إجمالها فيما يأتي:

الحكمة الأولى: التيسير على الأمّة الإسلامية على اختلاف عصورها وأقاليمها ولغاتها، سواء كانت من قريش أم من غير قريش، وسواء عربية كانت أم أعجمية.

والحكمة الثانية: هي الجمع بين حكمين مختلفين كقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) {البقرة: ٢٢٢ } قرئ بالتخفيف والتشديد في حرف الطاء من كلمة (يطهرن) وصيغة التشديد تفيد وجوب المبالغة في طهر النساء من الحيض ؛ لأنّ زيادة المبنى تدلّ على زيادة المعنى ، أمّا قراءة التخفيف فلا تفيد هذه المبالغة ومجموع القراءتين يحكم بأمرين أولهما : أنّ الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر وذلك بانقطاع الحيض، والثاني: أنّه لا يقربها زوجها أيضًا إلّا إذا بالغت في الطهر وذلك بالاغتسال وهو ما ذهب إليه الإمام الشافعي ومن وافقه ، ويبدو أنّ جواز القراءتين يدل على جواز الأمر الأول ، إلّا أن الأمر الثاني أفضل وأكثر استحبابًا.

والحكمة الثالثة : هي الدلالة على حكمين شرعيين ولكن في حالتين مختلفتين كقوله تعالى في بيان الوضوء : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ) {المائدة: ٦ } قرئ بنصب (أرجلكم) وبجرها فالنصب يفيد طلب غسلها لأنّ العطف حينئذ يكون على لفظ (وجوهكم) المنصوب الذي حكمه الغسل ، والجر يفيد طلب مسحها ؛ لأنّ العطف حينئذ يكون على لفظ (رؤوسكم) المجرور الذي حكمه المسح ، والمعروف أنّ النصب هو الأصح والأشهر ؛ لأن المراد به الحالة العامة التي هي وجوب الغسل لقوله ﷺ ويل للأعقاب من النار إن لم تغسل والأعقاب مؤخر القدم ، وهذا حديث نبوي قاله رسول الله ﷺ حينما نظر إلى رجل يتوضأ ولم يغسل قدميه وهو حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، أما الجر فقد كان في حالات خاصة وشروط معينة.

والحكمة الرابعة : الجمع بين معنيي القراءتين من ذلك قوله تعالى : (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ){ البقرة: ٢٥٩} والنشز (بالزاي) : يعني رفع العظام بعضها فوق بعض ، والمراد جمعها وإرجاعها إلى ما كانت عليه وبكون ذلك تمهيدًا لبعث الروح فيها ، وقرئت : ننشرها (بالراء) والنشر ، معناه : البعث والإحياء ، فعند جمع هاتين القراءتين يكون تفسير الآية : وانظر إلى حمارك الذي مات قبل مئة سنة وتفسخت عظامه وتناثرت هنا وهناك ، كيف نجمعها ونعيدها إلى مواضعها ، وانظر كيف نحييها.

والحكمة الخامسة: يمكن توضيحها في قوله تعالى : (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) {يوسف: ٢٣ }

قُرِئَتْ (هيت لك) أربع قراءات صحيحة ومتواترة هي:

١. هِيتَ لك: بكسر الهاء وتسكين الياء، وفتح التاء.

٢. هِئْتَ لك: بكسر الهاء، وتسكين الهمزة، وفتح التاء.

٣. هَيتُ لك: بفتح الهاء، وتسكين الياء، وضم التاء.

٤. هَيتَ لك: بفتح الهاء، وتسكين الياء، وفتح التاء.

مما لاشك فيه أنّ امرأة العزيز اتبعت عدة طرائق لتراود بها يوسف عن نفسه، ذلك بنبرات خطابها له وتعدد نغماته المغرية والمثيرة لكوامن الشهوة، فيظهر أيضًا أنّ تعدد قراءات (هيت لك) كان ليشير إلى تعدد طرائق الإغواء التي اتبعتها امرأة العزيز لاستمالة يوسف عليه السلام إليها بحديثها وخطابها وعرض مفاتن جسمها في مواقف مختلفة ، وإذا كان قارئ القرآن يعيد هذه الآية أربع مرات ليستوفي القراءات جميعها فكأنّه بهذه الطريقة أعاد

أربعة أنواع من أنواع الإغواء، فكل طريقة تشير إلى نوع يختلف عن النوع الذي تشير إليه القراءة الأخرى.

وفي قوله تعالى (ولا تقل لهما أف) [الإسراء: ٢٣] قُرِئَتْ (أف) ثلاث قراءات. (افٍّ) بكسر الفاء و(افَّ) بفتح الفاء و(أفٍّ) بتنوين الفاء، تنوين كسر، وكذلك يظهر أن تعدد قراءة (اف) في هذه الآية جاء ليحث الأبناء إلى عدم خطاب الوالدين بأي نوع كان من أنواع الضجر.

فكل قراءة في هذا القرآن محسوب معناها وغرضها فما أعظمه من كتاب! اللهم يسر لنا قراءة القرآن وحفظه والعمل به اللهم آمين.

الدرس الثالث

تدوين الحديث النبوي

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلا في الجنة. آمين يا أرحم الراحمين.

الإسلام دين الله وما محمد ﷺ إلّا رسول نقل إلينا هذا الدين من البارئ عز وجل عن طريق جبريل عليه السلام ، فقد علَّم مثلا جبريل عليه السلام الرسول ﷺ كيف يصلي وكيف يتوضأ ، وطبق له ذلك عمليًّا، فقد توضأ بين يديه، وصلى أمامه، فأْتَمَّ رسول الله ﷺ خلفه وصلى معه الصلوات الخمس.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عدّه العادّ لأحصاه ، لا يسرد الحديث كسردكم. أخرجه الخمسة إلّا النسائي. والمعنى أنّه ﷺ كان لا يسرع في الكلام ، بل يخرج الألفاظ بتؤدة ؛ وكان ذلك من أجل أن يفهم كلامه السامع أو يحفظه إن شاء. وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ ، يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه. أخرجه الترمذي.

وقد نهى رسول الله ﷺ في بداية نزول القرآن عن كتابة الحديث لئلّا يختلط بكلام الله ، إلّا أن هناك أفرادًا من الصحابة وجدوا من البواعث النفسية ما حملهم على كتابة أكثر ما سمعوه عن رسول الله ﷺ أو ربّما كلّ ما سمعوا عنه عليه الصلاة والسلام ، بل الرسول ﷺ قد استثنى بعض الصحابة من النهي فقد كان هؤلاء يكتبون وغيرهم من الأميين كانوا يحفظون في صدورهم ما تيسر لهم من حديث النبي ﷺ وبعد أن أمن الرسول ﷺ التباس الحديث بالقرآن سمح بكتابته بصفة عامة فانبرى عدد من الصحابة بتدوين الحديث ، فقد كان عبد الله بن عمرو ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عباس ، وأنس بن مالك ممن يكتبون الحديث خوفًا من نسيانه على الرغم

من حفظهم له وقوة حفظهم ، وجاءت عناية التابعين بالحديث لاعتقادهم بأنّه وحي لا يختلف عن القرآن إلّا أنّ القرآن موحى بلفظه ومعناه والحديث ، موحى بمعناه فقط .

ومن الصحف التي كتبت في عهد الرسول ﷺ صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري ، وصحيفة بن جندب (ت٦٠هـ) وكان لجابر بن عبد الله (ت٧٨هـ) صحيفة أيضًا ، والصحيفة الصادقة التي كتبها جامعها عبد الله بن عمرو بن العاص (ت٦٥هـ) فقد جاء عبد الله يستفتي رسول الله ﷺ في شأن الكتابة قائلًا: أكتب كل ما أسمع؟ قال: نعم. قال: في الرضا والغضب؟ قال: نعم فإني لا أقول ذلك إلَا حقًّا، وقد كانت لأبي هريرة ﷺ صحف كثيرة ، وهذه الصحف كانت مشهورة عند الصحابة وقد تناقلوها ورووا الأحاديث عنها ، وظهرت أحاديثها في صحيح البخاري ، ومسند الإمام أحمد وغيرهما، وإحدى صحف أبي هريرة رواها تلميذه همام بن منبه ، وقد عثر على هذه الصحيفة الباحث المحقق الدكتور محمد حميد الله في مخطوطتين متماثلتين في دمشق وبرلين وزاده ثقة بما جاء فيها أنّها برمتها ماثلة في مسند الإمام احمد ، وإن كثيرًا من أحاديثها مروي في صحيح البخاري في أبواب مختلفة وتعداد هذه الصحيفة ١٣٨ حديثًا ، وقد حرص رواة الحديث على جمع أحاديث الرسول ﷺ فهذا المستشرق جولدزيهر Goldziher على الرغم من عدائه للإسلام اعترف بأنّ المسسلمين الأوائل كانوا يطوفون البلدان بضع عشرة سنة من أجل أن يجمعوا أحاديث رسول الله ﷺ التي تفرقت في صدور الصحابة والتابعين ممن تفرقوا في أمصار مختلفة[١].

والعرب كانوا يعتمدون في رواية الحديث على كتابتها وحفظها معًا، فأشعار العرب مثلًا رويت كلها عن طريق الحفظ ، فكان الذين سموا الحفاظ يحفظون آلاف الأحاديث عن ظهر قلب منهم : يحيى بن معين توفي

(١) صبحي الصالح، ص٥٦ نقلا من مصدر أجنبي مكتوب باللغة الإنكليزية.

بالمدينة سنة٢٣٢هـ وأبو زرعة الرازي الحافظ الثقة المشهور(ت٢٦٤هـ) فقد كان يحيى يحفظ أربع مئة ألف حديث وقال الإمام أحمد عن أبي زرعة : إنّه كان يحفظ سبع مئة ألف حديث، وكان أبو زرعة يقول عن نفسه : "ما في بيتي سواد على بياض إلا وأحفظه" وقال الشعبي: ما كتبت سوادًا في بياض إلى يومي هذا ولا حدثني رجل لحديث قط إلّا حفظته ، ومن الحفاظ من كان يستعين على حفظ الحديث بكتابته فإذا أتقن حفظه محاه ، أو دعا بمقراظ فقرضه خوفًا من أن يتكل القلب عليه منهم : سفيان الثوري ، وعاصم بن ضمرة(ت١٧٤هـ) وخالد الحذاء(ت١٤١هـ) وابن شهاب ، وابن سيرين، وكان من العلماء من يميل إلى تحديد العدد المحفوظ من الحديث الذي يستحق جامعه أن يسمى حافظًا ، فقال الحاكم في المدخل : وكان الواحد من الحفاظ يحفظ خمس مئة الف حديث ، ورأى غيره أنّ الحدّ الأدنى ينبغي ألّا يقلّ حفظه عن عشرين ألف حديث ، وكان الحفاظ يتشددون في الرواية باللفظ ، ولايتساهلون حتى بالواو والفاء ، فكانوا يرون أنّ على المؤدي أن يروي ما يحمله باللفظ الذي تلقاه من شيخه دون تغيير ولا خذف ولازيادة ، واستدلوا على ذلك بقوله ﷺ : نضر الله امرءًا سمع حديثًا فأدّاه كما سمعه ، فربّ مبلغ أوعى من سامع ، وبتعليمه عليه الصلاة والسلام الصحابة الحرص على دقة الحفظ والنقل عنه ، فعن البراء بن عازب، ﷺ قال: إنّ رسول الله قال له : يا براء كيف تقول اذا أخذت مضجعك قال: قلت الله ورسوله أعلم قال: إذا أويت إلى فراشك طاهرًا فتوسّد يمينك ثم قل: اللهم أسلمتُ وجهي إليك وفوّضتُ أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلّا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت، فذكر البراء أنّ رسول الله ﷺ طلب منه فيما بعد أن يعيد أمامه الدعاء ، فعاده كما علمه غير أنّه قال: ورسولك الذي أرسلت ، بدلًا من " ونبيك الذي أرسلت. فضرب بيده في صدره وقال: ونبيك الذي أرسلت ، فكره رسول الله ﷺ أن

يبدل بنبيك برسولك مع أنّهما لا فرق بينهما في المعنى ، وعلى هذا الأساس راح الصحابة ، رضي الله عنهم ، يصحح ما يسمعه من الرواة من تغيير اللفظ النبوي بالتقديم والتأخير أو استبدال كلمة بمرادفها ، قال عبيد بن عمير وهو يقص: ""مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين" فقال ابن عمر: ويلكم لا تكذبوا على رسول الله ﷺ إنّما قال ﷺ : مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، وسمع ابن عمر أيضًا رجلًا يردد حديث الأركان الخمسة فقدم بعضها وأخَّر بعضًا مخالفًا بذلك الرواية التي سمعها ابن عمر نفسه من رسول الله ﷺ فقال له اجعل صيام رمضان آخرهنّ كما سمعتُ من في رسول الله ﷺ .

وفي عصر التابعين وأتباع التابعين ظل كثير من الرواة يؤدي حديث رسول الله ﷺ بلفظه وإن كان آخرون منهم لا يرون بأسًا بالرواية على المعنى ، قال ابن عون أدركت ثلاثة يشددون في الحروف ، وثلاثة يرخصون في المعنى ، فأمّا أصحاب المعاني فالحسن والشعبي والنخعي ، وأمّا أصحاب الحروف فالقاسم بن محمد ، ورجاء بن حيوة ، ومحمد بن سيرين ، وقد أشاد الأعمش سليمان بن مهران (ت١٤٨هـ) بهذا التشدد فحمد لهم ذلك وتغنى به قائلا : "كان العلم عند أقوام كان أحدهم لأن يخرّ من السماء أحبّ إليه من أن يزيد واوًا أو ألفًا أو دالًا" ، أما الطائفة التي لم تر بأسًا في رواية الحديث بالمعنى فإنّها اشترطت لذلك شروطًا منها : أن يكون الراوي عالمًا بالنحو والصرف وعلوم اللغة، عارفًا بمدلولات الألفاظ ، بصيرًا بمدى التفاوت بينها قادرًا على أن يؤدي الحديث خاليًا من اللحن ؛ لأنّ رسول الله ﷺ أفصح من نطق بالضاد فمن الكذب عليه أن يضع المؤدي في فيه لحنًا يستحيل أن يقع منه. قال الأصمعي: "أخشى عليه إذا لم يعرف العربية أن يدخل في قوله : "من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار فإنّ النبي ﷺ لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه كذبت عليه" ولما كانت علوم العربية متشعبة

والإحاطة بها شبه مستحيلة منع بعض العلماء غير الصحابة من رواية الحديث بالمعنى؛ لأن جبلتهم عربية ولغتهم سليقة ، قال القاضي أبو بكر بن العربي (ت٥٤٤هـ) إنّ هذا الخلاف إنّما يكون في عصر الصحابة ، وأمّا من سواهم فلا يجوز لهم تبديل اللفظ بالمعنى، وإن استوفى ذلك المعنى والصحابة بخلاف ذلك فإنّهم اجتمع فيهم أمران عظيمان: الفصاحة والبلاغة. والثاني أنّهم شاهدوا قول النبي ﷺ وفعله ، وليس من أُخبِر كمن عاين والرواية بالمعنى ينبغي أن تظل مقيدة ببعض العبارات الدالة على الحيطة والورع ، فعلى راوي الحديث إذا شكّ في لفظ من روايته أن يتبعه بقوله: أو كما قال، أو كما ورد.

ومن رواة الصحابة المشهورين أبو هريرة ﷺ أسلم سنة سبع للهجرة ومنذ إسلامه صاحب رسول الله ﷺ حتى توفي ، أي : دامت مصاحبته له أربع سنوات. إلّا أنّ هذه السنوات الأربع كانت طويلة استطاع أبو هريرة ﷺ أن يكتب فيها عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة ؛ لأنّه خلال هذه السنوات لم يفارق رسول الله ﷺ لا في السفر ولا في الإقامة فما كان يفارقه إلّا ساعات النوم، فأراد أن يعوّض عما فاته ؛ لأنه أسلم متأخرًا فلازم رسول الله ﷺ وأخذ يكتب كل أحاديثه التي يسمعها منه.

وقد أجاب أبو هريرة ﷺ عن سبب كثرة ما روى من الأحاديث خلال هذه المدة ، فقال: إنّكم تقولون أكثر أبو هريرة في حديثه عن النبي ﷺ وتقولون : إنّ المهاجرين الذين سبقوه على الإسلام لا يحدثون هذه الأحاديث ، إلّا أنّ أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم بالسوق ، وأنّ أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرضهم ، وأني كنت امرءًا مسكينًا أكثر مجالسة رسول الله ﷺ فأحضر إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا.

وأنّ النبي ﷺ حدث يوما فقال: من يبسط رداءه حتى يفرغ من حديثي ثم يقبضه إليه فلا ينسى شيئًا كان قد سمعه منّي ، فبسطت ثوبي فحدثني ثم

ضممته إلي فوالله ما كنت نسيت شيئًا سمعته منه. وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم بشيء أبدًا وهي: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ){البقرة: ١٥٩ }

هكذا يفسر أبو هريرة ﷺ سر تفرده بكثرة الرواية عن رسول الله ﷺ ".

فهو أولًا كان متفرغًا لصحبة النبي أكثر من غيره.

وهو ثانيًا كان يحمل ذاكرة قوية باركها الرسول فزادت قوة.

وهو ثالثًا لا يحدث رغبة في أن يتحدث ، بل لأنّ إفشاء هذه الأحاديث مسؤولية دينه وحياته ، وإلّا كان كاتمًا للخير والحق".

وقد كان ﷺ شديد الذكاء سريع الحفظ يكفي أنّ الرسول ﷺ دعا له بقوة الحفظ ، وقد قال عنه الإمام الشافعي ﷺ : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهره.

ولم يتخلف أبو هريرة ﷺ عن غزوة غزاها رسول الله ﷺ منذ إسلامه.

الرحلة في طلب الحديث :

قام المسلمون برحلات من أجل جمع الحديث ، وبدأت هذه الرحلات من عصر الصحابة ، وزادت قوة على مرّ الأيام ، فجابر بن عبد الله سافر على راحلته سافر شهرًا ليسمع رواية محدث ، ورحل إلى بيت المقدس ليسمع حديثًا من أبي الدرداء ، ومكحول تجشم السفر بين مصر والشام والعراق والحجاز لسماع الحديث ، وسعيد بن المسيب كان يواصل الأسفار بالليل والنهار لسماع حديث واحد أو عدد من الأحاديث.

وبذلوا لطلبهم الحديث كل غال وثمين ، فالزهري أنفق ماعنده في طلب الحديث وكان عمله يلهيه عن أهله حتى إنّ زوجته قالت والله لهذه الكتب أشدّ علي من ثلاث ضرائر، وأنفق ابن مبارك في طلب الحديث أربعين ألف درهم حتى لم يبق له نعل فكان يمشي حافيًا ، أمّا عدد طلبة الحديث فكان

كبيرًا حتى ليظنّ القارئ أنّ ما يذكر من أرقام أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة.

فقد بلغ مثلًا عدد تلامذة الحديث في الكوفة في زمن ابن سيرين أربعة آلاف ، وكان مسجد المدينة يضيق بالطلبة الذين يحضرون دروس مالك بن أنس ، وكان يحضر دروس الحديث التي يلقيها علي بن عاصم ثلاثون ألف طالب.

ولكل حديث نبوي متن وإسناد، فالمتن هو قول الرسول ﷺ والإسناد هو سلسلة الرجال الذين نقل عنهم الحديث ابتداء من الصحابي الذي سمع الحديث من رسول الله ﷺ مباشرة حتى انتقاله إلى الراوي ، من ذلك الحديث الذي رواه البخاري ونصه : "حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل حدثنا جرير بن حازم حدثنا الحسن حدثنا عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل عن الأمارة فإنّك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أُعَنت عليها...".

فعبارة " حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل حدثنا جرير بن حازم حدثنا الحسن حدثنا عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ " هذه العبارة جميعها تسمى إسنادًا ومتن هذا الإسناد هو قول الرسول ﷺ : " يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنّك إن أوتيتها عن مسألة وُكِّلْت إليها وإن أوتيتها من غير مسألة أُعنت عليها ".

فإسناد هذا الحديث هذا متنه ومن التحريف إذا جعلناه لمتن حديث آخر، ومتن هذا الحديث هذا إسناده ومن التحريف إذا جعلناه لإسناد حديث آخر والرواة ، والحفاظ كانوا يحفظون أحاديث رسول الله بمتونها وأسانيدها.

ويعدّ المحدثون عدم ترتيب الرجال في السند أو إسقاط واحد منهم بعدم ذكره يعدّون وجود مثل هذا في الحديث علامة من علامات ضعفه فيسمونه حديثًا ضعيفًا ، لذلك كان أصحاب الحديث الصحيح يحفظون ويروون

الأحاديث بمتونها وأسانيدها الخاصة بها مع المحافظة على الترتيب في رجال السند من غير تقديم أو تأخير ومن غير أن ينسوا أو يسهوا واحدًا منهم.

وقد ضبط كل راو من رواة الحديث الصحيح حفظ كل سند دون الإخلال بترتيب رجاله ، وقد كان كل منهم آية في الحفظ في هذا الباب.

وكان كثير من أهل الحديث يمتحنون الرواة بقلب الأحاديث وإدخالها عليهم ، فهذا الخطيب البغدادي يروي في هذا المجال عن البخاري ما يكبره في أعيننا ويعظمه في نفوسنا ، قال: فإنّهم اجتمعوا، أي: علماء بغداد حين قدم عليهم البخاري وعمدوا إلى مئة حديث من أحاديثه فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا لإسناد آخر ، وإسناد هذا لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشر أنفس، إلى كل رجل عشرة ، وأمروهم إذا حضر المجلس يلقون ذلك على البخاري ، فحضر المجلس أصحاب الحديث من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين فلمّا اطمأن المجلس بأهله انتدب إليه رجل من العشرة فسأله عن حديث من أحاديثه بعد أن قلب متنه وإسناده ، فقال البخاري لا أعرفه ، فسأله عن آخر كالأول ، فقال: لا أعرفه فما زال يلقي عليه واحدًا بعد واحد حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه ، فقال الفقهاء ممن في المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض، فهم الرجل ثم انتدب إليه رجل من العشرة عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال البخاري: لا أعرفه ثم انتدب إليه الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيد على: لا أعرفه، فلما علم البخاري أنهم فرغوا، التفت إلى الأول منهم، فقال: أمّا حديثك الأول فهو كذا، وحديثك الثاني فهو كذا، والثالث والرابع على التوالي حتى أتى على تمام العشرة، فردّ كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، ورد متون الأحاديث كلّها إلى أسانيدها ، وأسانيدها إلى متونها، فأقرّ له الناس بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.

ولم يكن أهل الحديث أهل علم وذكاء وقوة حافظة فحسب ، بل كانوا أيضًا أهل إيمان وتقوى وزهد ، فقد طلب الأمير خالد أمير بخارى من البخاري أن يعلم أولاده في البيت فقال له : إنّ العلم يؤتى إليه ، ولا يأتي إلى أحد فغضب عليه ونفاه.

ومن قبل كان كذلك الإمام مالك ، لمّا سافر هارون الرشيد إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ وذهب إلى المسجد النبوي الشريف فرأى الإمام مالكا ﷺ يدرس العلم ، فقال للإمام مالك يا مالك ما ضر لو جئتنا لتدرس العلم لنا في بيتنا ، فقال الإمام مالك يا هارون إنّ العلم لايأتي ولكنه يؤتى إليه ، فقال له صدقت يا إمام دار الهجرة ، وسوف آتي إليك في المسجد فقال له الإمام مالك : يا هارون إذا جئتنا متأخرًا فلن أسمح لك أن تتخطى رقاب الناس في المسجد ، فقال له هارون الرشيد سمعًا وطاعة ، وبينما كان الإمام مالك ﷺ يلقي درسًا بعد صلاة العصر دخل هارون الرشيد المسجد ودخل معه رجل ووضع الكرسي لهارون الرشيد فنظر الإمام مالك إلى هارون الرشيد فوجده جالسا على الكرسي في المسجد فغير مجرى الحديث وقال:

قال رسول الله ﷺ من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر وضعه الله ، ففهم هارون الرشيد المعنى وأمر أن ترفع الكرسي من تحته وجلس على الأرض كما يجلس الناس .

وبعد ذلك دخل على الإمام مالك قبل سفره وأعطاه هدية وقال له يا مالك خذ هذه الهدية وكانت أربعمائة دينار ، فقال له الإمام أعفني يا أمير المؤمنين أنا لا أستحق الصدقة ، ولا أقبل الهدية ، فقال له الرشيد : ولماذا لا تقبل الهدية والنبي ﷺ قبل الهدية ، فقال له مالك أنا لست نبيًّا ، ثم قال له خذ مالك وتوكل على الله وبعد ذلك دعا الرشيد الإمام مالك لزيارة بغداد عاصمة الخلافة العباسية آنذاك فرفض الإمام مالك وقال والله لا أرضى بجوار رسول الله بديلا.

فالله سبحانه ، لأنه قال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ){الحجر : ٩} هيأ لرسوله ﷺ صحابة وتابعين لا مثيل لهم في الدنيا بعظم تقواهم وعلمهم وحفظهم لكتاب الله وحديث رسوله وشدة حرصهم على نقل كلام الله وكلام رسوله للناس من غير نقص ولا زيادة ولا تحريف.

اللهم إنا نسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ماعلنا منه وما لم نعلم اللهم آمين.

الدرس الرابع

تعدد الزوجات في الإسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا)

(ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إنّ عذابها كان غرامًا)

جاء الإسلام وتعدد الزوجات مباح عند الأمم والديانات فقد كان مباحًا مثلًا في العراق القديم وعند الفرس وفي الحضارة الهندية وفي الصين حتى سمحت شريعة ليكي الصينية بتعدد الزوجات إلى مئة وثلاثين امرأة ، وفي مصر عرف الأغنياء ولا سيما الأمراء والعائلة المالكة عادة التعدد بإسراف من دون حد وكانوا يتباهون بالتعدد ، حتى كان رمسيس الثاني يفتخر بإنجابه مئة وستين ولدًا من زوجاته الكثيرات ، وكذلك كان مباحًا في اليابان واليونان وفي شريعة حمورابي.

وكان التعدد مباحًا في الديانة اليهودية حتى يروي العهد القديم عن داود وسليمان بأنّهما قد جمعا من الزوجات المئات.

ولم يرد أيّ قيد كان للتعدد ، لكن نصوص التلمود أباحته لغاية الأربع بالنسبة إلى عامة الشعب ، أمّا ولي أمر اليهود فله جواز الاقتران بثماني عشرة أمرأة.

أما في الديانة المسيحية فإنّه لم يرد في الأناجيل المتداولة نصٌّ صريح يحرم التعدد ، وإنّما الذي ورد فيها كان على سبيل الموعظة فقد ورد فيه : "إنّ الله خلق لكل رجل زوجته" وهذا لا يفيد منع التعدد بل الحث على الاكتفاء بزوجة واحدة ، بل ورد في بعض رسائل بولس ما يفيد التعدد ، فقد قال: " يلزم أن يكون الأسقف زوجًا لزوجة واحدة " ففي إلزام الأسقف وحده بذلك دليل على جواز تعدد الزوجات لغيره.

وقال (وستمارك) المتخصص في تاريخ الزواج " إنّ تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيرًا في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة " وكان لملك إيرلندة (ديار ماسدت) زوجتان وسريتان كما عَدَّدَ الملوك الميروفنجيون زوجاتهم غير مرة في القرون الوسطى، كما كان لشارلمان (٧٤٧-٨١٤) زوجتان وكثير من السراري.

وقد حدث بعد ذلك أيضًا أنّ الملك هيس فيليب ، والملك فردريك وليم الثاني البروسي تزوجا بأكثر من واحدة بموافقة القساوسة اللوثريين ، بل ذهبت بعض الطوائف المسيحية إلى وجوب تعدد الزوجات ، ففي سنة ١٥٣١م نادى اللامعمدانيون في مونستر صراحة بأنّ المسيحي ينبغي أن تكون له عدة زوجات ، ويعدّ المورمون كما هو معلوم أنّ تعدد الزوجات نظام إلهي مقدس، ثم استقرت النظم الكنيسية المستحدثة بعد ذلك على تحريم التعدد على الرغم من خلو أسفار الإنجيل من ذلك.

وكشاهد على هذا التغيير المخترع حسب أهواء القساوسة والأحبار المسيحيين لمبدأ التعدد، فإنّ المسيحية المعاصرة تعترف به في أفريقيا السوداء ؛ ذلك لما رأوا في منع التعدد من الحيلولة بينهم وبين الدخول في النصرانية ؛ لذا نادوا بإباحة التعدد فأعلنت الكنيسة أخيرًا وبصورة رسمية السماح للأفريقيين بتعدد الزوجات بغير حدٍّ.

وأخيرًا ثبت لدى علماء الاجتماع ومؤرخي الحضارات وعلماء الأثنوجرافيا كالأساتذة : وسترمارك ، وبهوس ، وهيليز ، وجنبر برج ، أنّ نظام تعدد الزوجات لم يظهر في صورة واضحة إلّا في الشعوب المتقدمة في الحضارة في حين أنّه قليل الانتشار أو معدوم في الشعوب البدائية المتأخرة.

كما أنّ الذي دفع الكنيسة إلى منع تعدد الزوجات عدّهم المرأة هي المسؤولة عن انحلال الأخلاق وانهيار الحضارة الرومانية لافتتان الرجل بها ، حتى عد أقطاب النصرانية أنّ المرأة علة الخطيئة وعضو ناقص ، فهي

ليست صورة مجد الله ، واستنكر رجال من آباء الكنيسة وفقهائها أن يكون للمرأة روح علوية وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوانات التي لا حياة لها بعد فناء جسدها ، فكان تعدد الزوجات مباحًا في الأديان السماوية جميعها ، ولم يحرم حين حرم إكبارًا للمرأة وتكريما لها ، بل كانت الفكرة الأولى في تحريمه أنّ المرأة شرّ، يُكتفى منه بأقلّ ما يستطاع ، أي: أنّ الفكرة الأولى التي دعت إلى استحسان الزواج بواحدة هي فكرة الاكتفاء بأقل الشرور، فإن لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة أهون شرًّا من امرأتين ، وهذا مايظهر من أقوال أقطاب النصرانية :

قال كريستوم: إنّ المرأة شرٌّ لا بدّ منه ، وإغواء طبيعي وكارثة مرغوب فيها وخطر منزلي وفتنة مهلكة.

أنظر ول ديورانت قصة الحضارة: ١٨٧/١٦.

وقال أحد الرهبان في خطاب موجه إلى الكهنة بأمل صرفهم عن الزواج : لو كان كل حقل أو درب ورقًا ... لو كان كل الخشب ريشًا (ليتخذ منه قلمًا) ولو تجنّد كل من يجيد الكتابة لهذه المهمة لما استطعنا مع ذلك أن نظهر كل ما في المرأة من شر ، وقال القديس بولس : إن المرأة علة الخطيئة.

فيظهر كما مرّ أن تلك المقولات السابقة كانت بمثابة ردّ الفعل للواقع الذي كان المجتمع الروماني يعيش فيه من انتشار الفواحش والمنكرات وانحلال الأخلاق الذي أدى إلى انهيار الرومان ، وعدّوا المراة مسؤولة عن ذلك ، فقرروا أنّ الزواج دنس يجب الابتعاد عنه ، وأنّ العزوبة أفضل من الزواج.

فالأديان والأنبياء جميعهم قبل محمد ﷺ لم يحرموا تعدد الزوجات ، بل أحلوه مطلقا، ونحن نستطيع أن نقول بكل ثقة إنّ الإسلام هو أول دين وضع

حدًّا لتعدد الزوجات ، فحصره في أربع نساء بعد أن كان غير محصور في عدد معيّن.

وثمة حالات لمشكلات زواجية لا يمكن حلّها إلّا بإباحة تعدد الزوجات، من تلك الحالات.

١–عقم الزوجة وحب الزوج للذرية وهذا حق مشروع لكل إنسان وهناك حالتان لا ثالث لهما:

ا–فإمّا أن يطلق الرجل زوجته ليتزوج بأخرى ، وهذا مناف لشيم الرجال ومروءاتهم.

ب–أو يتزوج عليها أخرى أملًا في الحصول على الذرية المنشودة ، وهذا هو الحل الأسلم والأفضل.

٢–مرض الزوجة المزمن أو المعدي الذي يفوت على الزوج المعاشرة الجنسية.

٣–كثرة السفر للرجل بحكم عمله والحاجة إلى بقائه شهورًا أو سنين في بلاد الغربة وعدم تمكنه من استصحاب زوجته وأولاده كلما سافر.

٤–عدم اكتفاء الرجل بزوجته لهرمها أو عجزها وعدم رغبتها في الرجل من الناحية الجنسية.

٥–قد توجد عند بعض الرجال بحكم طبيعتهم النفسية والبدنية رغبة جنسية جامحة إذ ربما لا تلبي حاجته امرأة واحدة ولا سيما في بعض المناطق الحارة فبدلًا من أن يتخذ له خليلة تفسدعليه أخلاقه أبيح له أن يشبع غريزته عن طريق حلال مشروع.

لقد جاء الإسلام وعادة التعدد موجودة لكنها دون ضوابط وحدود واضحة المعالم ، فوضع الإسلام لتعدد الزوجات قواعد تنظمه بطريقة تحفظ معها كرامة المرأة وإنسانيتها.

إذن لم ينشئ الإسلام تلك العادة ولم يوجبها ولم يستحسنها بل أباحها إباحة مقرونة بتفضيل الاكتفاء بزوجة واحدة أقرب إلى العدل وأبعد عن الفقر الناتج من كثرة الأولاد بسبب تعدد الزوجات ، كما قال بذلك الشافعي وغيره قال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ){النساء: ٣ }

وليس العدل المطلوب بين الزوجات شيئًا سهلًا ولا سيما في الحبّ القلبي والميل النفسي ؛ لذلك نفاه القرآن عن مقدور الإنسان حتى لو حرص على ذلك ، قال تعالى: (وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَاء وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلاَ تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا){ النساء: ١٢٩}

فقد وضع الإسلام لمبدأ تعدد الزوجات شرطين أساسيين هما : العدل والمقدرة ، فمن لم يستطع أن يعدل بين نسائه أو ليست له المقدرة المالية على إعالة امرأتين أو أكثر حرم عليه تعدد الزوجات.

فمن قدر على الوفاء بحقوق ثلاث مما يحتجن إليه من سكن وطعام وكسوة دون الرابعة حرم عليه ان يعقد على الرابعة ، ومن قدر على الوفاء بحقوق اثنتين دون الثالثة حرم عليه أن يعقد على الثالثة ، ومن قدر على إعالة امرأة واحدة دون الثانية حرم عليه أن يعقد على الثانية ، بل من عجز عن القيام بحق امرأة واحدة حرم عليه أن يتزوج حتى يتحقق له القدرة المالية على إعالة المرأة التي يتزوجها.

بل ذهب بعض الأئمة إلى جواز التفريق بين المرأة وزوجها المعسر الفقير إذا عجز عن النفقة لفقره وطلبت هي ذلك ؛ لأنّ الشرع لم يكلفها الصبر على الجوع مع زوج فقير ما لم تقبل هي بذلك من باب الوفاء ومكارم الأخلاق.

وإذا ظهرت في تعدد الزوجات مشاكل ، فإنّها لم تظهر إلّا بسبب عدم اتباع الرجال لتعاليم الإسلام ، والإسلام غير مسؤول عن مشكلات تحدث لعدم اتباع منهجه وتعاليمه فمشاكل تعدد الزوجات تظهر حين لا يعدل الرجل بين نسائه ، والإسلام ما أباح التعدد إلّا بشرط توافر العدالة التامة بينهنّ.

وتظهر نتيجة عدم مقدرة الرجل على الإنفاق على نسائه وأولادهن، والإسلام اشترط لمن يرغب في تعدد زوجاته أن يكون قادرًا على الإنفاق عليهنّ وعلى أولادهنّ.

فإذا ظهرت في تعدد الزوجات مشاكل لا يكون علاجها بمنع ما أباحه الله ، وإنّما يكون العلاج بالتعليم والتربية وتفقيه الناس أحكام الدين ، ألا ترى أنّ الله أباح للإنسان أن يأكل ويشرب دون أن يتجاوز الحدّ ، فإذا أسرف في الطعام والشراب أصابته الأمراض ، فليس ذلك راجعًا إلى الطعام والشراب بقدر ما هو راجع إلى النهم والإسراف، وعلاج مثل هذه الحالة لا يكون بمنعه من الأكل والشرب ، وإنما يكون بتعليمه الآداب التي ينبغي اتباعها في أكله وشربه.

ومع أنّ الإسلام اشترط لتعدد الزوجات المقدرة على العدل والإنفاق وقصره على أربع ، فقد جعل من حق المرأة أن تشترط أو يشترط ولي أمرها أن لا يتزوج الرجل عليها ، فإذا اشترطت ذلك وقبله الرجل صح هذا الشرط ولزم على الزوج الوفاء به ، ويكون لها عندئذ حق فسخ الزواج إذا لم يف لها بالشرط.

كما أنّ الرجل إذا تزوج من امرأة ثانية أذن الشرع الإسلامي للزوجة الأولى أن تكون حرّة مختارة من أن تكون زوجة ثانية لرجل متزوج ، أو ، لا ، ولها الحق في رفع أمرها إلى القضاء إذا رأت أنّ زواج زوجها من امرأة أخرى قد صار زواجا يضرها في كرامتها أو في عدم مقدرته على النفقة أو

إذا رأت أنّه لايعدل بينها وبين الزوجة الأخرى ، فجاز لها أن تطلق من قبل القاضي إن هي رغبت في ذلك.

وإذا نظرنا إلى حقيقة المجتمع الغربي يتبين أنّ المبدأ الذي ينادون به، مبدأ الاكتفاء بزوجة واحدة ومنع تعدد الزوجات لا وجود له في واقعهم.

إنّ تعدد الزوجات موجود في المجتمع الغربي ، لكنّه يختلف عن مبدأ تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي، بما يأتي:

١-تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي يقع باسم الزوجات ، لكنّه في المجتمع الغربي يقع باسم الصديقات والخليلات.

٢-يقع تعدد الزوجات في المجتمع الإسلامي بصفة علنية ، لكنه في المجتمع الغربي يقع بصفة سرية.

٣-تعدد الزوجات في المجتمع الغربي يحصل بطريق حرام غير شرعي ، ويحصل في المجتمع الإسلامي بطريق حلال وشرعي.

٤-تعدد الزوجات في المجتمع الغربي يكون غير محدد ومحصور بعدد معيَّن من النساء أمّا في المجتمع الإسلامي فيكون مقتصرًا على أربع نساء لا يزيد عن ذلك.

٥-مبدأ التعدد في الإسلام يكون مقتصرًا على تعدد الزوجات من النساء في حين أنّه في المجتمع الغربي يشمل الجنسين ، فهناك تعدد الزوجات وتعدد الأزواج في آن واحد ، فكما أنّ الرجل تكون عنده عدد من الخليلات يعاشرهنّ ويجامعهنّ ، فكذلك المرأة لها عدد من الأخلاء تعاشرهم على حد سواء معاشرة المرأة لزوجها.

٦-مبدأ التعدد في المجتمع الإسلامي يجري وفق نظام فلا يحصل به تشرد الزوجات وضياع حقوقهنّ وحقوق أولادهنّ ، أما تعدد الزوجات في المجتمع الغربي يجري بغير نظام مما يترتب على ذلك تشرد الزوجات

وضياع حقوقهنّ وحقوق أولادهنّ ، حتى إنّ الأولاد يولدون ولا يعرفون من هو أبوهم ولا يجدون من يرعاهم.

ذلك أنّ هذا التعدد يحصل بصفة سرّية لا علنية ، فلا يلزم صاحبه بالاعتراف بزوجاته وأولاده.

هذه هي الحقيقة حتى إنّ أحد الكتاب الغربيين تحدى ابناء جنسه من أن يكون أحدهم وعلى فراش الموت يدلي باعترافاته للكاهن ، تحدّاهم جميعًا أن يكون فيهم شخص واحد يستطيع أن يبرئ نفسه من الاتصال غير الشرعي بغير زوجته ، فهم جميعا يعترفون للأب الديني على فراش الموت بأنّه كان عنده في الأقل خليلة ما عدا زوجته يعاشرها معاشرة زوجته.

والغربيون الذين يتحدثون عن قضية تعدد الزوجات في الإسلام يغمضون أعينهم عما يحدث في مجتمعاتهم ، فقد شاعت في الغرب نوادي تبادل الزوجات ، فتأتي الزوجة مع زوجها إلى هذا النادي فيعطي الرجال كل منهم زوجته للآخر ويعاشرها معاشرة جنسية.

وانتشر في الغرب أيضًا مايسمى الزواج الجماعي ، وهو أن يسكن عدد من الشبان خمسة أو أكثر مع زوجاتهم في منزل واحد ويتبادلون الزوجات في ذلك المنزل ، فيعاشر كل من هؤلاء الشبان جميع الزوجات معاشرة جنسية ، أمّا الأولاد فينسب كل مولود يأتي من الزوجة إلى زوجها وإن لم يكن في حقيقة الأمر منه ، وهذا النوع من الزواج قد انتشر في السويد.

وهذه النوادي وهذه المنازل مباحة في الدول الغربية ، بل لها حصانة باسم الحرية ، فالغربيون لا يتحدثون عن هذه القذارة الخلقية في بلادهم لكن يصبون جام غضبهم على الإسلام ؛ لأنّه لم يحرم تعدد الزوجات.

فهناك طائفة من الأسباب الخاصة والعامة التي لاحظها الإسلام وهو يشرع لا لجيل خاص من الناس ولا لزمن معين محدد وإنّما يشرع للناس

جميعًا وإلى قيام الساعة ، فمراعاة الزمان والمكان لها اعتبارها وتقدير ظروف الأفراد لا بدّ من أن يحسب لها حسابا.

ولقد كان لهذا التشريع والأخذ به في العالم الإسلامي فضل كبير في بقائه دينا نقيًّا بعيدًا عن الرذائل الاجتماعية والنقائص الخلقية التي فشت في المجتمعات التي لا تؤمن بتعدد الزوجات ولا تعترف به.

وقد لوحظ في المجتمعات التي يحرم تعدد الزوجات شيوع الفسق وانتشار الفجور حتى زاد عدد البغايا ، أي : اللواتي يحترفن الزنا ، عن عدد المتزوجات في بعض المدن الأوربية.

يقول الكاتب الإنكليزي برترا ندرسل : إنّ نظام الزواج بامرأة واحدة فقط وتطبيقه تطبيقًا صارمًا قائم على توقع أنّ عدد النساء مساو لعدد الرجال ، وما دامت الحالة ليست كذلك فإنّ بقاءه قسوة بالغة لأولئك اللائي يبقين عانسات بلا زواج .

بل ينساق أكثرهن إلى امتهان الزنا ؛ فيكثر الأولاد غير الشرعيين الذين لا يعرفون آباءهم ، فتضيع أنسابهم وتتخلى عنهم أمهاتهم ، حتى ذكرت التقارير الرسمية في أمريكا مثلًا ، أنَّ مؤسسات الدولة ضاقت ذرعًا بأولاد الزنا لكثرتهم ، وراحت تنفق ملايين الدولارات من أجل رعايتهم ، كما يصيب كثيرًا من هؤلاء الأولاد الضائعين الكآبة والأمراض النفسية والانحراف عن الطريق السوي ، مما يزيد الدولة ضعفًا من الناحية الاقتصادية والصحية والاجتماعية ؛ لذلك أشاد الرحالة الألماني : بول أشميد ، بنظام تعدد الزوجات ، وعده عنصرًا مهمًّا من عناصر القوة التي يمتلكها العالم الإسلامي ويفتقدها العالم الأوربي ، وهذا ما تضمنه كتابه : الإسلام قوة الغد ، الذي أصدره سنة ١٩٣٦م .

فهذا هو تشريع البشر أين هو من تشريع الله.؟!

وصدق قول الله تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) {المائدة: ٥٠ }

اللهم أرنا الحق حقا ووفقنا في اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا ووفقنا في اجتنابه ، اللهم آمين.

الدرس الخامس

زواجه ﷺ من عائشة رضي الله عنها

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن ونعوذ بك من العجز والكسل ونعوذ بك من الجبن والبخل ونعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

كان السرّ من تعدد زوجاته ﷺ نشر تعاليمه الأسرية للناس ، وكذلك كان زواجه من عائشة رضي الله عنها ، لكن أثار المستشرقون في هذا الزواج قولهم بأنّه تزوج عائشة وكانت طفلة.

والحقيقة أنّه ليس في هذا الزواج حتى لو كانت الغاية منه الدنيا أمر غريب ؛ لأنّ زواج الرجل الكبير من بنت صغيرة كان أمرًا شائعًا واعتياديًّا عند العرب وفي عصر الرسالة النبوية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ الرسول ﷺ لم يتزوج من عائشة إلّا بعد أن كانت بالغة الأنوثة ، وقد تزوجها الرسول ﷺ تكريمًا لوالدها أبي بكر رجل الإسلام الأول ، وإليك بعض الحقائق عنها.

١-لم يكن هناك شهادات ميلاد تثبت سنة الولادة وتحدد العمر بالضبط ، ولكن كانوا يعرفون استعداد البنت للزواج ، كما يعرف الفلاح نضج الثمرة ، وذلك بملامح الفتاة ، وهذا الأمر تجيد النساء معرفته.

٢-البيئة العربية كانت تزوج البنت بمجرد بلوغها النضج خوفًا من الانحراف.

٣-كانت السيدة عائشة كاملة الأنوثة يوم أن عرضت السيدة خولة بنت حكيم على النبي أن يتزوج من عائشة ، بل أكثر من ذلك أنّها كانت مخطوبة لرجل مشرك اسمه جبير بن مطعم، وبعد عامين من خطبتها أصرّ

جبير على الكفر ففرق بينهما وخطبها النبي تكريمًا لأبي بكر ، أليس ذلك يكرم؟ ".

٤-كما أنّ أمّها زوجة أبي بكر الصديق رضي الله عنها ، كانت ترى أنّ ابنتها قد كبرت عندما فسخت خطبتها من جبير بن مطعم بن عدي ، ولمّا علمت أنّ الرسول ﷺ خطبها لنفسه قالت لأبي بكر ﷺ : هذه ابنتك عائشة قد أذهب الله عن طريقها جبيرًا وأهله فادفعها إلى الرسول ﷺ تلقى الخير والبركة ، والأمّ حين تخطب بنتها للزواج تكون أعرف الناس بها وبعلامات الأنوثة فيها.

لا شك أنّ عائشة رضي الله عنها تزوجت في سن مبكر، لكنّه كان سنًّا مقبولًا وكامل الأنوثة، ولا تنسى أنّ عامل المناخ له أثر في نضوج المراة سريعًا.

وقد تبين أيضًا أنّ الغاية من تعدد زوجاته هو نشر الرسالة البيتية إلى الناس ، فلا أحد يعلم ما يقوله ويفعله في بيته غير نسائهنّ ، فهنّ أقرب الناس إليه.

وكان الرسول ﷺ لا يستطيع أن يشرح للنساء القضايا النسوية فكانت نساؤه تقوم بهذه المهمة ، وهي مهمة كبيرة لا تكفيها امرأة واحدة.

كما أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون نساء النبي ﷺ مرجعًا للناس بعد وفاته ، فقد كان الصحابة يرجعون دائما بعد وفاته إلى زوجاته ويسألونهنّ عن فتاوى وأمور جديدة لم تحصل من قبل فيجدون الإجابة عندهنّ بأنّ الرسول ﷺ قال كذا وكذا وفعل كذا وكذا فأكثر نساؤه ﷺ عشن بعده بسنوات كثيرة وحصلت في حياتهنّ إشكالات كان الناس يجدون حلها عند زوجاته ﷺ

فالرسول ﷺ توفي سنة ١١ هـ ، أمّا أكثر زوجاته فقد توفاهنّ الله بعده بسنوات.

فزينب بنت جحش رضي الله عنها توفيت سنة ٥٠ هـ.

وسودة رضي الله عنها توفيت سنة ٤٥ هـ، وكذلك حفصة رضي الله عنها توفيت في هذه السنة.

وجويرية بنت الحارث رضي الله عنها توفيت سنة ٥٦ هـ.

وأم حبيبة رضي الله عنها توفيت سنة ٤٤ هـ.

وأم سلمة رضي الله عنها توفيت سنة ٥٩ هـ.

وعائشة رضي الله عنها توفيت سنة ٥٩ هـ.

وميمونة بنت الحارث رضي الله عنها توفيت سنة ٦١ هـ.

فنلحظ أن زوجاته ﷺ توفاهنّ الله بعد وفاة الرسول ﷺ بزمن طويل.

فقد توفيت مثلًا أم حبيبة بعده بـ ٣٣ سنة.

وتوفيت أم سلمة بعده بـ ٤٨ سنة وكذلك كان وفاة عائشة، وتوفيت ميمونة بعده بـ ٥٠ سنة رضي الله عنهنّ جميعًا.

فالصحابة خلال هذه السنوات الطويلة بعد وفاته ﷺ كانوا يسألون زوجاته عن أمور استجدت بعده ، وكانوا أكثر ما يسألون عائشة رضي الله عنها ؛ لأنّها كانت أصغرهن سنًّا وأكثرهنَّ حفظًا وعلمًا وذكاء ونشاطًا.

وقد ورد حديث قيل بأنّه ضعيف وهو قوله ﷺ أنّه كان يشير إليها في حياته ويقول خذوا نصف دينكم من هذه ، وهذا الحديث لا غرابة فيه إذا ثبتت صحته، بل هو الواقع معناه ، ويكفي دليلًا على ذلك أنّ أحد الأساتذة وهو الدكتور عبد المحسن قد حصل على شهادة الدكتوراه في أطروحته بعنوان: تفسير عائشة أم المؤمنين ، وكانت هذه الأطروحة مؤلفة من ألف صفحة تقريبًا واعتمدت على أكثر من ستمئة مصدر ومرجع.

فقد كان هذا دورها في تفسير القرآن الكريم ، ولها دور آخر في الحديث كدورها في التفسير، فقد كانت مفسرة ومحدثة يعتمد عليها المفسرون في جانب التفسير ويعتمد عليها المحدثون في جانب الحديث.

ولهذا السر ولهذه الحكمة أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يتزوج من عائشة رضي الله عنها، إذ إنّ زواجه منها كان بأمرٍ من الله جل وعلا.

فعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: (رأيتكِ) في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة من حرير (أي في قطعة من الحرير الجيد) فيقول (لي) هذه امرأتك فأكشفُ عن وجهكِ ، فإذا أنتِ هي ، فأقول إن يك هذا من عند الله يمضه. رواه الشيخان والترمذي ولفظه : جاء جبريل للنبي ﷺ بصورة عائشة في خرقة حرير خضراء فقال: إنّ هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

وفي أصول العقيدة الإسلامية أنّ الله سبحانه كان قادرًا على أن يعصم محمدًا ﷺ من كل خطأ غير متعمد ومن كل سهو كما عصمه من كل ذنب لكنهم قالوا إنّ في جعل الرسول ﷺ يقع في خطأ أو سهو تشريعًا للناس ؛ لأنّه لو لم يخطئ أو يسهو لما علم الناس ماذا يصنعون إذا وقعوا في مثل هذا الخطأ أو السهو ، فقالوا مثلًا : إنّ سهو رسول الله ﷺ في الصلاة تشريع للناس وتعليم لهم كيفية سجود السهو ؛ لأنّ دلالة الفعل أوضح وأقوى من دلالة القول.

ونقول استنادًا إلى ذلك أنّ زواجه ﷺ كانت الغاية منه تعليم الناس كيف يكون الزواج وكيف تكون معاملة الزوجين حتى تقبيله ﷺ لزوجاته كان تشريعًا وتعليمًا لهم ، فقد سئلت عائشة مثلًا رضي الله عنها بعد وفاة الرسول ﷺ عن الرجل الصائم في رمضان إذا قبَّل زوجته وهو صائم ، أيفطر أم لا؟ فأجابت : كان رسول الله ﷺ يقبل إحدى زوجاته وهو صائم فقيل لها أأنت كنت تلك الزوجة؟ فابتسمت رضي الله عنها.

كما أنّ الرسول ﷺ وإن تزوج عائشة رضي الله عنها ، وهو كبير السن إلّا أنّه لم يزل يتمتع حتى وفاته بنشاط الشباب وقوته وكان أجمل رجال قريش ، وكانت كلّ شابّة ، وهو في ذلك العمر تتمناه ، فلم ترد أيّة إشارة في السنة أو السيرة أنّ عائشة رضي الله عنها كانت تحسّ بالغبن ؛ لأنّها تزوجت من رسول الله ﷺ بل تجد نفسها محسودة على زواجها منه ، والدليل على ذلك أنّها كانت تغار عليه من نساء كثيرات طلبن منه أن يتزوجهنّ ، قال ابن كثير في تفسيره: " والغرض من هذا أنّ اللائي وهبنَ أنفسهنّ للنبي

ﷺ كثير، كما قال البخاري ... وعن عائشة قالت : كنت أغار من اللائي وهبنَ أنفسهنّ للنبي ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ "[1].

وفي تفسير ابن كثير أيضًا أنّه ﷺ لم يتزوج واحدة من هؤلاء النسوة اللواتي طلبنَ الزواج منه على الرغم من أنّ ذلك كان مباحًا له بأمر من الله سبحانه.

(1) تفسير إبن كثير.

الدرس السادس

زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها

بسم الله، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم اغفر لنا خطيئاتنا وجهلنا وإسرافنا في أمرنا وما أنت أعلم به منا ، اللهم اغفر لنا جدنا وهزلنا وخطأنا وعمدنا وكل ذلك عندنا ، اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخّرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شئ قدير.

لم يكن الرسول ﷺ يبغي من تعدد زوجاته الدنيا ومتاعها وإنّما كان يبغي من ذلك تثبيت أركان الدين الجديد ، ونشر الدعوة والرسالة ؛ لذلك تعددت أغراض زواجه ﷺ فقد كان مثلًا الدافع إلى زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها تشريعيًّا نصَّ على ذلك صريح قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُّبِينًا {٣٦} وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا {٣٧} مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا {٣٨} الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا {٣٩} مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا){الأحزاب : ٣٦-٤٠}

أوضحت هذه الآيات قصة زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها ، لكن مما يؤسف له أن يروي لنا عدد من المفسرين القدامى هذه القصة بطريقة لا تليق البتة بأخلاق الرسول ﷺ شبيهة بالقصة التي يرويها اليهود في التوراة عن داود عليه السلام أنّه كان عنده تسع وتسعون زوجة ، ثم رأى زوجة أحد قادته العسكريين عارية فأعجبته فدعاها إليه فزنى بها ، ثم حملت منه فعمد إلى زوجها فاغتاله ثم تزوجها ، ويبدو أنّ اليهود قد دسوا مثل هذه القصة عن رسول الله ﷺ وجعلوها ضمن الروايات الباطلة التي اعتمد عليها مفسرون ومؤرخون مسلمون ، قال أحد الباحثين :

ذكر الطبري وابن الأثير وغيرهما أنّ رسول الله خرج يريد زيدًا وكان على باب زيد سد من شعر فرفعه الريح فرأى زينب وهي حاسرة ومكشوفة الرأس والوجه فأعجبته " وقد كانت زينب ابن عمة رسول الله ﷺ وقد زوجها من مولاه زيد بن حارثة.

وقال أبو السعود في تفسيره : إنّ رسول الله ﷺ مرّ ببيت زيد ولم يكن فيه زيد ، فرأى زينب فبهره حسنها ، وقال: سبحان الله مقلب القلوب.

ومعنى ، مقلب القلوب ، : أنّ الله سبحانه جعل محمدًا ﷺ يهوى زينب بعد أن كان لا يهواها من قبل ، ومثل هذا قال الزمخشري ، والقرطبي ، والنسفي ، والسيوطي ومن سار على شاكلتهم.

وقد أفاض هؤلاء المفسرون في تعليل تلك الزيجة إفاضة عجيبة غريبة واجتهدوا اجتهادات باطلة حتى مكنوا أعداء الإسلام من الزنادقة والمجوس والمتشدقين بالعلم من باحثينا المعاصرين من الذين استهوتهم آراء المستشرقين في الإطناب في تخريج هذه الروايات.

وإذا كان مؤرخون مسلمون ومفسرون مسلمون قد قالوا بهذا من غير وعي ولا إدراك فلا عجب ، أن يستغل مستشرقون أقوالهم ويستندون إليها ويضيفون عليها للطعن بسيد الرسل والأنبياء ، كالمستشرقة مدام ريكامييه

التي تقول عنه ﷺ في شأن زواجه من زينب: " فقلب قلبه فجأة ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب المخزومية وأم سلمة ونسي كذلك ذكرى خديجة " وكالمستشرق غوستاف لوبون الذي يقول: " وأطلق محمد العنان لهذا الحبّ حتى إنّه رأى زوجة ابنه بالتبني وهي عارية فوقع في قلبه شئ منها فسرحها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون غما فأوحى إلى محمد بوساطة جبريل الذي كان يتصل به يوميًّا من آيات تسوغ له ذلك وانقلب الانتقاد إلى سكون "

وأثار هذه القضية نفسها كارل بروكلمان وكذلك جرجي زيدان وكثير من المستشرقين وعدد من الباحثين العرب المعاصرين.

وهذه الروايات باطلة جملة وتفصيلًا لا تليق بمن قال الله عنه: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) {القلم : ٤ }.

لذلك لم يقبل بهذه الروايات عدد من المفسرين من بينهم ابن كثير رحمه الله إذ يقول: ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير هاهنا آثارًا عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحًا لعدم صحتها فلا نوردها ".

ويقول محمد الغزالي في كتابه فقه السيرة : " على أنّ الغريب في هذه القصة ما أدخله المغفلون عليها من دسائس الشهوة ، ومظاهر الحبّ الرخيص فقد زعموا أنّ الرسول ﷺ أحبّ زينب ثم كتم هذا الحب ثم أظهره بعد حين فتزوجها بعد أن أمر زيدًا بتطليقها[١].

يذكر ابن كثير في تفسيره أنّ زينب بقيت عند زيد زهاء سنة[٢] ثم طلقها ، وقد تزوجها الرسول ﷺ وعمرها (٣٨) سنة ، وهذا يعني أنّ الرسول ﷺ زوج زينب من زيد ، وقد تجاوزت سنّ الثلاثين ، وقد كانت رضي الله عنها بنت عمته فأمّها أميمة بنت عبد المطلب ، وكان يعرفها شابّة بالغة وكان يشاهدها منذ طفولتها حتى صارت كهلة فلو كان في قلبه أو نفسه ﷺ

(١) بحث للدكتور رياض هاشم أستاذ مساعد في السيرة النبوية.
(٢) تفسير إبن كثير.

شيء تجاهها ، لتزوجها هو ولما قام بتزويجها لزيد ولما أجبرها على ذلك ، ولآثرها لنفسه مع العلم أنّ زينب ، رضي الله عنها ، كانت قد رفضت في البدء الزواج من زيد ، وأبدت حبها ورغبتها في الزواج من محمد ﷺ .

وإذا كان المستشرقون قد أعجبتهم روايات المفسرين المسلمين ؛ لأنها توافق هواهم ونياتهم الخبيثة ، فإنّ الله قد هيَّأ من بني جنسهم ممن هو أعلم منهم وأشهر منهم يردّ عليهم وعلى تلك الروايات التي أشاعها المفسرون المسلمون ، وأعد هذا في نظري من المعجزات النبوية كيف أنّ الله سبحانه يُسَخِّرُ من أعداء الإسلام من يردّ لا على خبث الأعداء فحسب ، بل على أوهام علمائنا أيضًا ، انتصارًا لهذا الدين أو لنبي هذا الدين فاسمع أخي القارئ ما يقوله قس غير مسلم وغير عربي في هذه القضية.

فبين يدي كتاب (محمد في المدينة) تأليف المستشرق مونتكمري واط ترجمة شعبان بركات ، وهو من كبار الأساتذة الجامعيين الأوربيين .

يعرض هذا المستشرق في البدء ما أشاعه عدد من العلماء المسلمين القدامى كالطبري والذين اتبعوهم من المستشرقين يعرض رواياتهم حول مسألة تعدد زوجاته ولا سيما علاقته بزينب فيقول ما نصّه : ((أخذوا ينمّقون القصص حول علاقاته بالنساء أو حبّه من النظرة الأولى لزينب)) "[1].

فعبارته (ينمّقون القصص) تكاد تنطبق على أقوالهم بدقة ، فهي تعني أنّهم لم يختلقوا هذه الروايات الباطلة فحسب ، بل نمقوها بكلام مرتب رتبوا مقدماتها ونتائجها.

لذلك نرى هذا المستشرق يترك أقوال علمائنا والمفسرين القدامى ويترك كذلك أقوال المستشرقين ويستند لبيان حقيقة زواج الرسول ﷺ من زينب إلى القرآن الكريم ، فيذكر أنّ معاصري محمد ويعني بهم صحابته رضي الله عنهم ما كانوا ينتقدون هذا الزواج ولكنهم كانوا ينتقدونه أنّه كيف يجوز

([1]) محمد في المدينة/ مونتكمري واط، ص٥٠٢.

للرسول ﷺ أن يتزوج امرأة زيد ، وزيد هذا كان الرسول قد تبناه فكان من عادة العرب في الجاهلية تحريم الزواج من امرأة المُتَبَنَّى ؛ لأنهم كانوا يعدون المتبنى كالابن الحقيقي.

فمن أجل إبطال هذه العادة أمر الله رسوله الزواج من زينب فيقول ما نصه : ((وكانت هذه النظرة تستوحي المبدأ القديم القائل بأنّ الولد الربيب المتبنى كالابن الحقيقي ... غير أنّ تفسير آيات القرآن المذكورة هو أنّه لا يجب عدّ الولد الربيب المتبنى كالابن الحقيقي ؛ ولهذا فإنه يستحسن التخلي التام عن النظريات القديمة ، وينمّ القرآن عن أنّ محمدًا في أول الأمر كان لا يريد الزواج من زينب ؛ لأنّه كان يخشى استهجان الرأي العام ، ثم رأى أنّ هذا الزواج واجب يفرضه الله عليه ... فقد دلل زواجه من زينب للمؤمنين أنّه لا مانع للزواج من زوجة الولد المتبنَّى المطلقة ، وكان من أهداف محمد في عقد هذا الزواج أن يقضي على سيطرة هذا الوهم القديم على سلوك الناس))"[1].

وما ذكره مذكور في نصّ القرآن يأتي تفصيله إن شاء الله تعالى.

ويذكر هذا المستشرق في صفحة أخرى عن أنّ زواج الرسول ﷺ من زينب كان لهذا السبب ، وسبب آخر هو أنّ زينب بنت جحش كانت تنتمي لقبيلة موالية لقبيلة عبد شمس المكية ، وهي قبيلة كبيرة ولها مكانتها في ذلك الوقت ، فكان زواجه منها غايته أيضًا تقوية علاقاته مع هذه القبيلة ، إذ يقول ما نصّه ((أما زواجها (يعني زواج زينب) من محمد فيمكن أن يكون العامل الاجتماعي قد تغلب على العامل السياسي ؛ إذ أراد أن يبرهن على أنّه قطع كل علاقة بالمحرمات القديمة ، ومع ذلك فإنه كان يفكر بقبيلة عبد شمس))[2].

([1]) المصدر نفسه، ص٥٠٢-٥٠٣.
([2]) المصدر نفسه، ص٤٣٩-٤٤٠.

ويذكر سببًا ثالثًا هو أنّ زواج الرسول ﷺ من زينب كان لغرض سياسي أيضًا ؛ ذلك أنّ أهل قبيلة زينب كانوا حلفاء والد أبي سفيان ، وكان زواجه من زينب قبل زواجه من بنت أبي سفيان ، وكان أبو سفيان يقود حملة عسكرية كبيرة ضد الرسول ﷺ[1] فأراد الرسول ﷺ بزواجه من زينب أن يمتصّ إلى حدٍّ ما عداوة أبي سفيان له.

ويذكر سببًا رابعًا فيقول ما نصه: " ربما أدرك محمد أنّ زينب مَلَّتْ زيدًا ، وليس هناك من رجل يليق بأن يصبح زوجًا لها إلّا هو "[2].

ويقول أخيرا ما نصه: ((وبالرغم من القصص العاطفية من البعيد أن يكون محمد قد أُسر بمفاتن زينب الجسدية ... ولكن زينب حين تزوجت محمدًا كانت في الخامسة والثلاثين من عمرها ، وهي سنٌّ متقدمة بالنسبة للعربية...))[3].

فهو بكلامه الأخير هذا ينفي بصفة مطلقة أن يكون الدافع إلى زواجه منها حبه لها.

فقصة هذا الزواج كما يوجزها الأستاذ محمود محمد غريب الموجه الديني لشباب جامعة القاهرة ، هي كالآتي:

كان زيد ﷺ عبدًا عند خديجة رضي الله عنها، فلمّا تزوجها رسول الله ﷺ صار عند الرسول عليه الصلاة والسلام يقوم بخدمته.

جاء أبوه إلى النبي يطالبه بأن يعتق ابنه زيدًا ويعيده إليه، ففعل ذلك إلّا أنّ زيدًا أبى أن يعود إلى أبيه وآثر البقاء عند محمد ﷺ إذ لم يجد أحدًا خيرًا منه في رحمته وحنانه وحسن معاشرته وأخلاقه ، فلما رأى أبوه منه ذلك تبرأ منه أمام الملأ ونادى : أيا معشر قريش: اشهدوا أنّ زيدًا ليس ابني ، فأراد رسول الله ﷺ أن يجبر خاطر زيد فنادى في المقام نفسه ، يا معشر

---

(1) المصدر نفسه، ص٥٠٤-٥٠٥.
(2) المصدر نفسه ٥٠٥.
(3) المصدر نفسه، ص٥٠٥-٥٠٦.

قريش اشهدوا أنّ زيدا ابني، ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يسمونه : زيد بن محمد ، فقد تبناه عليه الصلاة والسلام ثم عزم أن يزوجه فاختار له بنت عمته زينب بنت جحش ، وكان عليه الصلاة والسلام يرمي من وراء ذلك تحطيم القيود التي وضعتها الجاهلية على العبيد ؛ إذ كانوا يمنعون أن يزوجوا العبد من السيدة الحرة.

رفضت السيدة زينب في بادئ الأمر أن تتزوج زيدًا الذي كان عبدًا كذلك رفض أخوها هذا الزواج ، لكن السماء قالت كلمتها في هذا الموضوع فلا اختيار في أمر الله ، قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا){الأحزاب : ٣٦}

وأطاعت زينب أمر السماء وسلمت جسدها لزيد ، أمّا قلبها فلا سلطان لها عليه ، وكان لا بد لهذا الزواج من أن ينجب المشاكل ، ويذهب زيد إلى النبي ويشتكي، ويطيب النبي ﷺ خاطره ويتألم له ؛ لأنه كان يتمنى نجاح التجربة ، ولكنَّ الوحي أخبر النبي ﷺ أنّ زينب ستصبح زوجة له بعد أن يطلقها زيد ، وفزع النبي عليه الصلاة والسلام من هذا الخبر ؛ لأنه سيفتح عليه أفواه المنافقين.

إنه كيف جاز له أن يتزوج ابنة متبناه ، وكان من عادة العرب في الجاهلية تحريم هذا الزواج ؛ لأنهم كانوا يعدون المتبنّى كالابن الحقيقي ، فأراد الله إبطال هذه العادة الجاهلية ؛ لذلك كتم الرسول ﷺ خبر الوحي راجيًا أن يعفيه الله من هذا الزواج ، في هذه اللحظات جاء زيد إلى النبي ﷺ يخبره بعزمه على طلاق زينب ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : أمسك عليك زوجك واتق الله ، فنزل قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا){الأحزاب : ٣٧}

والمعنى: إذ تقول يا محمد لزيد الذي أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، وانعمت عليه بنعمة العتق : أمسك عليك زوجتك ، فلا تطلقها ، واتق الله ؛ لأن الطلاق أبغض الحلال ، وتخفي في نفسك الشئ الذي سيظهره الله ، وهو أنك تخفي أنّ زينب ستصبح زوجة لك بعد طلاقها من زيد كما أخبرك الوحي وتخشى الناس وحديثهم بأنّك تزوجْتَ مطلقة ابنك بالتبني ، وقد كان هذا محرمًا في الجاهلية ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطرًا أي: بعد أن طلقها زيد وانقضت عدتها زوجناك منها[1].

فزواج زينب من زيد ثم طلاقها منه وزواج الرسول عليه الصلاة والسلام منها هذا كله تدبير من الله جل وعلا ؛ ليبطل الله بالعمل لا بالقول قانونًا جاهليًّا يقضي بتحريم زواج الرجل من امرأة ابنه بالتبني ؛ ليبين الله سبحانه أنّ المتبنَّى لا يكون ابنًا حقيقة بأيِّ حال من الأحوال ؛ لهذا يجوز للمتبني أن يتزوج امرأة من تبناه بعد أن يطلقها.

فهذا الزواج كان لسبب تشريعي وكان أيضًا لسبب إنساني ؛ لأن زينب رضي الله عنها لم تكن راضية بزواجها من زيد ﷺ إلّا أنّها قبلت به بإلحاح من الرسول ﷺ فاستحياؤها من الرسول ﷺ وإكرامًا له قبلت بهذا الزواج ، وقد رأى عليه الصلاة والسلام أنه هو الذي يتحمل نتيجة سوء العلاقة بينها وبين زيد التي أدت بالنهاية إلى الفراق بينهما ، فتزوجها مواساة لها رضي الله عنها.

وأبعد من هذا كلّه كيف يتسنى لمؤرخ أو لمفسر أو لمستشرق أن يزعم أنّ محمدًا رأى زينب فأعجب بجمالها فأمر زيدا ليطلقها من أجل أن يتزوجها ، كيف وهذا الزواج قد فرضه الله على نبيه محمد ﷺ بدون اختيار منه، وباعتراف المفسرين جميعهم بصريح قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا) وكلمة (زَوَّجْنَاكَهَا) واضح منها أنّ فاعل هذا الزواج هو الله سبحانه ؛ لذلك كانت زينب رضي الله عنها تفخر على نساء النبي جميعهنّ بهذه الآية وتقول: " كلكنّ تزوجتنّ في الأرض أما أنا فزوجتني السماء.

([1]) زواج النبي ﷺ .

ومثل هذه الأحاديث يوردها الطبري نفسه ، والذين قالوا ما قالوا ، يقول القرطبي في تفسيره" ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول: زوجكنّ آباؤكنّ وزوجني الله تعالى " رواه النسائي وتقول: إنّ الله عز وجل أنكحني من السماء.

ويقول ابن كثير في تفسيره: " وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك ﷺ قال: إنّ زينب بنت جحش رضي الله عنها ، كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: زوجكنّ أهاليكنّ وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات، ... وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء ، وقالت عائشة رضي الله عنها أنا التي نزل عذري من السماء ، فاعترفت لها زينب رضي الله عنها ، وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن المغيرة عن الشعبي قال: كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ إني لأدلي عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدلي بهنّ: إن جدي وجدك واحد ، وتعني بذلك عبد المطلب ، وإني أنكحنيكَ الله عز وجل من السماء، وأنّ السفير جبريل عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى : (لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا) {الأحزاب: ٣٧} أي: إنّما أبحنا لك أن تتزوجها وفعلنا ذلك لئلّا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أنّ رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ﷺ فكان يقال: زيد بن محمد، فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : (مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ {٤} ادْعُوهُمْ لابَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا){ الأحزاب :٤- ٥} ثم زاد ذلك بيانًا وتأكيدًا بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لمّا طلقها زيد بن حارثة ﷺ ولهذا قال تعالى في آية التحريم : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ

أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا {٢٣النساء: ٢٣] قال : {وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ) ليحترز من الابن الدعي (المتبنّى) فإن ذلك كثير فيهم ، وقوله تعالى : (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) أي: وكان هذا الأمر الذي وقع قد قرره الله تعالى وحتمه وهو كائن لا محالة.

وقوله تعالى: (مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ)}الأحزاب: ٣٨} أي فيما أحلّ له وأمره به من تزوج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه (متبناه) زيد بن حارثة ﷺ وقوله تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) {الأحزاب: ٦٢ } أي: هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشئ وعليهم في ذلك حرج ، وردٌّ على من توهم من المنافقين نقصًا في تزوجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي قد تبناه"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير.

الدرس السابع

تعدد زوجاته ﷺ

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا وعملًا متقبلًا ورزقًا طيبًا.

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وأغننا بفضلك عمن سواك.

حدد القرآن الكريم الزوجات في قوله تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ){النساء: ٣ }.

نزلت هذه الآية في السنة الثانية للهجرة ، وكان تعدد الزوجات قبل ذلك مباحًا بلا حدود، فالرسول ﷺ تزوج نساءه جميعهن قبل نزول هذه الآية فهو لم يخالف قرآنًا نزل عليه ولم يعط نفسه من الحقوق ما حرم على أمته ، لكن لِمَ لَمْ يأمر الله سبحانه نبيه محمدًا ﷺ أن يطلق بقية زوجاته؟

أيّ امرأة تطلق من زوجها لها الحق أن تتزوج من رجل آخر ، أمّا زوجات النبي فلو طلقت واحدة منهنّ فإنّها لا تحلّ لرجل آخر ؛ ذلك أنّ نساء النبي ﷺ هنّ أمهات المؤمنين ، قال تعالى: (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ){الأحزاب: ٦ } وقال تعالى: (وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا) {الأحزاب: ٥٣ }.

كان عدد نساء النبي قبل وفاته ﷺ تسع نساء ، وتعدد الزوجات لم يكن بدعة ابتدعها رسول الله ﷺ من دون الأنبياء ، فإبراهيم أبو الأنبياء مثلًا كانت عنده امرأتان في وقت واحد ، وداود عليه السلام كانت عنده مئة زوجة وسليمان ألف زوجة كما يذكر ذلك الكتاب المقدس الذي يضم التوراة

والأناجيل والأربعة ، ومع ذلك فإنّه لم يتزوجهنّ للمتعة بل كان لأغراض تتطلبها مهمة النبوة ويمكن أن نجملها فيما يأتي:

١-الغرض التشريعي

أنّ الرسول ﷺ تزوج من زينب بنت جحش لإبطال عادة التبني عند العرب ؛ ولإبطال ما حرمه أهل الجاهلية ، وقد كان هذا الزواج بتدبير من الله سبحانه وبأمر منه جل وعلا.

٢-الغرض الإنساني

يتجلّى في هذا الغرض الجانب الإنساني للرسول ﷺ وحرصه على مواساة أرامل الشهداء الذين جادوا بأرواحهم من أجل دعوته وتركوا أرامل عجائز لا يقدرون على عيال أنفسهم وأولادهنّ اليتامى ، فقد تزوج مثلًا أمّ سلمة واسمها هند بنت أمية المخزومي واسم أبي أمية سهيل ، وقد كانت من أوائل المهاجرين إلى الحبشة ، وقد تزوجها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، ولما أراد أبو سلمة الهجرة الى المدينة تلبية لأمر الرسول ﷺ أخذ معه زوجته أم سلمة وابنهما سلمة ، فلما رآه رجال من بني المغيرة ، وهم قوم أم سلمة وكانوا من المشركين ، فكرهوا أن تهاجر مع زوجها ، فأخذوها منه كرها مع ابنها، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، وهم قوم أبي سلمة ، وقالوا : والله لا نترك ابننا سلمة عندها إذ نزعتموها من صاحبنا فتجاذبوا سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، فأصبحت أم سلمة عند قومها بني المغيرة ، وأصبح ابنها عند بني عبد الأسد قوم زوجها ، أمّا زوجها أبو سلمة فقد هاجر وحده دونهما إلى المدينة وبقيت أم سلمة رضي الله عنها سنة كاملة تخرج إلى الأبطح وتبكي كل يوم زوجها وابنها حتى رقّ لها قومها بنو المغيرة ، وقالوا لها : الحقي بزوجك إن شئت عند ذاك ردّ بنو عبد الأسد إليها إبنها سلمة ، وخرجت مهاجرة إلى المدينة ، وكانت من قبل قد هاجرت إلى الحبشة وشاركت مع رسول الله ﷺ في معركة بدر وأحد وجرح زوجها في معركة أحد فمات على

أثر الجرح شهيدًا ، وترك أبو سلمة زوجته وهي كهلة مسنّة ليس لها من يرعاها ، وقد عُرض عليها الزواج فرفضت ؛ لأنّه كانت ترى أنّه لا أحد خيرًا لها من زوجها الذي استشهد ، ولما ذهب إليها رسول الله ﷺ يريد أن يواسيها قال لها : سلي الله أن يؤجرك مصيبتك ، وأن يخلفك خيرًا منه ، فقالت : من يكون خيرًا من أبي سلمة يا رسول الله!

فلما خطبها رسول الله ﷺ لنفسه رضيت به ؛ لأنه لم تجد خيرًا من أبي سلمة إلّا رسول الله ﷺ .

فهذه المرأة ألا تستحق أن يواسيها رسول الله ﷺ وأن يشرفها ويكرمها بزواجه منها؟

وتزوج سودة بنت زمعة، وكانت امرأة متقدمة في السنّ ، ليس لها جمال ولا أموال ولا من ذوات الجاه ، قالت هي عن نفسها : والله ما بي من حاجة إلى الرجال ، ولكن أحببت أن أبعث يوم القيامة مع زوجات النبي ﷺ وسبب زواجه منها أنّه عُرض عليه حالها ومحنتها، فقد كانت رضي الله عنها عند السكران بن عمرو العامري ، وكانت هي وزوجها من أوائل المؤمنين المصدقين بدعوة الرسول ﷺ وقد هاجرا معا إلى الحبشة ، وبعد أن عادا إلى مكة توفي زوجها بعد وصوله إليها بأيام ، وبقيت سودة وحيدة تخشى العودة إلى أهلها خوفًا من بطش أبيها المشرك ، والمسلمون في مكة ضعفاء لا يقدرون على حمايتها ، فأدرك عليه الصلاة والسلام أنّه لا ينبغي أن يترك هذه المسلمة لمحنتها ليزداد ألمها وحزنها، فتزوجها إنقاذًا لها من أهوال الوحدة ، وبطش الكفار بها وخوفًا عليها من أن ترتدَّ عن الإسلام.

وزينب بنت خزيمة بن الحارث أصيب زوجها يوم بدر ومات ، فواساها الرسول ﷺ بالزواج منها ، وكانت تسمى أم المساكين ، وتوفيت رضي الله عنها بعد ثمانية أشهر وعمرها يزيد على الخمسين .

٣-الغرض السياسي:

فقد تزوج حفصة بنت عمر رضي الله عنهما، بعد أن مات زوجها خنيس بن حذافة في إحدى المعارك ، عرضها أبوها عمر بن الخطاب ﷺ على أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما فاعتذرا له من زواجها ، علم النبي ﷺ بما أصاب عمر ﷺ من غمٍّ عندما رفض أبو بكر وعثمان هذا الزواج ، فقدم النبي ﷺ على زواجها ، ولم تكن ذات جمال ، وقد تزوجها الرسول ﷺ تكريما لعمر، وقد كان عمر ﷺ يقول لابنته عندما كانت تشتكي من عيشة التقشف التي عاشتها معه : والله إنّ النبي لا يحبّك يا حفصة ، لولا أنا لطلقك.

ويحاول قادة الأمم في العصر الحديث أن يرتبطوا مع وزرائهم برباط المصاهرة ؛ لذلك تزوج الرسول ﷺ بنت أبي بكر ﷺ وزيره الأول ، ثم بحفصة بنت عمر ﷺ وزيره الثاني ، ولهذا السبب زوج ابنتيه لعثمان ﷺ.

وتزوج جويرية بنت الحارث ، وكان أبوها سيد بني المصطلق أعلن الحرب على الإسلام ، ولكن سرعان ما خاب أمله وانهزم جيشه وفرّ رجاله وأُسرت نساؤه ، ووقعت السيدة جويرية أسيرة عند زيد بن قيس وأصاب بنت العز من الذل ما أصابها فذهبت إلى بيت النبي ﷺ تستجدي عطفه بقولها: يا رسول الله أنا بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما قد تعلم ، وإني استعين بك لتخلصني من الأسر ، فإنّ مثلي لا تصلح أن تعامل معاملة العبيد ، وهنا رآى النبي ﷺ أن يعبر عن كرمه النبيل مع بنت زعيم أعدائه، فأعتقها ثم رفع عنها ذل الوحدة فعرض عليها بأن تصبح من زوجاته أمهات المؤمنين فأسرعت إلى تلبية طلبه فكان لهذا الزواج أثر مبارك على كل بني المصطلق ذلك أنّ أسراهم قد أصبحوا أصهار النبي ﷺ فهرع كل منهم إلى بيت النبي ﷺ يعلن إسلامه اعترافًا بالجميل فأسلم بنو المصطلق جميعهم.

ولهذا الغرض تزوج ميمونة بنت الحارث، وكانت قبيلتها من القبائل ذات المكانة المرجوة في جزيرة العرب ، فهي من بني عامر بن صعصعة.

وتزوج أم حبيبة ، وهي زينب بنت أبي سفيان زعيم الشرك في مكة ، هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة فرارًا بدينها الإسلام ، فتن هناك زوجها بالنصرانية ، فتنصر وهجر الإسلام فطلقها ، علم النبي ﷺ بما أصاب المسكينة في غربتها ، فأرسل إلى ملك الحبشة فأعطاها مهرها وعقد عليها النبي ﷺ .

فهذا الزواج بقدر ما فيه من الرأفة ، فهو أيضًا تخطيط بعيد لامتصاص ما في نفس أبي سفيان من حقد حيث هاجرت بنته إلى الحبشة بسبب اتباعها لمحمد ﷺ فزاد أبو سفيان من كرهه له وللإسلام ، ولقد كان لهذا الزواج من الأثر الطيب ما جعل أبا سفيان يدخل في الإسلام ويفتح مكة أمام دعوته الكريمة.

فقد كان هذا الزواج تأليفًا لِقَلْبِ أبي سفيان ولقلوب عشيرتها وهي عشيرة عبد شمس التي كانت تعدُّ أوسع عشائر مكة وأغناها ، وقد كان أيضًا تكريما لامرأة ضحت بأبيها وزوجها من أجل الإسلام.

فقد خرج أبو سفيان يريد المدينة ، وذكر أنّ له ابنة هناك في بيت خصمه ، فتسلل إليه يستعين بها على ما جاء من أجله ، وفوجئت أم المؤمنين بأبيها يدخل بيتها ولم تكن قد رأته منذ أن هاجرت إلى الحبشة فوقفت تجاهه متحيرة لا تدري ماذا تفعل وماذا تقول:

وأدرك أبو سفيان ما تعانيه ابنته ، فأعفاها من أن تأذن له بالجلوس، وتقدم من تلقاء نفسه ليجلس على الفراش فما راعه إلّا أن وثبت عليه ابنته فاختطفت الفراش وطوته ، فسألها أبوها : أطوتيه يا بُنَيَّةَ رغبةً بي عن الفراش أم رغبةً بالفراش عني؟ فأجابته هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه.

فقال والحسرة تقطع قلبه: لقد أصابك يا بنيتي بعدي شرًّا وانصرف عنها غاضبًا.

فهذه المرأة ألا تستحق أن يكرمها رسول الله ﷺ بزواجه منها؟ ألا تستحق أن يجعلها من أمهات المؤمنين؟.

وتزوج صفية بنت حيي، وكان زوجها ملك اليهود كنانة بن الربيع، ينتهي نسبها إلى هرون الرشيد عليه السلام ، فحياة الرق لا تصلح لزوجات الملوك ، فتزوجها إكرامًا لهرون عليه السلام وتأليفا لقلوب اليهود، وكذلك تزوج مارية القبطية النصرانية التي أهداها إليه ملك مصر تأليفًا لقلوب النصارى.

فزواج الرسول ﷺ لم يكن لتحقيق أغراض آنية عاجلة فحسب، بل كان ﷺ يرمي من وراء زواجه أيضًا تحقيق أغراض تمتد إلى قيام الساعة إلى كل عصر وأرض يعيش فيها يهود ومسلمون ، فالإسلام رسالة خالدة ولكل زمان ومكان وقد ثبت أنه قد يكون للمصاهرة أثر في تأليف قلوب الأجيال اللاحقة أحيانا ، كما كان لها أثر في تأليف قلوب الأجيال المعاصرة لحياته عليه الصلاة والسلام ، ولم تزل إلى عصرنا هذا تعلن شخصيات يهودية ومسيحية إسلامها ، ومما لا شك فيه أنّ الذي دفعهم إلى الإسلام فهمهم لمعاني القرآن وتأثرهم بسيرة الرسول ﷺ وقد كان زواجه يمثل أهم جوانب سيرته عليه الصلاة والسلام.

فقد كان الرسول ﷺ يبغي من زواجه من كل امرأة تزوجها أن يستميل قومها إليه وإلى الإسلام، وقد حقق هذا الزواج هذا المبتغى.

ففي هذا الزواج الذي كان لغرض سياسي تتجلى حكمة الرسول ﷺ فقد استطاع من خلاله أن يصل إلى قلوب زعماء الشرك وأن يصاهرهم فيصهر ما في قلوبهم من حقد على الإسلام، وقد نجح هذا الزواج نجاحًا كبيرًا وبخاصة مع الذين حاربوا الإسلام مثل أبي سفيان بن حرب زعيم المشركين،

والحارث بن أبي ضرار سيد بني المصطلق اللذين تزوج الرسول ﷺ من ابنتيهما.

فقد فعل هذا الزواج ما لم تفعله المعارك من تحطيم للحواجز وانتصار للإسلام.

فقد تزوج الرسول ﷺ بعدة نساء إلّا أنه عليه الصلاة والسلام لم يتزوج واحدة منهنّ حبا في جمالها أو سعيا وراء متاع الدنيا ، وإنّما تزوجهنّ بأمر من الله ولتوطيد أركان الإسلام ونشر الدعوة.

فقد تزوج خديجة رضي الله عنها وعمرها أربعون سنة ، وكان عمره خمسا وعشرين سنة، وقد كانت كل نساء مكة وقتئذ تهواه وتتمناه ، فقد كان أجمل شباب مكة وأعلاهم نسبًا وأسماهم خلقا ، حتى كن يعرضن أنفسهنّ عليه إلّا أنّه لم يرض إلّا بخديجة رضي الله عنها لحسن أخلاقها حتى كانت تلقب بالطاهرة ، وكان الرسول ﷺ يلقب بالصادق الأمين ، وبقي معها رضي الله عنها أكثر من عشرين سنة لم يتزوج عليها، ولو بقيت لما تزوج غيرها. إلّا أنّ مشيئة الله أرادت أن تتوفى ليتزوج بعدها ، ولو لم يتزوج بعدة نساء لضاع منّا نصف الإسلام ، ولجهلنا نصف تعاليم هذا الدين ، وهذه حقيقة لا مراء فيها فالله سبحانه حين أرسل محمدًا ﷺ أرسله للناس كافة ، ومن أحكام الشريعة ما يكون مشتركا بين الرجال والنساء ، ومنها ما يكون مختصًّا بالنساء دون الرجال وهي كثيرة ويجد الرجال حرجًا في إيضاحها للنساء ، بل رسول الله ﷺ كان يجد حرجًا في تبيين قسم من الأحكام الخاصة بالنساء ، ولا سيّما الأحكام المتعلقة بالغسل والطهارة والحيض والنفاس ، فكان لا يستطيع تبليغها إلى النساء بصفة واضحة إلّا عن طريق نسائه.

ولما كانت الأحكام الشرعية المتعلقة بالنساء كثيرة ومتعددة الجوانب فإنّ امرأة واحدة لا يمكنها أن تقوم بهذه المهمة ، بل لا يستطيع تبيان هذه الأحكام لتشعبها إلّا عدد من النساء من قبائل متعددة لتنقل أحكام الشريعة بين نساء قبائلها لتنتشر تلك الأحكام من قبلهنّ إلى العالم شرقًا وغربًا.

بل نساؤه ﷺ لم يقتصرن على نشر الأحكام المتعلقة بالنساء ، بل نشرت كل منهنّ بين أفراد قومها سيرته واخلاقه وأحاديثه وما كان يأمر به وينهى عنه فقد ذكرن للناس جوانب كثيرة من حياته الاجتماعية، إذ كان نساؤه أقرب الناس إليه وأعرف بحياته من غيرهنّ.

فالرسول ﷺ لو كان زواجه حبًّا في متاع النساء ومن أجل الدنيا لعاش كما عاش الملوك ولهيأ لزوجاته أن يعشن كما تعيش نساء الملوك ، فقد اشتاق نساء النبي ﷺ إلى العيش الليِّن والكساء الناعم كغيرهنّ من نساء المؤمنات ، وحصل أن تظاهرن وطالبنه بالعيش الرغيد ليظهرن دلالهنّ ، وكان الطلب عادلًا وسهل التحقيق ، فلو أراد النبي ﷺ لعاش أغنى الناس أو في الأقل لعاش كما عاش أيّ ملك كان في الدنيا ، وقد كان الصحابة مع ذلك رضي الله عنهم مستعدين جميعهم أتمّ الاستعداد أن يلبوا له أيّ طلب كان يطلبه ، وأن يفدوه بكل ما يملكون من مال ونفيس ، بل الرسول ﷺ كان رئيس دولة وقد أصبحت كلّ أموال الدول بين يديه وكان بإمكانه أن يعيش هو وزوجاته عيشة المترفين المرفهين ، إلا أنّ الرسول ﷺ رفض طلبهنّ واعتزلهنّ شهرًا قضاه بالمسجد ، ثم خيرهنّ القرآن الكريم بين أمرين إمّا الرضا بعيش الكفاف مع الصبر وإمّا الطلاق ، ذلك أنّ متعة العيش وإن كانت حلالًا إلّا أنّها تشغل عن الرسالة وفي ذلك يقول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لاَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا {٢٨} وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الأخِرَةَ فَإِنَّ اللّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا)}الأحزاب : ٢٨-٢٩} ولكن سرعان ما عاد نساء النبي ﷺ إلى رشدهنّ واخترن الله ورسوله راضيات بعيش الكفاف في بيت النبوة.

إنّه عليه الصلاة والسلام لو كانت غايته من زواجه من نسائه غريزيًّا ودنيويًّا لأغدق عليهنّ كل أسباب النعمة ووسائل الترفيه ولألبسهنّ الحرير والذهب ، إلّا أنّه ﷺ طلب منهنّ أن يعشن مثله راضيات بحياة الزهد ؛ لأنّ زواجه منهنّ كان زواج رسالة لا زواج متعة وعبث.

والزواج وتعدد الزوجات من سنن الرسل والأنبياء ، فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام تزوج بامرأتين هاجر وساره ، وكذلك يعقوب عليه السلام كان عنده امرأتان جاءه من الأولى عشرة أولاد ومن الثانية يوسف وبنيامين.

بل الكتاب المقدس الذي يضم التوراة والأناجيل يخبرنا بأنّ النبي داود كان عنده تسع وتسعون زوجة ، وأن النبيّ سليمان تزوج بثلاثمائة امرأة من النساء الحرائر وتسعمائة من النساء الإماء، ، واليهود والنصارى يؤمنون على حد سواء بهذين النبيين ويؤمنون بنبوتهما ولكن مع ذلك لا يثيرون على تعدد زوجاتهما إلى هذا الحد أيّ اعتراض كان ، بل يعدونه مسألة اعتيادية ، إلّا أنّهم يطعنون في شخص الرسول محمد ﷺ لأنّه كان عنده وقت وفاته تسع نساء وليس في الدنيا رجل ، أعف منه نفسًا وأخلاقًا.

ودلائل عفة الرسول ﷺ كثيرة ، فمن دلائل عفته أنّه عاش في الجاهلية أربعين عامًا بين قوم يتعاطون أنواع المعاصي وشتى طرق الزنا ، إلّا أنّ كتب السيرة تجمع على أنّه لم يرتكب في هذه الفترة ومنذ طفولته بأية معصية كانت، وبأي نوع من أنواع الزنا.

وقد تزوج خديجة رضي الله عنها وعمرها أربعون عامًا وعمره ﷺ خمسة وعشرون عامًا ، ولم يفكر في الزواج عليها حتى توفيت بعد أن بقيت معه ٢٣ عامًا وبعد أن تجاوز عمره الثلاثة والخمسين.

وقد تقدم أنَّه لو كانت غايته الدنيا ونساءها لجعل نساءه يَعِشْنَ معه عيشة الباذخات المترفات كما هو حال كلّ ملوك الدنيا في كل زمان ومكان إلّا أنّه آثر أن يعيش وزوجاته عيشة التقشف والزهد حتى ثارت عليه نساؤه يطلبن منه أن يعشن كما تعيش نساء الملوك فرفض طلبهنّ وخيرهنّ بين أن يعشن معه كما يعيش هو أو يطلقهنّ جميعًا ، وكان بإمكانه أن يعيش أغنى رجل وأترف رجل فقد كان رئيس دولة وكان صحابته رضي الله عنهم مستعدين أن يقدموا له لو أراد كل غال ونفيس.

وبعد بعثته ﷺ فرض الله عليه قيام الليل كل يوم ، فكان يقضي ثلث الليل أو نصفه أو ثلثيه بالصلاة والتهجد وكان يطيل قيامه حتى تتورم قدماه، فهكذا كان يقضي ليله، أمّا نهاره فكان يقضيه بالدعوة إلى الله والإعداد لتربية الرجال وإقامة دولة الإسلام.

أهذه حياة رجل متع نفسه بالدنيا والنساء أم هي حياة رجل شغل عمره كله ليله ونهاره بالجهاد وطاعة الله؟

لقد استغل المستشرقون قضية زواجه ﷺ للطعن بالإسلام ونبي الإسلام ، وكما قلنا من قبل أنَّ من سنة الله أن يسخر من أعداء هذا الدين من يرد على زملائه ، فها هو المؤرخ الغربي الذي مر ذكره ، المستشرق مونتكمري واط ، درس حياة الرسول ﷺ وتطرق إلى مسائل زواجه بالتفصيل يقول في خاتمة دراسته عن محمد ﷺ ما نصّه ((كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام تملكنا الذهول أمام عظمة هذا العمل ... غير أنّ الرجل (يعني به محمدا ﷺ) كان على مستوى الظروف تمامًا فلو لم يكن نبيًّا ورجل دولة وإدارة ، ولو لم يضع ثقته بالله ويقتنع بشكل ثابت أنّ الله أرسله لما كتب فصلا مهما من تاريخ الإنسانية ، ولي أمل أنّ هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو من أعظم رجال أبناء آدم))"[1].

فهذه شهادة مؤرخ أوربي مشهور غير مسلم لم تكن له أية مصلحة من وراء إدلائه بهذه الشهادة سوى ذكر الحقيقة التي توصل إليها بعد دراسة تفصيلية لحياة الرسول ﷺ السياسية والاجتماعية.

اللهم انصر هذا الدين إلى يوم الدين، ورد عنه كيد الكائدين وأنعم علينا بأن نكون من أنصار شرعك والدعاة إلى دينك حتى يأتينا اليقين.

([1]) محمد في المدينة، مونتكمري واط، ترجمة شعبان بركات، ص٥١٢.

اللهم اجعل من جعلته سيد بني آدم يوم القيامة قائدنا وقدوتنا في الدنيا واحشرنا تحت لوائه يوم الدين اللهم آمين

الدرس الثامن

(للذكرمثلُ حظّ الأنثيين)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

يزعم الغربيون وعملاؤهم الذين هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا أنّ الإسلام فرق بين المراة والرجل حين جعل للذكر مثل حظ الأنثيين في الإرث ، وزعموا أنّ هذه التفرقة استندت إلى كون الإسلام قد عد المرأة نصف إنسان ؛ لذلك جاء إرثها على النصف من حظ الرجل.

والحقيقة أنّ لإسلام حين جعل للذكر مثل حظ الأنثيين لم يكن مستندًا إلى عد المرأة نصف الرجل في الإنسانية بدلالة أنّه ساوى بينهما في الحالات الأخرى منها.

١-مساواة الأم للأب في السدس في حال وفاة ابن أو ابنة لهما مع وجود فرع وارث للميت قال تعالى : (وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ){النساء : ١١].

٢-وكذلك مساواة الجدة والجدّ في الحالة المشابهة.

٣-إذا مات الرجل وليس له أبوان ولا أخوة ولا أولاد باقون على قيد الحياة وكان له أخ أو أخت من أمّ ، يأخذ كل منهما من أمواله السدس بدون تمييز بين أن يكون الأخ رجلًا أو امرأة ، وإذا كان أخوته من أمّه اثنين فأكثر فإنهم يشتركون في ثلث أمواله ، ويقسم هذا الثلث بينهم بالتساوي بدون تمييز بين الذكور والإناث أيضًا وهذا وارد في نص قوله تعالى : (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوَاْ أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاء فِي الثُّلُثِ){النساء : ١٢}

٤-بل هناك حالات يكون نصيب الأنثى فيها أكثر من نصيب الذكر كما لو ماتت المرأة ، وتركت زوجها وأمّها وأخوين شقيقين وأختها لأم ، فإنّ

للأخت للأم السدس كاملًا ، وللذكرين الشقيقين السدس بينهما لكل واحد منهما نصف السدس.

٥-وكذا لو ماتت المراة وتركت زوجها وأختها شقيقتها وأخًا لأب فإنّ الزوج يأخذ النصف ، والأخت الشقيقة تأخذ النصف الباقي بعد الزوج ، والأخ لأب لا يرث شيئًا ؛ لأنه عصبة لم يبق له شئ فلو كان مكانه أخت فلها السدس يعال لها به.

٦-وعند ابن عباس ومن وافقه لو ماتت امرأة وتركت زوجًا وأبوين فللزوج النصف ، وللأم الثلث ، وللأب السدس آخذا بظاهر قوله تعالى: (فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ){النساء : ١١}

وقد كانت قبائل من العرب تئد البنات وكانت العرب لا تورث النساء ولا الصبيان من أبناء الميت وإنما يورثون من يلاقي العدو ويقاتل في الحرب ، فشرع الإسلام توريث المرأة وبيّن حقوقها في الإرث زوجة كانت أم أمًّا أم بنتًا قال تعالى : (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا){النساء : ٧ }.

وكانت العرب ترث النساء كرهًا وذلك بأن يجيء الوارث (الابن مثلًا) فيلقي ثوبه على زوجة مورثه (زوجة أبيه مثلًا) ثم يقول: ورثتها كما ورثت ماله فيكون أحق بها من نفسها ، فإن شاء تزوجها أو زوجها وأخذ مهرها لنفسه ، أو حرم عليها الزواج طمعًا في أن تفدي نفسها بمال تمنحه إيّاه جزاء إطلاق سراحها ، أو يتعمد بقاءها عنده حتى تموت فيرث أموالها.

فقد روى البخاري وأبو داود أنّهم كانوا إذا مات الرجل وله زوجة ورثها من يرث ماله ، وقد يعضلها ويضيق عليها ويمنعها من الزواج حتى تفتدي منه بمال.

فلما جاء الإسلام حرم ذلك كله فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ النِّسَاء كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا){النساء : ١٩}

وقوله تعالى: (ولا تعضلوهن): يعني: ولا تمنعوهن الزواج.

وكذلك كانت المرأة لا ترث شيئًا عند الأمم قبل الإسلام ، فكانت مثلًا لا ترث عند الصينيين واليابانيين ، بل لا يحق لها أن تملك شيئًا من المال ، وهي لا ترث في اليهودية عند وجود أخوة لها من الذكور ، وكذلك كانت في النصرانية لا يحق لها أن تملك المال بصفة مستقلة.

وكان الميراث عند العرب قبل الإسلام وقفًا على الابن الأكبر ، أمّا البنات والصغار من الأولاد فكانوا لا يأخذون شيئًا من الميراث ، وإذا مات الرجل ولم يترك إلّا إناثا آل ميراثه كله إلى أعمامهنّ ، أما بناته وأمّهنّ فلا يأخذن شيئا.

ولا يزال القانون الإسلامي سابقًا كل الرسالات السماوية والقوانين الحديثة في إعطاء المرأة الحقوق المالية التي أعطاها للرجل ، فالشريعة الإسلامية تساوي بين الذكر والأنثى في الولاية على المال والعقود من بيع وشراء وإيجار وشركة وقرض ورهن ووديعة وهبة ووصية ووصاية غيرها وأن توكل فيها من شاءت وليس لأبيها أو زوجها عند الزواج أو غيرهما أن يتدخلوا في ذلك.

وفي أغلب الدول الأوربية كانت تنتقل ملكية أملاك المرأة إلى زوجها عند الزواج حتى عام ١٨٨٢م.

وكان القانون الفرنسي ينصّ أيضا على أنّ القاصرين الذين لا يحقّ لهم أن يمتلكوا حتى أموالهم الخاصة هم الصبي والمجنون والمرأة ، أي: أنّ المرأة لا تُعطى شيئًا من ميراث أبيها ، إذ تعدّ قاصرة فتعامل معاملة الصبي

والمجنون واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٨م حيث عدلت نصوص القانون المذكور لمصلحة المرأة مع بقاء بعض القيود على تصرفات المرأة المتزوجة ، وهذه القيود نصّت عليها الجريدة الفرنسية التي نشرت في ٢٠ فبراير من هذه السنة (١٩٣٨) وهذه القيود هي:

١. تمنع المرأة من توقيع أذونات الصرف المالية (الشيكات).
٢. تمنع من منحها حسابًا جاريًا في أيّ مصرف كان من المصارف.
٣. تمنع من أن توقع أيّ عقد كان.
٤. تمنع من استيلائها على الإرث مباشرة بدون إذن القاضي.

ورفعت هذه القيود أخيرًا عام ١٩٦٦م وحصلت بذلك المرأة الفرنسية لأول مرة على استقلالها الاقتصادي ، هذا الاستقلال الذي تمتعت به المرأة المسلمة منذ أربعة عشر قرنًا.

فقد كانت المرأة لا ترث عند كل دين وأمة ، فلما جاء الإسلام جعل لها نصيبًا في الميراث.

ولأنّ الإسلام جاء ليقيم العدل على أساس الحقوق والواجبات فقد جعل المراة ترث نصف ما يرث الرجل ؛ لكون الواجبات المالية كلها تقع في الإسلام على عاتق الرجل ، فنفقتها واجبة على أبيها أو ولي أمرها أو أقاربها ما لم تتزوج ، وواجبة على الزوج بعد زواجها ، لا فرق في ذلك بين أن تكون فقيرة لا تستطيع الإنفاق على نفسها أو غنية تستطيعه ، والمقصود بالنفقة هنا توفير ما تحتاج إليه الزوجة وأولادها من طعام وملبس ومسكن ودواء وخدمة ، وهذه النفقة واجبة بالكتاب والسنة والإجماع حتى جاز للزوجة أن تأخذ من زوجها بدون علمه إذا بخل عليها بالنفقة ، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها أنّ هند بنت عتبة قالت يا رسول الله إنّ أبا سفيان رجل شحيح (بخيل) وليس يعطيني وولدي إلّا ما أخذت منه ، وهو لا يعلم ، قال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف.

ونفقتها واجبة على بيت المال في الدولة الإسلامية إن لم يكن لها زوج أوعائل يعيلها.

فاستنادًا إلى ميزان الحقوق والواجبات يكون الإسلام قد عدل في العطاء بين المرأة والرجل ، بل ليصحّ القول بأنّه أعطاها أكثر مما أعطى للرجل ، والدليل على ذلك أنّ المال الذي يقبضه الزوج من الميراث ينفقه كلّه على أهله وعياله ، أمّا ما تأخذه المرأة وإن بلغ نصف ما يأخذه أخوها الرجل سيبقى عندها ؛ لأنّها غير مسؤولة عن أيّة نفقات مالية كانت ، اللهم إلّا إذا عمدت إلى تبذيره في حاجات غير ضرورية ؛ لذلك تجد في نهاية المطاف أنّه فائض عن حاجتها فتعمد إلى التصدق به إلى زوجها الأجنبي عن ميراث أبيها فتمنّ به عليه.

فالمساواة في العطاء بين أفراد أية جماعة لا تكون مساواة حقيقية بينهم إذا كانوا غير متساوين في التكاليف ، إذ يجب أن تختلف الحقوق إذا اختلفت الواجبات ، وهذا قانون تعمل به كل دساتير الدنيا اليوم ، فالدولة تعطي مثلًا الموظف ذا العيال الأكثر مخصصات مالية أكثر.

على أنّ هذه النسبة تكون في المال الموروث بلا تعب ، فهو يقسم حسب أعدل قانون وصلت إليه البشرية ، وهو لكل حسب حاجته وتكاليفه ، أمّا المال المكتسب فلا تفرقة فيه بين الرجل والمرأة لا في الأجر على العمل ولا في ربح التجارة ولا في حق التملك ، في حين ما يزال النساء في أوربا حتى القرن العشرين يتظاهرن من أجل الحصول على هذه المساواة.

ليس غريبًا أن نجد غربيين يطعنون في عدالة هذا الدين ، ولكن من الغريب ومما يؤسف له أن نجد من كتاب العرب والمسلمين ممن فسدت فطرتهم من يطعن في الإسلام ، هذا النفر الضال لا يضرون إلّا أنفسهم ، فالله سبحانه قد تعهّد بحفظ دينه ، وتعهّد بأن يظهره على الدين كله ، ولو

كره الكافرون ، وتعهّد بأن يهيئ له في كل عصر وأرض من يعلي شأنه عربا كانوا أم غير عرب.

وخاب من خان دينه وهو في الآخرة أشد خيبة وخذلانًا.

في الحديث الذي رواه مسلم ، يقول رسول الله ﷺ : " ترد عليَّ أمَّتي الحوض وأنا أذود الناس عنه (أي: أدفع الناس من الأمم الأخرى التي تريد ورود حوضي ؛ لأني أريد أن يرده من هو من أمتي فحسب) كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا يا نبي الله تعرفنا؟ قال: نعم لكم سيما (لكم علامة متميزة) ليست لأحد غيركم تردون عليَّ غُرًّا محجلين (بيض الوجوه والقوائم) من آثار الوضوء وليصدنَّ عني طائفة منكم فلا يصلون(إلى حوضي) فأقول: ياربِّ هؤلاء من أصحابي (يعني هؤلاء من أمتي ؛ لأنّه لم يثبت من صحابته من غيَّر أو بدَّل بعده) فيجيبني ملك فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟". فإنهم قد بدلوا بعدك وخانوا دينهم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: وهو بين ظهراني أصحابه " إنّي على الحوض أنظر من يرد عليّ منكم ، فوالله ليقطعنَّ دوني رجال ليحال بينهم وبيني تذودهم (وترجعهم الملائكة عن ورود حوضي والوصول إليه) فلأقولنّ : أي ربِّ (هؤلاء أعرفهم) من أمتي ، فيقول لا تدري ما أحدثوا بعدك مازالوا يرجعون على أعقابهم. رواه مسلم.

وعن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: " بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم (أنّهم من أمتي) خرج رجل (ملك وقف) من بيني وبينهم فقال (لهذه الزمرة) هَلُمَّ (تعالوا معي) فقلت (للملك) إلى أين (تذهب بأمتي)؟ قال إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم؟ فقال: إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقري (فرجعوا عن دينك) ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم (أنّهم أمتي) خرج رجل (ملك حال) من بيني وبينهم ، فقال لهم هلم ، قلت: إلى أين؟

قال: إلى النار والله، قلت: ما شأنهم؟ قال: إنّهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلّا مثل همل النعم". رواه البخاري ومسلم.

وهمل النعم : المتروك من الإبل ليلًا ونهارًا فيهمل ، وهو الشارد البعيد عن تجمع الإبل ، ولا يكون هذا إلّا شاذًّا ونادرًا ، والمعنى : أنَّه لا ينجو منهم من الذهاب بهم إلى النار إلّا القليل جدًّا ، فلا يحول الملك بيني بينهم فيصلون إلى حوضي.

اللهم ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة واجعلنا من هذا القليل الناجي وممن يفوزون بورود الحوض الكوثر ولقاء سيد المرسلين يوم الدين

الدرس التاسع

شـهادة المـرأة

بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه.

اللهم إنا نعوذ بك من الجبن والبخل ونعوذ بك من أن نرد إلى أرذل العمر ونعوذ بك من فتنة الدنيا ونعوذ بك من فتنة القبر.

أثار أعداء الإسلام والشاكون فيه تساؤلاتهم المريبة ، لماذا جعل القرآن شهادة الرجل معادلة لشهادة امرأتين؟ أليس في هذا تنقيص لكرامة المرأة وإهانة لإنسانيتها أو تقرير للأوضاع الجاهلية السائدة قبل الإسلام في النظرة الدولية لها.؟!

لقد جاء مبدأ توثيق الحقوق وإثباتها عن طريق الكتابة والشهادة في آية المداينة فقال تعالى : (وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى){البقرة: ٢٨٢].

ولا يخفى أنّ الحديث في الآية حول توثيق الحقوق ؛ لئلّا تضيع ولا علاقة لها بإنسانية المرأة وكرامتها وأهليتهما.

والسبب في عدّ الإسلام شهادة امرأتين مقابل شهادة رجل واحد. ، يعود إلى ما يأتي :

١-يريد الإسلام للمرأة أن تكون رسالتها الاجتماعية مقصورة على شؤون الأسرة ، وهذا ما يقتضيه لزوم بيتها في أغلب الأوقات ، وهذه الرسالة يجعلها غير مهتمة بما عدا ذلك فيما يتعلق بالمعاملات المالية وما شابهها، بل تكون ممارستها لها أو حضورها لمجالسها لا يقع إلّا قليلًا ؛ لذلك تكون ذاكرتها في هذه الجهة ضعيفة بعكسها في الأمور المنزلية فإنّها تكون فيها أقوى من ذاكرة الرجل ؛ ذلك أنّ من طبيعة البشر ذكورًا وإناثًا أن يقوى

تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها ، ولا تتخرم تلك القاعدة بممارسة عدد من النساء للأعمال المالية ؛ لأنّها قليلة والأحكام العامة إنّما تناط بالأكثر في الأشياء وبأصلها دون الشاذ منها.

٢-جعل الله طبيعة المرأة تتميز من الرجل برهافة الحس وقوة الوجدان ورقة القلب ، وقد جعلها الله بهذه الطبيعة لتؤدي وظيفتها الأساسية من الحضانة والأمومة على خير وجه ؛ لذلك جاءت عاطفتها أقوى من تفكيرها وتطغى عليه في كثير من تصرفاتها ؛ لذا جاء استبعاد شهادتها في القضايا الخطرة كالحدود والدماء ، وفيما عداهما قبلت مع شهادة رجل بشرط أن تكون معها واحدة أخرى حتى إذا نسيت إحداهما ذكّرتها الأخرى ، ثم أخذ بشهادتها وحدها في الأمور التي لم يطلع عليها غيرها.

٣-إنّ الشهادة تحملًا وأداء بحاجة إلى الصلابة والشجاعة والقدرة على الخروج من نطاق العاطفة ، في حين أنّ المرأة تهلع أمام الشدائد من الجرائم وترق أمام الأحزان ، فلا تملك رباطة الجأش لرؤية القتل مثلًا حتى تشهد أمام القاضي، ولا يأمن من جانب عاطفتها حينما ترى المتهم في قفص الاتهام ينتظر الحكم بالموت مثلًا من أن تشفق عليه فتبدل الشهادة أو تحجم عن أدائها ؛ لذا جاء الإرشاد إلى الاستشهاد وفق الآية المذكورة.

وجعل شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد لا يعني أنّ المرأة تساوي نصف رجل ، وإنّما هو إجراء روعي فيه توفير كل الضمانات في الشهادة سواء كانت الشهادة لمصلحة المتهم أم ضده ، ولما كانت بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال مظنة أن تتأثر بملابسات القضية فتضل عن الحقيقة روعي أن تكون معها امرأة أخرى أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ؛ وقد يكون المشهود له أو عليه امرأة جميلة تثير غيرة الشاهدة ، أو قد يكون فتى يثير كوامن الغريزة أو عاطفة الأمومة إلى آخر هذه العواطف التي تدفع إلى الضلال بوعي أو بغير وعي ، ولكن من النادر جدًّا حين

تحضر امرأتان في مجال واحد أن تتفقا على تزييف واحد دون أن تكشف إحداهما خبايا الأخرى فتظهر الحقيقة.

٤-لا تعني الآية عدم الأخذ بشهادة المرأة الواحدة مطلقًا ، بل أجاز الإسلام الأخذ بشهادة امرأة واحدة أو أمرأتين من دون الرجل في الحوادث الفجائية أو في الحالات التي إن لم تؤخذ بشهادتها ضاعت الحقوق ، وكذلك يؤخذ بشهادتها دون الرجل في الحوادث التي لا تشهدها إلّا النساء ، وقد دلّ القرآن على قبول شهادة اثنين من الكفار على وصية المسلم الذي يدركه الموت فيوصي ولا يجد أحدًا غير الكفار للإشهاد عليها ، وذلك بقوله تعالى: (يِا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ) {المائدة: ١٠٦}

فإذا كانت شهادة الكفار على وصية المسلم نافذة كما قال بذلك عدد من الصحابة والفقهاء ، وأحمد بن حنبل وابن تيمية والقرطبي فمما لا شك فيه أنّ شهادة المسلم رجلًا كان أم امرأة أولى بالأخذ من شهادة الكافر.

ذكرنا من قبل أنّ آية المداينة لا تعني عدم الأخذ بشهادة المرأة في تبيين الحق ؛ لأنّ البينة كما حققها ابن القيم أعمّ من الشهادة المقيدة بالشاهدين ، أو الشاهد واليمين ، وطلب توثيق العقود المالية المؤجلة بشهادة رجلين أو رجل وامرأتين جاءت في آية المداينة في مورد الارشاد للطريقة المثلى في التوثيق والإثبات ؛ لذلك ذهب الظاهرية وابن تيمية وابن القيم وبعض المحدثين من فقهاء العصر كالعلامة محمد جليزادة ،ومحمد عزة دروزة من قبول شهادة المرأة في جميع المسائل حتى في الحدود والدماء والعقود كالنكاح وما شابهه ، استنادًا إلى الآيات المتعلقة باستشهاد الشهداء بصفة عامة دون تمييز بين أن يكون الشاهد ذكرًا أم أنثى ، ومن ذلك قوله تعالى: (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) [المائدة: ١٠٦] وقوله تعالى: (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ

الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىَ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنَّ)[النساء: ١٥} وقوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء)[النور: ٤} فقد قصد بالشهداء في هذه الآيات الرجال والنساء لعدم وجود قرينة تدل على أنّ المراد شهادة الرجل فقط دون المرأة.

كما أنّه من المتفق عليه أنّ شهادة المرأة وحدها تقبل في أمور اختصاصها ، كشهادتها في الرضاع والبكارة والثيوبة والحيض والولادة وكذلك جماعات النساء والأعراس ونحو ذلك مما كان تختص بمعرفته النساء ، بل هي في هذه الأمور تعد شهادتها أحق من شهادة الرجل.

كما أنّ القرآن قد نصّ على المساواة في الشهادة بين المرأة والرجل إذا اتهم الرجل زوجته بالسوء بأن يشهد كل منهما أربع شهادات ، قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ {٦} وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ {٧} عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ {٨} وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ) {النور: ٦-٩}

والإسلام لم يكتف باحترام إنسانية المرأة ، وأنّها كالرجل في هذه الإنسانية ، بل احترم رأيها فمنحها حق الانتخاب ، فقد ذهب كثير من المفكرين المسلمين المعاصرين الى جواز إعطاء المرأة حق الانتخاب (ناخبة ومنتخبة) مستدلين بالأدلة الآتية:

١- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ

اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (الممتحنة: ١٢} تدلّ الآية على مشروعية مبايعة النساء للرسولﷺ كمبايعة الرجال له.

٢-قوله تعالى : (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) {آل عمران: ٦١}.

ففي هذه الآية الدلالة الواضحة على مشاركة النساء للرجال في الاجتماعات والأمور العامة ، وعدّها كالرجل في ذلك.

٣-قوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) {المجادلة: ١}.

تدلّ الآية على أنّ للمرأة الحق بمطالبة حقوقها والدفاع عنها ومجادلة أولى الأمر فيما يقع عليها من حرمان وإهمال.

٤-قوله تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) {التوبة: ٧١} الآية واضحة الدلالة على مشروعية إبداء رأيها أو توجيه النصح للحاكمين أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متى كانت عالمة بما تقول ، ولا تخرج الانتخابات المعروفة في العصر الحالي عن نطاق الآية المذكورة.

٥-اشتراك المرأة في بيعة العقبة الاولى وبيعة العقبة الثانية ، حيث اشتركت في الاولى : عفراء بنت عبد الله بن ثعلبة، وفي الثانية : عمارة ، وأم منيع.

٦-عمل الرسولﷺ بإشارة زوجته أم سلمة يوم الحديبية ، وقد كان أنكر حال المسلمين فدخل عليها قائلًاﷺ : هلك المسلمون أمرتهم مرارًا فلم يجبني أحد، فقالت : لا تلمهم فإنّهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ، ولكن اخرج ولا تكلم أحدًا منهم ، وانحر

بذلك ، واحلق رأسك ، فإنّهم يفعلون كما فعلت ، فكان الأمر كما قالت ، وسميت بذلك مستشارة الرسول ﷺ وفي هذا ما يدل أيضًا على تسويغ الإسلام للمرأة بالعمل في مجال السياسة والتي منها حق الانتخابات.

٧-مناقشة امرأة مسلمة للخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ عندما نهى فوق المنبر عن الإكثار من صداق النساء ، فقالت له : يا أمير المؤمنين نهيتَ عن الزيادة في مهور النساء فقال : نعم، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن : (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً) {النساء: ٢٠} فقال عمر: اللهم غفرانًا، أكُلُّ الناس أفقه من عمر؟ ثم رجع فركب المنبر ، وقال : كنتُ نهيتكم أن لا تزيدوا في المهور على أربعمئة درهم فمن شاء، فليفعل.

ولو أخذنا بلغة العصر لقلنا : إنّ الإسلام يجيز للمرأة أن تكون عضوًا في البرلمان ، وأن تشارك في وضع القواعد العامة ؛ لأنّ من حقها أن تؤم المساجد ، والمسجد كان برلمان الأمّة الإسلامية.

واستنادًا إلى الأدلة السابقة فقد ذهب فريق من المفكرين المسلمين المعاصرين من بينهم الاستاذ محمد أبو زهرة إلى أنّ المرأة هي الأحق من الرجل وأصلح منه لأن تتولى الوزارة التي تحتاج الى الشفقة والرحمة كوزارة الشؤون الاجتماعية ، أو أيّة وزارة تتخصص لشؤون المرأة وحماية مصالحها.

أمّا قوله ﷺ : لن يفلح قوم ولّو أمرهم امرأة" قصد به ، والله أعلم ، الإمامة العظمى أو الخلافة العظمى ؛ لأنّ الرسولﷺ قال هذا الحديث عندما سمع بتنصيب الفرس (بوران) ملكة عليهم بعد وفاة أبيها (شيرويه بن أبرويز) كسرى العجم ، لذا لا يشمل الحديث غير الرئاسة العامة.

فالإسلام لم يفرق بين المرأة والرجل في القضايا الإنسانية. فقد ساوى بينهما مثلًا في حق التملك.

وساوى بينهما في حق اختيار الزوج دون إكراه.

وساوى بينهما في حق العمل.

وساوى بينهما في حق طلب العلم والتعلم والتعليم وغير ذلك من الامور الانسانية ، بل من الحقوق التي منحها الإسلام للمراة مما لم تجده في دساتير من ينادون بحقوق المراة ، حق أمانها ويقصد بالأمان : الجِوار (بكسر الجيم) وهو إعطاء غيرك ذمة ، فيكون بها جارك فتجيره ، وهذا وارد في قوله تعال: (وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ) {التوبة: ٦}.

واستدل جمهور الفقهاء على جواز الأخذ بأمان المرأة بما يأتي.

١-أخرج البخاري بسنده عن أم هانئ ابنة ابي طالب تقول يوم الفتح في حديث طويل : "فقلت : يا رسول الله زعم ابن أمي عليّ (تعني أحد أخوتها وهو علي بن أبي طالب) أنّه قاتل رجلًا قد أجرته ، فلان بن هبيرة فقال الرسول ﷺ : قد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ ، والحديث واضح الدلالة على جواز أمان المرأة وإنّ من استجار بها وأستأمنها فأجارته وأمنته حرم قتله.

٢-أخرج البيهقي بسنده عن أمّ سلمة زوجة النبي ﷺ : أنّ زينب بنت رسول الله ﷺ أرسل إليها زوجها أبو العاص بن الربيع أن خذي لي أمانًا من أبيك ، فخرجت فأطلعت رأسها من باب حجرتها ، والنبي ﷺ في صلاة الصبح يصلي بالناس ، فقالت : أيها الناس أنا زينب بنت رسول الله ﷺ وإنّي قد أَجَرْتُ أبا العاص ، فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة ، قال: أيّها الناس إني لم أعلم بهذا حتى سمعتموه ، ألا وإنّه يجير على المسلمين أدناهم.

٣-وكذلك استئمان أمّ حكيم بنت الحارث ابن هشام زوجها عكرمة بن أبي جهل يوم الفتح من رسول الله ﷺ وموافقته على ذلك وإرجاعها زوجها من اليمن على هذا الأساس.

٤–وأخرج البخاري بسنده عن علي ﷺ (حول ما ورد في الصحيفة والتي منها) ما قاله ﷺ وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم فمن أخفر مسلمًا (أي: نقض عهد مسلم) فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل.

٥–روى الترمذي بسنده أنّ النبي ﷺ قال "إنّ المرأة لتأخذ للقوم" يعني: تجير على المسلمين.

فقد احترم الإسلام رأي المرأة حتى في أخطر القضايا السياسية والعسكرية ، وهو قبول استئمانها لأيِّ عدو كان من أعداء الإسلام ومن دون أن تستشير السلطة الإسلامية في ذلك ، بل وجب على السلطة الإسلامية العليا وعلى الأمة بأسرها وبأمر من الكتاب والسنة قبول هذا الأمان ، فلا يجوز أن يمس سلطان الدولة الإسلامية بسوء رجلًا أمنته امرأة مسلمة واستجار بها فأجرته ، ولو كان هذا الرجل عدوًّا للسلطان وللدولة.

وهذا من المزايا التي انفردت بها الشريعة الإسلامية ، فليس هناك قانون في أي دستور كان من دساتير أوربا والغرب ينصّ على إعطاء المرأة مثل هذا الحق.

اللهم بصرنا نساء ورجالًا بأحكام شرعك وزدنا جميعًا يقينًا على يقين. اللهم آمين.

الدرس العاشر

الرجال قوّامون على النساء

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا أصبحنا نشهدك ونشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك ، وأنّ محمدًا عبدك ورسولك.

يقول أعداء الإسلام من الغربيين ومن حذا حذوهم من عملائهم الذين هم من جلدة هذه الأمة ويتكلمون بلسانها "يقول هؤلاء المعترضون على قوامة الرجل على المرأة كما أمر الإسلام :

ا–إنّ القوامة ما هي إلّا ترقيق للرق ، أي: إنّ الطاعة الزوجية منبعثة من نظام السادة والعبيد ؛ لذا يعدون القوامة نظامًا عبوديًّا ينافي المساواة الإنسانية.

ب– قوامة الرجل على المرأة إنّما كانت حين كان الرجل يتحكم في الانتاج ويستبدّ بالكسب، أمّا الآن فقد أصبحت المرأة تعمل وتكسب كالرجل فلا معنى للقوامة عليها.

ج– كذلك الجهل والأمّيّة قد كانا من أسباب قوامة الرجل على المرأة في البيت ، أمّا الآن وقد أصبحت المرأة متعلمة ومثقفة بثقافة العصر فلم يبق لها من حاجة ، ولا هناك مسوغ لاستغلال المرأة باسم القوامة".

هناك مسائل لم يساو الإسلام فيها بين المرأة والرجل، وهذه عائدة إلى اختلاف طبيعة كل منهما ، فالرجل والمرأة غير متساوين من حيث طبيعة تكوينهما الجسدي والنفسي والوظيفي ، فالإسلام راعى طبيعة كل منهما فأعطى الرجل التكاليف التي تلائمه ، وأعطى المرأة التكاليف التي تلائمها . فالإسلام نظام واقعي يراعي الفطرة البشرية ، فالضرورة تقضي أن يكون هناك قيِّم توكل إليه الإدارة العامة لهذا الشركة القائمة بين الرجل والمرأة وما

ينتج عنها من نسل وما يستتبعه من تبعات ، وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى أنّه لا بدّ من رئيس ومسؤول ، وإلّا ضربت الفوضى أطنابها ، وعادت الخسارة على الجميع.

وهناك ثلاثة أوضاع يحتمل أن تقوم بشأن القوامة في الأسرة ، فإمّا أن يكون الرجل هو القيِّم ، أو تكون المرأة هي القيِّم ، أو يكونا معًا قيِّمين ويستبعد الاحتمال الثالث ؛ لأنّ التجربة أثبتت أنّ وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس ، والله سبحانه يقول عن السماء والأرض : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلّا اللَّـهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّـهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) {الأنبياء : ٢٢} ويقول سبحانه : (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ){المؤمنون:٩١} فإذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهمين فكيف يكون هذا الحال بين البشر الاعتياديين؟ وعلم النفس يقرر أنّ الاطفال الذين يتربون في ظل أبوين يتنازعان على السيادة تكون عواطفهم مختلة وتكثر في نفوسهم العقد والاظطرابات.

بقي الاحتمالان الأول ، والثاني: وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السؤال أيّهما أقدر على وظيفة القوامة ؟.

من يغلب عليه جانب العاطفة والانفعال أم من يغلب عليه الجانب العقلاني والتفكير؟.

فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدل ، فالرجل أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت، بل المرأة نفسها لا تحترم الرجل الذي تسيره فيخضع لرغباتها بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي وزن كان ، وليس مؤدى ذلك أن يستبد الرجل بالمرأة ، أو بإدارة البيت

فالرئاسة الناجحة هي التي تقوم على التفاهم والتعاون، وكل توجيهات القرآن والإسلام يرمي إلى شيوع هذه الروح داخل الأسرة والى تغليب الحب على النزاع والشقاق".

فالدرجة في قوله تعالى: (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ){البقرة: ٢٢٨} لا تعني تفضيل الرجل على المرأة في الانسانية، بل قصد بها أنّ الرجل هو الذي يتحمل مسؤولية النفقة على المرأة وأولادها ولكونه هو المكلف بإدارة شؤون البيت ورعاية المرأة والحفاظ عليها وعلى كرامتها ؛ لأنّ المرأة إذا تركت دون هذه الرعاية ضلت وضاعت ، ولكونه أيضًا هو المكلف دون المرأة بالجهاد في سبيل الله والدفاع عن دين الله وعن العرض والأمّة.

وقد أُنيطت هذه المسؤولية بالرجل ؛ لكونه هو الأقدر على تحملها من المرأة ، وهذا ما يعترف به النساء جميعًا ، فقوة الرجال الجسمية محط إعجاب المرأة في كل الأدوار الانسانية ، فالمرأة ضعيفة بدنيًّا ، كما أنّه يصيبها ما يزيدها ضعفًا ما لا يصيب الرجال من الحيض والحمل والولادة والنفاس.

" فالقوامة التي أسندها الله للرجل تعني وضعه موضع الخدمة والرعاية لا موضع التحكم والاستعلاء ، إنّها تعني الحماية والتوجيه والرقابة ولا تعني القهر والاستبداد والتعسف.

فالقوامة ما أُريد بها تشريف الرجل وتفضيله على المرأة بل هي تكاليف وتحمل مسؤوليات جمة رفعها الله عن المرأة رحمة بها لا حطًّا من مكانتها وتقليلًا من شأنها .

قال الله تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)}النساء : ٣٤].

وقد أُسِّست القوامة في نظر الإسلام على ركيزتين.

أولهما : فطري حيث يمتاز الرجل بقوة الإرادة وغلبة تعقله على عاطفته في حين طبع الله المرأة على رهافة الحس وقوة العاطفة وشدة الانفعال وسرعة التأثر بالمؤثرات وليس في هذه الميزات أيّ نقص كان لها بل سوَّى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها وهي الأمومة والحضانة على خير وجه.

والثاني : كسبي هو أنّ الرجل كلفه الإسلام بالإنفاق على تكاليف الزواج والإنفاق على المرأة والأسرة والأولاد ، فلما فرض عليه التكاليف المالية أعطاه الإسلام مقابل ذلك حق القوامة.

وهذا المبدأ هو ما استند اليه علماء القانون الدستوري وأصبح أساس الديمقراطية الحديثة ، فقد قالوا : من ينفق يشرف ومن يدافع يراقب ، فلمّا كلّف الرجل في الإسلام بالإنفاق على المرأة والدفاع عنها وحمايتها أُعطيَ حق الإشراف على الأسرة ومراقبتها.

ونظرًا لما تعانيه الأمّ من مشاق الحمل ومخاطر الوضع وما يتبع ذلك فقد زود الله المرأة بقدرات خاصة لا يجاريها الرجل فيها من تلك القدرات.

١–الصبر وطول النفس وشدة القدرة على التحمل وفرط حبّها للإنجاب والولد أكثر من الرجل حتى تؤدي رسالتها خير أداء.

٢–قدرة المرأة على الجلوس الطويل مع زميلاتها أو لوحدها.

٣–قدرتها على السهر الطويل أكثر من الرجل ، ولا سيما حينما يكون عندها طفل يعاني من ألم المرض أو الجوع أو الحر أو البرد وما شابهها ، فترى الأم تسهر على تلبية حوائج طفلها ، وهي في النهار تسير في حياتها الاعتيادية وتستطيع الاستمرار على ذلك لمدة طويلة.

٤–وكذلك تحملها للأوجاع أكثر من الرجل لحدّ عدم الاكتراث بها بسبب تعودها على الحالات التي تعتريها من الحيض والحمل والوضع التي لا تمرّ واحدة منهنّ بدون ألم.

وهذا دليل على ضرورة توظيف تلك القدرات في خدمة الطفل الذي يحتاج إلى جميع الصفات المذكورة ، وأنّ على المرأة التفرغ لذلك ، وعُدّ الاعتناء بالطفل وظيفة أساسية ، وما عداها استثناء وضرورة لا بدّ أن تُقَدَّر بقدرها.

فقد فضل الله المراة على الرجل في هذه الميزات كما فضل الرجل عليها بقوة الجسم وقوة الإرادة.

فإذا كان الرجل أقدر من المرأة على القوامة ، فإنّ المرأة أقدر من الرجل على القيام بالأمومة والحضانة ، فكما أنّ المرأة لا تستطيع أن تقوم بعمل الرجل ، فكذلك الرجل لا يستطيع أن يقوم بعمل المرأة ؛ لذلك كلف الله كُلًّا منهما بالواجبات التي تلائمه ، وهذا هو تفسير قوله تعالى: (فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ) {النساء: ٣٤}

يقول الذين يجادلون في قضية القوامة التي أعطاها الإسلام للرجل أنّ سبب تخلف المرأة في مجال هذه القوامة كان نتيجة هيمنة الرجل عليها عبر عصور التاريخ ، نقول إذن هذا دليل على أنّ الرجل أقدر من المرأة عقلًا وحكمة وتدبيرًا ، إذ لو كانا متساويين في ذلك لتقاسما السيادة في التاريخ ، ولما رأينا الرجل هو المسيطر والسيد على المرأة في كل عصر ومكان.

فقد كان هناك عبيد أرقاء مستعبدون لساداتهم ومع أنّهم كانوا غرباء على بلادهم وأقل عددًا من النساء الذين يمثلون نصف الجنس البشري ، فقد نبغ من هؤلاء العبيد أدباء ، وصار منهم سادة وملوك أكثر مما صار من النساء.

وقد بذَّ الرجال النساء في الأعمال النسوية نفسها التي اختصت بها النساء دون الرجال ومارستها منذ الصغر ومنذ أن وُجد البشر ، فالمرأة تشتغل بإعداد الطعام منذ أن طبخ الناس طعامًا قبل فجر التاريخ وتتعلمه منذ طفولتها في مساكن الأسرة والقبيلة ، لكن بعد توارثها هذه الصناعة آلاف

السنين لا تبلغ فيها مبلغ الرجل الذي يتفرغ لها بضع سنوات ولا تجاريه في إجادة الأصناف المعروفة ولا في ابتداعها والافتتان في تنويعها وتحسينها، ولا تقدر على إدارة مطعم كما يقدر على ذلك الرجال.

وصناعة التطريز وعمل الملابس النسوية كصناعة الطهي من صناعات النساء القديمة في البيوت ولكنّهنّ يعتمدن على الرجال في اختيار أزيائهن ويفضلنَ معاهد التفصيل التي يتولاها الرجال على المعاهد التي يتولاها بنات اجناسهنّ ، وكذلك يفضلنّ معاهد الرجال على معاهد النساء في أعمال التجميل والزينة عامة ومنها تصفيف الشعر وتسريحه واختيار الأشكال المستحبة لتضفيره وتجميعه.

والملاهي، ولا سيما ملاهي الرقص والغناء من ضروب التسلية التي يتسع لها وقت المرأة ، وقد شجعها الرجال عليها وجعلوها من فنون التربية النسوية ، ولكن الأستاذية في الرقص وفي رقص الجنسين لم يكن من حظ المرأة في العصر الحديث ولا في العصور القديمة ولم يزل عمل المرأة في الرقص أقرب الى التنفيذ منه إلى الابتكار.

ومن اللهو الذي كان خليقًا بالمرأة أن تحذقه وتتفوَّق فيه على الرجال لهو الفكاهة والنكتة المضحكة ؛ لأنها تحبّ أن تمرح وتلعب ؛ ولأنّها تشعر بالضغط وبالحاجة إلى التنفيس عن الشعور المكبوت ، ولكن المعهود في المرأة أنّها قليلة الفطنة للنكتة إلّا في الندرة التي تحسب من النكات العارضة وأنّها لا يمكن أن تقابل نكات الرجال كمًّا ونوعًا.

وكذلك نجد الرجل هو الذي لمع نجمه في المكتشفات العلمية والنظريات العقلية وفي مجالات العلم المختلفة عبر العصور ممن لا يحصى عددهم ، ولم نجد النساء إلّا أفرادًا تُعدّ بالاصابع ، وهذا هو الحال في العصر الحديث عصر التقدم العلمي ، فنلحظ بوضوح مثلًا هيمنة الرجل على مجالات الطب المختلفة المهمة والخطرة كطب العظام والكسور

والأمراض القلبية والعصبية والنفسية والجلدية وطب الجراحة ، فكثيرًا ما تسمع الجرّاح فلان ، وقلما تسمع الجرّاحة فلانة ، ويكاد يقتصر عمل النساء في الطب على الولادة وعقم النساء ، بل حتى هذا الاختصاص حين يمارسه الرجل يتفوق فيه على المرأة ، ويفضل كثير من العقيمات العلاج عنده ، ونجد القابلات سواء كنَّ ممرضات أم طبيبات حين يعجزن عن توليد امرأة يستنجدنَ ويستعنَّ بالرجل بالطبيب المختص فيقدم في مثل هذه الحالات فيقوم بعمل القابلة.

" ولا ننكر أنّ ثمة نساء قد نبغنَ من قبل ونبغنَ الآن في طائفة من الأعمال التي يضطلع بها الرجال ، وقد اشتهر منهنّ الملكات وقائدات العسكر واشتهر منهنّ الباحثات والخطيبات ، لكن هذا النبوغ كان وما يزال نادرًا أو شاذًّا أو يكون في حالة استثناء ، والأمور لا تقاس بالاستثناء المنقطع بل بالقاعدة الشائعة.

فالموازنة تجري دائمًا في الأعم الأغلب في الأحوال كلها ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لا بدّ منه في كل إعمام ، ووجود ملكة او ملكتين أو وزيرة أو وزيرتين من بين مئات الملوك وآلاف الورزاء هو دليل كاف بكون الرجل أقدر من المرأة على القوامة ؛ إذ لو كانت مساوية له في هذا المجال لوجدنا الرجال والنساء يتقاسمون هذه المناصب القيادية" بل كثيرًا ما لا تجد المرأة في هذه الساحة ، فهذه أمريكا منذ إنشائها دولة مستقلة قبل بضعة قرون على الرغم من أنّ القانون فيها يسمح لأن تحتل المرأة منصب رئاسة الدولة إلّا اننا لم نجد في سجل تاريخ رؤسائها امرأة واحدة ، فقد كان جميع الرؤساء منذ تأسيسها ولحد الآن من الرجال.

هذه جملة أمور تبين في الواقع والتاريخ أنّ القوامة كانت دائمًا للرجل في الأمور كلها حتى في الأمور التي اختصت بها المرأة كان الرجل أقدر من المرأة على تنفيذها.

فقد أودع الله في الرجل من الميزات ما جعله أن يكون قوّامًا على المرأة لا في الحياة الزوجية فحسب ، بل في كل ميدان ، فحين شرع الإسلام منح الرجل هذه القوامة إنّما منحه إيّاها ليكون هذا التشريع موافقًا للفطرة وواقع الحياة الزوجية.

" وقد حدد الرسول ﷺ هذه القوامة وبين حق كلٍّ من الزوجين على الآخر، بين ذلك في أحاديث منها قوله ﷺ : ألا وإنّ على نسائكم حقًّا ولنسائكم عليكم حقًّا، فحقكم عليهنّ أن لا يوطئن فراشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون" رواه الترمذي.

وفي قوله ﷺ في حجة الوداع : "ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف"، رواه مسلم والترمذي.

ومن حق الرجل على زوجته أن تطيعه لقولهﷺ : "لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها" رواه أبو داود والترمذي.

لكن هذه الطاعة وهذه القوامة ليست مطلقة بل هي مقيدة تخص الحياة الزوجية فقط ، وهذا هو الراجح من مذاهب العلماء ، فالقوامة مثلًا لا تشمل:

حق المرأة في تزويج نفسها ضمن معاني الآيات في قوله تعالى : (فَإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىَ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ)[البقرة : ٢٣٠} وقوله تعالى : (فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْاْ بَيْنَهُم)[البقرة: ٢٣٢} وقوله تعالى: (وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا) {الاحزاب: ٥٠}

كذلك حق المرأة في قبض مهرها والتصرف فيه قال تعالى: (وَآتُواْ النِّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا)[النساء: ٤}

ثم حقها في المال مطلقًا بالإرث أو الاكتساب وأهلية التصرف فيه بالبيع والهبة والاستدانة والوصية والوقف وما شاكل ذلك فمثل هذه الأمور تتصرف بها المرأة ، ولا يجوز أن يتدخل زوجها فيها ، فلا يكون قوّامًا عليها في هذه الأمور.

وكذلك ليس من قوامة الرجل أن يكره زوجته على الدخول في الإسلام إذا كانت كتابية، يهودية أو نصرانية.

وذهب كثير من الفقهاء ومنهم مالك والشافعي أنّه متى عجز الرجل عن الإنفاق على زوجته لم يكن قوّامًا عليها ؛ لأنّ الإسلام فرض على الرجل أن ينفق على زوجته حتى لو كانت غنية وكان هو معسرًا فقيرًا ، وإذا قصر الزوج في ذلك كان لها الحق في أن تطالب القضاء بفسخ عقدها ، وكذلك لا يحق للزوج أن يمنع زوجته من حضور صلاة الجماعة أو صلاة الجمعة أو الحج أو زيارة أبويها أو زيارة محارمها من الأقارب ، بل لا يجب شرعًا على المرأة العمل البيتي والخدمة إلّا خدمة نفسها ، بل لا يجب عليها حتى إرضاع طفلها ، ولها الحق في أخذ الإجرة على أنّه يلزم القول أنّ على الزوجين التفاهم والتعاون فيما بينهما لتسير سفينة الحياة الزوجية إلى نهاية الشوط بسلام ، وأن تبقى العلاقات الزوجية فوق الارتباط بالتزام الطرفين مما هو الواجب المفروض على كل منهما، بل عليهما الائتلاف والاندماج تحقيقًا لقوله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)[الروم: ٢١].

فقوامة الرجل على المرأة في الإسلام مقيدة بقيود تبعد الرجل عن الاستبداد ، وتبقى المرأة في نظام العائلة الإسلامية محتفظة بهويتها الشخصية، وتتمتع بالحقوق الدينية والمدنية.

فالقوامة في الإسلام ما هي إلّا حالة من حالات التنظيم والتنسيق والحفاظ على تماسك الأسرة ، وما التشرد والتحلل والتطاحن الذي تعاني منه كثير من الأسر إلّا كان سببه غياب القيادة والإشراف والمراقبة أو ضعفها".

إنّ طاعة المرأة لزوجها ليست خنوعًا واستسلامًا حتى يشان عليها وإنما كانت لتسير سفينة الأسرة ، فهي كطاعة الموظف لمديره والوزير لرئيسه.

وقد أمرنا رسول الله ﷺ أنّه إذا سافرنا وكنا ثلاثة أن نجعل أحدنا أميرًا علينا، والزواج سفرة تستمر طوال العمر.

وحين جعل الإسلام الرجل قوّامًا على المرأة فقد أمره أن يحسن معاملته إليها ، قال الله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوف){النساء: ١٩}.

وقال ﷺ : خيركم خيركم لأهله" وقال ﷺ : فاتقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله . رواه مسلم والترمذي.

وكذلك أوصى الإسلام المرأة أن تطيع زوجها ، وأن تقابل حسن معاملته لها بطاعتها له ، فقال ﷺ : خير النساء امرأة إن نظرتَ اليها سرّتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبتَ عنها حفظتك في مالها ونفسها. رواه الحاكم في المستدرك.

وقالﷺ أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة . رواه الترمذي

اللهم ارض عنا جميعًا يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين اللهم آمين.

الدرس الحادي عشر

الغاية من تشريع الحدود الإسلامية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن ونعوذ بك من العجز والكسل ونعوذ بك من الجبن والبخل ونعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال.

نعني بالحدود الاسلامية : العقوبات التي شرعها الإسلام على الجناة كقطع يد السارق وجلد الزاني أو رجمه.

ويشيع الغربيون أنّ هذه الحدود قاسية، وهذا كلام يصدر منهم ، إمّا عن سوء نية ، وإمّا عن جهلهم بالحقائق الآتية.

أولاها: يتصور الغربيون أنّه إذا حكم الإسلام بلادهم وطبقت فيهم حدوده لحكم على رجالهم ونسائهم جميعًا إمّا بقطع أيديهم أو جلدهم أو رجمهم ؛ لأن شرب الخمر والسرقة والقتل والزنا شائع عندهم ، ولا تمرّ ساعة دون أن ترتكب خلالها عشرات الجرائم ، والحقيقة أنّ الإسلام إذا حكم مثل هذه المجتمعات فإنّه لا يبدأ بتطبيق حدوده فيها إلّا بعد تحويلها إلى مجتمعات إسلامية ، يربّي أفرادها على العفة ثم يزيل دافع كل رذيلة.

فالإسلام ينفذ حدوده في المجتمع الذي ينشؤه هو ، الذي تندر فيه الجريمة ، ولا ينفذها في المجتمعات التي ينشؤها نظام آخر، التي تشيع وتطغى فيها الجرائم.

من هذه الحدود مثلًا أنّ حكم المحصن المتزوج ، إذا زنى ، الرجم ، وكذلك المحصنة المتزوجة إذا زنت ، أمّا حكم الأعزب غير المتزوج والعزباء غير المتزوجة فهو الجلد مئة جلدة ، قال الله تعالى : (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ) {النور: ٢}

والإسلام لا يقيم هذا الحد إلّا بعد أن يزيل دوافعه كافة ، فيمنع التبرج وخروج النساء كاسيات عاريات ، ويمنع الاختلاط بين الجنسين من غير مسوّغ ، كما تقوم الدولة الإسلامية بتشجيع الشباب على الزواج المبكر ومساعدتهم في ذلك اقتصاديًّا وماليًّا ، وتنشئة أفراد الأمة على حب الفضيلة واستقباح الرذيلة.

والثانية : أنّ الحدود في الإسلام تكون على قدر الجرائم ، فكلّما عظمت الجريمة واشتد خطرها اشتدت عقوبتها، فالإسلام لم يفرض حدًّا على جناية أشد مما تستحق ، ومع ذلك لم تكن غايته من فرض العقوبات تطبيقها على الناس وإنّما كانت الغاية منها زجرهم عن ارتكاب الجريمة.

فهي كما يقال في الأمثال: علِّقْ عصاك حيث يراها أهل الدار ولا داعي للضرب بعد ذلك فإنّه يكفي التهديد.

والدليل على ذلك أنّ الإسلام لا يقيم حدَّه على متهم لمعصية ارتكبها إلّا بعد التثبت من ارتكابه لها وفق شروط شرعت جميعها لمصلحة المتهم، وقد يندر أو يستحيل توافرها ولنأخذ مثلًا على ذلك حد الزنا لتوضيح هذه الحقيقة.

الاتهام بالزنا سيء الأثر في سقوط المرأة والرجل وضياع كرامتهما وإلحاق العار بهما وبأسرتيهما وذريتهما، فقذف المحصنين المتزوجين والمحصنات المتزوجات ، أو اتهامهم بالزنا كذبًا من الجرائم التي تحلّ روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجته وتهدم أركان البيت ؛ لهذا شدد الإسلام في إثبات هذه الجريمة حتى يسدّ السبيل على الذين يتهمون الأبرياء بعار الدهر وفضيحة الأبد ، فاشترط الشهادة على الزنا الشروط الاتية :

١–أن يكون الشهود أربعة بخلاف الشهادة على سائر الحقوق ، قال الله تعالى: (وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ){النساء: ١٥} فإذا كانوا أقلّ من أربعة لم تقبل شهادتهم ، بل فضلًا

عن ذلك يقام عليهم حد القذف ، بأن يجلد كل منهم ثمانين جلدة ، وهذا ما قال به الاحناف ومالك والراجح من مذهب الشافعي وأحمد بدلالة أنّ عمر ﷺ عاقب الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بالجلد ثمانين جلدة وهم : أبو بكرة ، ونافع ، وشبل بن معبد ، والله يقول: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) {النور: ٤}

وعن سهل بن سعد ﷺ أنّ رجلًا أتى النبي ﷺ فاعترف أنّه زنى بامرأة سماها فبعث النبي ﷺ إليها فسألها فأنكرت فجلده وتركها.

وفي رواية كان بكرًا غير متزوج فجلده مئة جلدة ؛ لأنّه أعزب وقد أعترف بأنّه زنى بها ، واعترف الزاني بنفسه يغني عن الإتيان بأربعة شهود ، أما اتهامه المرأة بانّها قد زنت فلا تقبل شهادته وحدها ، وإن كان هو الزاني بها بل يجب عليه أن يأتي بالبينة ، والبينة اربعة شهداء فعجز الرجل وكذبته المرأة ، فجلده حدّ الفرية ثمانين ، هذا ما رواه أبو داود والنسائي ، أي: أنّ الرسول ﷺ جلد الرجل مئة جلدة جزاء اعترافه بالزنا ، ثم جلده مرة أخرى ثمانين جلدة جزاء اتهامه المرأة بالزنا ، ولم يأت بأربعة شهداء.

٢-البلوغ: أن يكون الشاهد بالغًا .

٣-العقل : أن يكون الشاهد عاقلًا ، فلا تقبل شهادة المجنون أو المعتوه.

٤-العدالة : أن يكون الشاهد عادلًا قال تعالى : (وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ) {الطلاق: ٢}

٥-الإسلام : أن يكون الشاهد مسلمًا.

٦-المعاينة : أي : أن يكون بمعاينة فرجه في فرجها كالميل في المكحلة والرشا (الحبل) في البئر، وإنّما أبيح النظر في هذه الحالة للحاجة إلى الشهادة كما أبيحت للطبيب والقابلة ونحوهما.

٧-التصريح : هو أن يصرح الزاني أو الشاهد بالبلاغ بأن يقول مثلاً : فَعَلَتْ كذا وكذا ، أو فعل كذا وكذا بكلام صريح ، وأبيح أيضًا التلفظ بما يستقبح ذكره للحاجة للشهادة.

٨-اتحاد المجلس: يرى جمهور الفقهاء أنّ من شروط هذه الشهادة اتحاد المجلس بأن لا يختلف في الزمان ولا في المكان ، فإن جاؤوا متفرقين فلا تقبل شهادتهم، أي: أن يدلي الشهداء الأربعة جميعهم شهاداتهم مجتمعين في وقت واحد وفي مكان واحد.

٩-أن يكون الشاهد رجلًا لا أمرأة .

١٠- عدم التقادم: أي: أن يشهد الشاهد وقت رؤيته جريمة الزنا، أمّا إذا تقادم عليها العهد ، وجاء فشهد على هذه الجريمة بعد مدة من وقوعها فلا تقبل شهادته عند الأحناف ، ويحتجون لهذا بأنّ الشاهد إذا شهد الحادث فهو مخير بين أداء الشهادة وبين التستر على الجاني الزاني ، فإذا سكت عن الحادث حتى قدم عليه العهد دل على اختياز جهة التستر ، فإذا شهد بعد ذلك فهو دليل على أنّ الضغينة (والحقد) هي التي حملته على الشهادة ، ومثل هذا لا تقبل شهادته ، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : أيّ قوم شهدوا على حدٍّ (كحدِّ الزنا) لم يشهدوا عند حضرته ، فإنما شهدوا عن ضغن (وعن حقد) ولا شهادة لهم ولم ينقل أن أحدًا أنكر على عمر هذا القول ، فيكون قوله هذا إجماعًا.

والإسلام وضع هذه الشروط حفظًا على أعراض الأسر من أن يفضح أمرها وتساء سمعتها بين الناس سواء كانت ببلاغات كاذبة أم صادقة.

والثالثة : أنّ الإسلام لا يسعى إلى كفّ الناس عن الشر بالعقاب والإكراه وإنما يسعى أولًا ودائمًا إلى إصلاحهم بالوعظ والإرشاد والقدوة الحسنة لزرع الوازع الديني في نفوسهم وجعلهم يبتعدون عن الشر طوعًا ومن تلقاء أنفسهم فقد كتب الوالي على خراسان إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في أن يرخص ويسمح له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها

قائلًا في رسالته للخليفة ، لا يصلحهم إلّا السيف والسوط ، فكان ردّ عمر ﷺ عليه : كذبتَ بل يصلحهم العدل والحق[1].

والرابعة : أنّ الإسلام لا يفرق بين الناس ولا بين الحاكم والمحكوم في تطبيق الحدود ، أخرج البخاري عن عروة أنّ امرأة سَرَقَتْ في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح ففزع قومها إلى أسامة بن زيد رضي الله عنهما يستشفعونه (ليكلم رسول الله ﷺ في عدم قطع يدها أو التخفيف من حكمها) فلمّا كلمه أسامة فيها تلوّن وجه الرسول ﷺ فلمّا كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيبًا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : "أما بعد فإنّما هلك الناس أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف (الغني أو ذو الجاه) تركوه (لم يقطعوا يده) وإذا سرق فيهم الضعيف (الفقير أو الذي لا جاه عنده) أقاموا عليه الحدّ ، والذي نفس محمد بيده لو أنّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها".

وأخرج ابن سعد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كان عمر ﷺ إذا أراد أن ينهي الناس عن الشيء (حرمه الله) تقدم إلى أهله (أهل بيته) فقال لهم : إني نهيتُ الناس عن كذا وكذت فلا أعلمن أحدًا (منكم) وقع في شيء مما نهيت عنه إلّا ضاعفت عليه العقوبة (فعاقبته مرتين).

وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي[2] أنّ عمر ﷺ كان إذا سنّ قانونًا أو حظر (ومنع) أمرًا جمع أهله أولًا وقال لهم : إني قد نهيتُ الناس عن كذا وكذا وأنّ الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ، فإن وقعتم (في المنكر) وقعوا (هم أيضًا في المنكر) وإن هبتم (وخفتم الوقوع في المنكرات) هابوا (وخافوا إذ تقتدي بكم والشعوب تكون على دين ملوكها) وإني والله (يا أهل بيتي) إن رأيت واحدًا منكم وقع فيما نهيت الناس عنه (من المعاصي أو المظالم) إلّا ضاعفتُ له العذاب (والعقاب) لمكانه مني ، فمن شاء منكم أن يتقدم (بالطاعات) ومن شاء منكم أن يتأخر (بالمعصيات) أرأيتم؟. وقد قال وطبق ما قال ﷺ

---

(1) خلفاء الرسول، للسيوطي، ص٧٢٨.
(2) تاريخ الخلفاء، ص١٩٧- ١٩٨.

جاء في حياة الصحابة ٩٦/٢ : أخرج عبد الرزاق والبيهقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: شرب أخي عبد الرحمن (الخمر) وشرب معه أبو سروعة عقبة بن الحارث ، وهما بمصر في خلافة عمر ﷺ فسكرا فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص ، وهو أمير مصر فقالا : طهِّرنا ، فإنّا قد سكرنا من شراب شربناه ، قال عبد الله : فذكر لي أخي أنه سكر، فقلت: ادخل الدار أطهرك ولم أشعر أنّهما قد أتيا عمرو بن العاص فأخبرني أخي أنّه قد أخبر أمير مصر بذلك ، فقلت لا تحلق (شعر رأسك) على رؤوس الناس : ادخل الدار أحلقك ، وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحدّ (مع الجلد) فدخلا الدار، قال عبد الله : فحلقتُ أخي بيدي ثم جلَدَهما عمرو بن العاص أمير مصر فسمع بذلك عمر بن الخطاب ﷺ فكتب إلى عمرو بن العاص ﷺ أن ابعثْ إليّ (ابني) عبد الرحمن على قتب (على جمال) ففعل ذلك فلما قدم على عمر ﷺ جلده (مرة أخرى) وعاقبه (مرتين) لمكانه منه ثم أرسله فلبث شهرًا صحيحًا ثم أصابه قدره فمات ﷺ فيحسب عامة الناس أنّه مات من جلد عمر ولم يمت من جلد عمر

والخامسة : يرى أكثر العلماء أنّ الحدود إذا أقيمت كانت مكفرة لما اقترف من آثام ، فالذي يقام عليه الحدّ في الدنيا لجريمة اقترفها فإنّه لا يعذب عليها في الآخرة ، لما رواه البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مجلس فقال: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله بالحق فمن وفي منكم فأجره على الله ومن أصاب شيئًا من ذلك فعوقب به (في الدنيا) فهو كفارة له (لا يعاقب عليه في الآخرة) ومن أصاب شيئًا من ذلك (من المعاصي) فستره الله عليه (فلم يعاقب) فأمره إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذبه.

وعن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ من أصاب حدّا (كالزنا أو السكر) فعجل عقوبته في الدنيا (بأن أقام السلطان عليه الحدّ) فالله أعدل من أن يثني عليه العقوبة في الآخرة ، ومن أصاب حدًّا (مثل الحدين المذكورين) فستره الله تعالى (فلم يره أحد) وعفا عنه الله ، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه . أخرجه الترمذي.

الدرس الثاني عشر

السرقة وحدُّها في الإسلام

والمقصود بحدِّ السرقة : عقوبتها

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنّا نسالك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إنّا نسالك العفو والعافية في ديننا ودنيانا وأهلينا وأموالنا. اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا. اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن ايماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بك أن نُغتال من تحتنا.

يزعم أعداؤنا أنّ الاسلام يفرض عقوبات قاسية من ذلك قطع يد السارق .

والحقيقة أنّ الإسلام حين شرع هذه العقوبة لم تكن غايته منها تطبيقها على الناس ، وإنّما كان يبغي من ذلك زجر الناس من الاعتداء على أموال غيرهم.

وعلماء الاجتماع متفقون على أن تخفيف العقوبة يشجع الذين في قلوبهم مرض على ارتكاب الجريمة ، وشدّتها تمنعهم منها أو في الأقل تجعلهم يفكرون مليًّا بعواقب أفعالهم.

وتعريف السرقة في الشرع : هو المجيء مستترًا لأخذ مال الآخرين من حرز (أي: من مكان محفوظ حصين).

يتبين من التعريف السابق أنّه لا بدّ من الأخذ بصفات معيَّنة في السارق والمسروق وفي الموضع المسروق منه حتى تتحقق السرقة التي يجب فيها الحدّ الذي هو قطع اليد.

فيجب أن يكون الموضوع المسروق منه المال موضعا حصينًا بعيدًا عن أنظار الناس ومتناول أيديهم فلا تقطع مثلًا يد من سرق مالًا من دار

بابها مفتوح ، ويجب أن يكون هذا المال من الأموال التي أحلّ الله امتلاكها، فلا تقطع يد من سرق خمرًا أو آلات لهو مثل العود والكمنج والمزمار وأن يبلغ الشيء المسروق نصابًا ، ونصابه أن يكون بقدر ما يعيل أسرة لمدة يوم واحد.

أمّا الصفات الواجب توافرها في السارق حتى يسمى سارقًا ويستوجب حد السرقة بقطع يده هي:

أن يكون السارق بالغًا ، فلا حد على صغير لم يبلغ الحلم ، ولكن يؤدب الصغير إذا سرق.

أن لا يكون مجنونًا ؛ لأنَّه غير مكلف.

أن لا يكون مكرها أكرهه على السرقة وليّ أمره.

أن لا يكون للسارق في الشيء المسروق شبهة ؛ فإنّه لا تقطع يده ، لذلك لا تقطع يد الذي يسرق من ابنه أو أمّه أو من أبيه أو من جدّه أو من ابن ابنه ، وأمّا ذوو الأرحام فقد قال ابو حنيفة والثوري لا قطع على أحد من ذوي المحرم ، مثل العمّة إذا سرقت ، وكذلك الخالة ، والأخت ، والعمّ ، والخال ، والأخ ؛ لأنّ قطع اليد يفضي إلى قطيعة الرحم التي أمر الله بها أن توصل ؛ ولأنّ لهم الحق في دخول المنزل ، ولا سيما إذا كانت أموال المنزل لم يغيبها صاحبها عن أنظار ذويه ولم يبعدها عن متناول أيديهم ؛ ولذلك لا تقطع يد الضيف إذا سرق مثل هذه الأموال ؛ لأنّ الضيف دخل الدار بإذن صاحبها من جهة ؛ ولأنه سرق مالًا لم يكن في حرز من جهة ثانية.

وكذلك لا تقطع يد من سرق من زوجته ، ولا يد من سرقت من زوجها ولا يد الخادم إذا سرق من سيده ، ولا تقطع يد من سرق من المدين الماطل في السداد أو الجاحد والمنكر للدين.

وكذلك لا تقطع يد المنتهب ، والمنتهب هو الذي يأخذ المال جهرًا بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم منه أو

يشهد له عند الحاكم ، وكذلك لا تقطع يد المختلس ، والمختلس هو الذي يأخذ المال على حين غفلة من مالكه ، ولا تخلو هذه الحالة من تقصير من صاحب المال مكَّن المختلس من اختلاسه ، فأخذ المال من غير حفظ من قبل مالكه.

قال القاضي عياض رحمه الله : صان الله المال بإيجاب القطع على السارق ولم يجعل ذلك في غير السرقة ، كالاختلاس والانتهاب والغصب ؛ لأنّه ذلك قليل بالقياس إلى السرقة ، ولأنّه يمكن استرجاع المال الماخوذ بهذه الطرق باستدعاء المنتهبين والمختلسين والمغتصبين إلى ولاة الأمور من القضاة والحكام وتسهل إقامة البيّنة عليهم بخلاف السرقة فإنّها تندر إقامة البينة عليها ؛ لذلك عظم أمرها واشتدت عقوبتها ليكون أبلغ في الزجر عنها ، فهؤلاء من غير السراق يجب عليهم التعزير ، عن جابر أنّ النبي ﷺ قال: ليس على خائن ولا منتهب ولا مختلس قطع . رواه أصحاب السنن. وقال ابن الجوزية : فمن تمام حكمة الشارع قطع يد السارق دون يد المختلس والمنتهب والغاصب ؛ لأنّ السارق لا يمكن الاحتزاز منه فإنّه يثقب الدور ويهتك الحرز ويكسر القفل ، فلو لم يشرع قطع يد السارق لسرق الناس بعضهم بعضًا وعظم الضرر واشتدت المحنة ، فجميع من مر ذكرهم لا يعاقبون بقطع أيديهم بل بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة باسترجاع المال منهم ورده إلى أصحابه.

كما أنّه لا تقطع بنص الشرع الإسلامي يد من التجأ إلى السرقة بدافع الحاجة والجوع ، فلا تقطع إلّا يد السارق الذي غالبًا ما يضطر من أجل أن يسرق أن يستتر بجنح الليل والظلام ويتسوَّر البيوت الحصينة فيكسر الأبواب والشبابيك أو يثقب الجدران ، ولا تخلو هذه الحالة من ترويع أهل الدار من نساء وأطفال ورُضَّع ، وقد يكون في الدار مريض فيشتد مرضه أو حامل فتجهض ، إنّ إنسانًا يقدم إلى فعل هذا كلّه مع أنّه غني لا يحتاج إلى أموال

السرقة ليستحق أن تقطع عنقه لا أن تقطع يده ، فحقُّ الأفراد في أموالهم حق مقدس لا يستحق لأحد أن يعتدي عليه ؛ لذلك حرّم الإسلام السرقة وشدد في عقوبتها بقطع يد السارق ، وفي ذلك حكمة بينة ؛ إذ أنّ اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم والتضحية بالجزء من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول ، كما أنّ في قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجرؤ أن يمدّ يده إليها ، وبهذا تحفظ الأموال وتصان حقوق الناس.

والدول الأوربية والغربية يزعمون أنّ حد السرقة في الإسلام لا يمكن تطبيقه ؛ لأنّه لو طُبِّق لكانت تقطع في كلّ يوم آلاف الأيدي ، وهذا اعتراف منهم من حيث لا يشعرون بأنّ مجتمعاتهم قد كثرت بين أفرادها جرائم السرقة وهذا ما يصرحون به ، فقد كنت أسمع من إذاعاتهم نفسها قبل سنوات أنّ نسبة الجرائم في مجتمعاتهم تبلغ كذا جريمة في كل دقيقة ، وقد أصبحتُ أسمع منها هذه الأيام أنّ نسبة الجرائم تبلغ كذا في كل ثانية ، وأغلب هذه الجرائم تكون في السرقات ، وقد اضطر الاتحاد السوفيتي أخيرًا إلى تشديد عقوبة السرقة بعد أن تبيَّن له أنّ عقوبة السجن لم تخفف من ارتكاب هذه الجريمة فقرر إعدام السارق رميًا بالرصاص ، وهي أقصى عقوبة ممكنة. وقد جاء في جريدة الأهرام/ القاهرة بتاريخ ١٩٦٣/٨/١١

إنّ الاتحاد السوفيتي أعدم ثلاثة أشخاص رميًا بالرصاص لاتهامهم بالسرقة ، ولا يكاد يمر يوم دون أن ينشر مثل هذا كثير[١] وهذه الدول التي تسمي نفسها دولًا علمانية لا تؤمن بالإسلام ولا بفكرة الآخرة ولا تؤمن بأنّ هناك جنة وناراً وبعثًا وحسابًا بعد الممات ، فهم بهذه النظرة والمبادئ قد أوجدوا ما يدفع أفراد شعوبهم إلى ارتكاب الجريمة والسرقة ؛ لأنّه لا شيء يصلح النفوس ويكفها من أن تعتدي على حق غيرها إلّا الوازع الديني،

(١) فقه السنة لسيد سابق ٣٥٨/٢.

وحكام هذه الدول حين يطلبون من شعوبهم أن يكونوا صالحين بهذه المبادئ غير الإسلامية يكون حالهم كحال من قال فيه الشاعر:

ألقاه في البحر مكتوفًا وقال له إيّاك إيّاك أنْ تبتلّ بالماء

والإسلام لا يقيم حدّ السرقة إلّا بعد إقامة البيّنة القاطعة والتثبت من وقوعها ((جاء في سنن أبي داود [١٩١/٤] حدثنا عبد الوهاب بن بجدة أنّ قومًا من الكلاعيين سُرق لهم متاع فاتهموا ناسًا من الحاكة ، فأتوا النعمان بن بشير صاحب النبي ﷺ فحبسهم (فحبس المتهمين) أيّامًا ثم خلّى سبيلهم (وأطلق سراحهم) فأُتوا (فأتى الكلاعيون) النعمان فقالوا : خلَّيتَ سبيلهم بغير ضرب ولا امتحان؟ فقال النعمان : إن شئتم أن أضربهم فإن خرج متاعكم فذاك ، وإلّا اخذت من ظهوركم مثل ما أخذت من ظهورهم (أي: إن شئتم عاقبتهم ، لكن إذا تبيّن أنّ متاعكم ظهر عند غيرهم ، ولم يكونوا هم السارقين لعاقبتكم مثل ما عاقبتهم) فقالوا: هذا حكمك؟ فقال: هذا حكم الله وحكم رسوله ﷺ. رواه أبو داود.

وكذلك لا يقيم الإسلام حدّ السرقة إلّا بعد إقامة المجتمع الإسلامي وبعد أن يزيل كل دافع إليها، فالدولة الإسلامية ملزمة في شرع الله أن تمكن كل فرد من أفراد الأمة بأن تجد له العمل المناسب الذي يكسب به قوته وقوت عياله ، وبيت المال في الدولة الإسلامية مطالب بتكملة النفقات الضرورية إذا كان العمل وحده لا يكفي ، فإذا كان الفرد عاجزًا لمرض أو ضعف أو شيخوخة أو كان طفلًا فعند ذلك يتكفل بيت المال بجميع النفقات اللازمة للحياة الكريمة ، فإذا حدث برغم هذا الاحتياط أن وجد جائع يسرق لياكل فقد سقط عنه الحدّ ، وهو حد السرقة الذي هو قطع اليد.

لذلك أوقف الخليفة عمر ﷺ عقوبة قطع يد السارق في عام الرمادة ، وهو عام القحط والجوع الذي أصاب المسلمين ؛ لأنّه توافر فيه دافع الحاجة إلى السرقة

روي أنّ عبيدًا لابن حاطب بن أبي بلتعة سرقوا ناقة من بني مزينة ، فجيء بهم إلى عمر ﷺ فأقروا واعترفوا بالسرقة ، فأمر كثيَّر بن الصلت بقطع أيديهم ، فلما همَّ بتنفيذ هذه العقوبة فيهم ، صاحوا : يا أمير المؤمنين إنَّ سيدنا ابن حاطب لا يعطينا ما نسد به رمقنا ، فلولا الحاجة والجوع ما سرقنا ، فلما سمع كلامهم عفا عنهم ، ثمَّ وجَّه اللوم لسيدهم ابن حاطب بن أبي بلتعة ، فقال له : وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنّك (بدلًا من ذلك) غرامة توجعك ، ثم قال : يا مزني بكم أريدت منك ناقتك ؟ قال: بأربعمئة. فقال عمر بن الخطاب لابن حاطب : اذهب فاعطه ثمانمئة ، فهذه حادثة واضحة الدلالة على أنّ المجرم لا يؤخذ بذنبه حتى ينظر الحاكم أولًا في دوافع الجريمة فيزنها بميزان الحق والعدل ويبحث عن المسؤول الحقيقي فيها فيوقع العقوبة عليه

ويروى أنّ عمر ﷺ هم بقطع يد سيدهم بعد أن علم أنّه كان هو السبب الرئيس في دفع عبيده إلى السرقة.

وقد بين الإسلام أنّ السارق إذا فلت من عقاب الدنيا فلن يفلت من عقاب الآخرة الذي هو أشدّ وأنكى ، عن أبي هريرة ﷺ قال: أتدرون من المفلس؟ . قالوا: المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع ، فقال : إنَّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار . رواه مسلم والترمذي.

وعن أبي عثمان عن سلمان الفارسي وسعد بن مالك وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود حتى عد ستة أو سبعة من أصحاب النبي ﷺ قالوا: إنّ الرجل لترفع يوم القيامة صحيفته حتى يرى أنّه ناج فما تزال مظالم

بني آدم تتبعه حتى ما تبقى له حسنة ويحمل عليه من سيئاتهم. رواه البيهقي في البعث باسناد جيد.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : دعوة المظلوم مستجابة وان كان فاجرًا ففجوره على نفسه . رواه أحمد باسناد حسن.

وعن أبي عبد الله الأسدي قال: سمعت أنس بن مالك ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ: دعوة المظلوم وإن كان كافرًا ليس دونها حجاب. رواه احمد.

فالناس حتى الكافرون منهم والفاجرون وأعداء الإسلام في العقيدة حقوقهم مصونة في ظل الإسلام.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : من كان عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم . رواه البخاري والترمذي.

وبينت أحاديث نبوية شريفة أخرى أنّ العبد إذا آمن وتاب بعد أن كان قد اعتدى على حدود الله وعلى أموال الناس فالله سبحانه يتوب عليه ويجوز عن حقوقه ، ولكن لا يجوز عن حقوق الناس وإن كان هؤلاء الناس كفرة ومن أهل النار ، فالله سبحانه يوم الحساب سيقتصّ لهم من الظالم أو يدفع إليهم من حسناته بقدر ما ظلمهم قبل أن يدخل هو الجنة وقبل أن يدخلوا هم النار.

فالمرء الذي ينشا منذ نعومة أظفاره على هذه المبادئ أنّى له أن يعتدي ، وأنّى له أين يسرق إلّا من شذّ؟!

في معركة القادسية حين فتح المسلمون بلاد فارس بعث القادة العسكريون بغنائم هذه البلاد الى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فلما نثرت بين يديه وراى ما فيها من غنائم نفيسة التي كان من بينها سوارا كسرى أُعجب بأمانة قادته وجيشه فقال: إنّ قوما أدوا هذا لأمناء ، وكان علي ﷺ حاضرًا فقال يخاطب عمر ﷺ: عففتَ فعفتِ الرعية ولو رتعتَ لرتعوا.

وإنّ من مفاخر هذا الدين في هذا الباب أن عدد الأيدي التي قطعت طوال الفترة التي طبقت فيها التعاليم الإسلامية كانت ست أيدٍ.

ليعلم أحفاد قيصر والصليبية والصهيونية الذين يزعمون أنّ الحكم بالإسلام يعني قطع آلاف الأيدي كل يوم ، ليعلم هؤلاء إنّما يحصل هذا بين أفراد شعوبهم الذين نشأوا في ظل مبادئهم العلمانية حسبما يزعمون لا بين أفراد شعب نشأ في ظل مبادئ ديننا وعقيدتنا.

الدرس الثالث عشر

حَدُّ الزنا بين رحمة الإسلام وعِظَمِ التربية

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

في إقامة الحدود الإسلامية (العقوبات على الجناة) نفع للناس ؛ لأنّها تمنع الجرائم وتروّع البغاة وتكفهم عن انتهاك الحرمات وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه وعرضه وماله وسمعته وحريته وكرامته ، وقد روى النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ أنّ النبي ﷺ قال: "من حالت شفاعته (وساطته) دون حدٍّ من حدود الله فهو يضادّ الله في أمره".

وفي العقوبة التي فرضها الإسلام على الزنا رحمة للناس ؛ لأنّ فيها إبعادهم عمّا يضرهم صحيًّا واجتماعيًّا ورحمة للذرية ؛ لأنّ فيها إنقاذ الأطفال من أن يولدوا وهم مشردون ضائعون لا أب لهم ، وإنقاذهم من الإصابة بأمراض الزنا التي يكتسبونها بالعدوى من أمّهاتهم الزانيات ورحمة للزوجات العفيفات ؛ لأنّ فيها حمايتهنّ من أن تنتقل إليهنّ بالعدوى أيضًا أمراض الزنا من أزواجهم الزناة ، ورحمة للأمّة بأسرها ؛ لأنّ فبها حفظها من أن تُقوَّض أركانها.

ومع ذلك كله فإنّ الإسلام شرع كل ما من شأنه إبعاد حد الزنا من تطبيقه على الناس ما أمكن إلى ذلك سبيلًا ، فعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ "ادفعوا الحدود ما وجدتم بها مدفعا". رواه ابن ماجه.

وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ : ادرؤوا الحدَّ عن المسلمين ما استطعتم (أي حاولوا أن لا تعاقبوا الناس على ما يرتكبون من المعاصي قدر الاستطاعة) فإن كان له مخرج (وملجأ) فخلّوا سبيله (حاولوا إطلاق سراحه بأيّ حجة شرعية كانت) فإنّ الإمام (الحاكم أو القاضي) لأن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة. رواه الترمذي.

والمعنى أنّ الحاكم إذا عفا عن متهم وهو مستحق العقوبة فعفا عنه خطأ ، خير له من أن يعاقب متهما وهو بريء فعاقبه خطأ.

وعن عائشة ﵂ فيما رواه أبو داود أنّ رسول الله كان يقول : "اقبلوا من ذوي الهيئات عثراتهم إلّا الحدود"

وذووا الهيئات هم أصحاب المروءات الذين لا يعرفون بالشر فيزلّ أحدهم الزلة ، فقد تصدر منه هفوة ، فرسول الله ﷺ يوصينا بأن نقبل منهم العثرات فلا نحاسبهم عليها.

وذهبت الشافعية والحنفية وأحمد إلى أنّ الرجوع عن الإقرار يسقط الحد ، أي: أنّ المجرم إذا جيء به لمعاقبته لاعترافه على نفسه لا لشهود أربعة عليه إلّا أنّه قبيل تنفيذ الحكم عليه بدَّل من اعترافه وزعم أنّه بريء لم يرتكب الجريمة التي أقرَّ بها من قبل ، فإنّه في هذه الحال يؤخذ بشهادته الأخيرة ، فيترك ولا يقام عليه الحدّ ، بل الإسلام أجاز في مثل هذه الحالة ترك اللحاق بمن هرب في أثناء إقامة الحدِّ عليه ؛ لأنّ هروبه يكون بمثابة من غيَّر اعترافه استنادًا لما رواه ابو هريرة : إنّ ماعزًا لمّا وجد من الحجارة يشتدّ فرّ حتى مرّ برجل معه عظم الحنك فضربه به وضربه الناس حتى مات ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال : هلا تركتموه ، قال الترمذي إنّه حديث حسن.

وحتى عند تطبيق العقوبة على الجاني فإنّ الإسلام يسعى ما أمكن إلى تخفيفها ، فعن أبي أميمة بن سهل بن حنيف عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال : اشتكى رجل من الأنصار حتى أضنى (أي: أصابه مرض حتى صار نحيلًا هزيلًا) فعاد جلدة على عظم فدخلت عليه جارية فهشَّ لها ، أي : ارتاح لها وخفّ ونشط فوقع عليها فزنى بها ، فدخل عليه رجال من قومه يعودونه فأخبرهم بذلك وقال استفتوا لي رسول الله فإنّي وقعتُ على جارية دخلت عليَّ ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا ما رأينا باحد من الضرّ مثل

الذي هو به ولو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ما هو إلّا جلد على عظم ، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مئة شمراخ (أي مئة عود من أغصان نخل عليه تمر) فيضربونه بها ضربة واحدة (ذلك لتكون بمثابة ضربة بمئة جلدة رحمة به). أخرجه أبو داود والنسائي.

ومن رحمة الإسلام أن احتاط لإثبات جريمة الزنا ، فاشترط شروطًا فيها يكاد من المستحيل توافرها ، تقدم ذكرها ؛ لذلك لم أجد حسب علمي أن أقيم حد الزنا على مسلم في عهد الرسول ﷺ أو في عهد الخلفاء الراشدين لشهادة أربعة عليه رأوه جميعًا رأي العين، وكان جميع الذين أقيم عليهم حدّ الزنا أقيم عليهم هذا الحد لاعترافهم على أنفسهم بارتكاب الزنا.

فجريمة الزنا "لا تثبت إلّا بشهادة أربعة شهود عدول يرون الجريمة فعلًا رأي العين وبدرجة التثبت واليقين، ويشترط أن يكون الشهود أربعة لا أقل حتى إذا نقصوا عن أربعة أو سحب واحد منهم شهادته لعُدّ الباقون متهمين بالبلاغ الكاذب ، فوقعت العقوبة عليهم بدلًا من توقيعها على المجرم الأصيل.

ولم يكن القصد من المبالغة في هذا الاحتياط تشجيع الفاجرين على الزنا وإنّما الدافع إلى ذلك هو الحرص على أعراض الناس من تشويه سمعتها بالبلاغات الكاذبة الصادرة من نفوس مريضة ، وكذلك لجعل التبليغ عن جريمة الزنا نادر الحدوث ، فلا يتحدث المجتمع عن وقوعها ولا تلوكها الأفواه ، وهذا هو الأمر المقصود فإن كثرة الحديث عن وقوع الجرائم يهوِّن من أمرها لدى المسلمين ويغري ضعاف النفوس بإتيانها اقتداء بالمثل السيء ، وأمّا حين لا يذكرها الناس فإنّها مرهوبة يستبشع الناس حدوثها ولا يقدم عليها أحد ، فيقف هذا حائلًا دون انتشارها ولمثل هذا أوصى النبي ﷺ : من وقع في معصية فستر الله عليه فلم يره أحد أن لا يعود فيقول صنعت كذا وكذا.

وإنّما توقع العقوبة على المتبجح الذي يصل تبجحه إلى حد أن يضبطه أربعة من المارة متلبسًا بجريمته ، وأقول من المارّة ؛ لأنّ التجسس ممنوع بأمر القرآن وتسور البيوت لإثبات الجريمة ممنوع كذلك إلّا أنّ تقوم القرائن اليقينية على اتخاذها أوكارًا لمفسدين في الأرض يسعون بها فسادًا.

وهذا المتبجح يرتكب في الحقيقة جريمة مزدوجة فليس هو الشخص الذي استولت عليه نزوة الغريزة فلم يقدر عليها وإنّما هو العابث المستهتر الهازئ بكل تقاليد المجتمع وقوانينه وآدابه فهو لذلك لا يستحق الرحمة لا من الله ولا من الناس فيقول القرآن عنه : (وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ){النور: ٢}.

أمّا المجرم المتستر الذي يراعي تقاليد الجماعة حتى وهو يقع في الخطيئة فهو أقلّ ضررًا على المجتمع ؛ لأنّ جريمته لن تشيع ولا يكون هناك خطر العدوى بالقدوة السيئة ، وهو متروك لضميره وعذاب الآخرة ينتظره في نهاية المطاف وعسى أن يتوب فيتوب الله عليه.

فمن حرص الإسلام على أعراض الناس ورحمته أمر بالتستر بأن يستر المرء جريمته ، وأن لا يفضح نفسه ولا أخاه ويحثهم من وراء ذلك بالتوبة والاستغفار والله تواب رحيم.

عن أبي المسيب أنّ رجلًا من أسلم يقال له هزال شكا رجلًا إلى الرسول الله ﷺ بالزنا ، وذلك قبل أن ينزل قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ) {النور: ٤} فقال له النبي ﷺ يا هزال لو سترته بردائك لكان خيرا لك . أخرجه مالك وأبو داود.

ويجاء إلى الخليفة عمر بمسلم ارتكب ما يوجب حد الزنا ، ويشهد عليه ثلاثة شهادة تدينه ولم يبق إلّا شهادة الرابع ، ثم يصير الحدّ عقابًا محتومًا ، ويرسل عمر ويستدعي الشاهد الرابع ولا يكاد يراه مقبلًا حتى تأخذ عمر رهبة ، وحين تقترب خطاه ينظر إليه أمير المؤمنين ويقول : أرى رجلًا أرجو أن لا يفضح الله به واحدًا من المسلمين ، ففهم الشاهد المقبل ما يقصده عمر ﷺ فيقدم هذا الشاهد ويقول : لم أرَ شيئًا يوجب الحدّ ويتنفس عمر الصعداء ويفرح ؛ لأنّ مسلمًا نجا من العقاب.

وياتيه رجل يسعى ذات يوم ظانًّا أنّه يحمل إليه بشرى فيقول : يا أمير المؤمنين رأيتُ فلانًا وفلانة يتعانقان وراء النخيل فيمسك عمر بتلابيبه ويضربه بمخفقته ويقول له بعد أن يوسعه ضربًا : هلّا سترت عليه ورجوت له التوبة فإنّ رسول الله ﷺ قال : من ستر على أخيه ستره الله في الدنيا والآخرة .

ويأتيه يومًا رجل يستغيثه قائلًا إنّ ابنتي قد أصابت حدًّا من حدود الله (ارتكبت معصية) وأخذت شفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد وقعت بعض أوداجها فداويناها حتى شفيت ثم تابت بعد ذلك توبة حسنة ، وهي اليوم تُخطب إلى قوم ، أفاخبرهم بالذي كان؟ فيجيب عمر : أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه (وتظهره) ؟! والله لئن أخبرتَ بها أحدًا من الناس لأجعلنّك نكالًا (وعبرة) لأهل الأمصار ، اذهب وأنكحها (وزوِّجها) نكاح (وزواج) العفيفة المسلمة.

ومن عظم التربية الإسلامية وعمق تأثيرها في رفع النفوس حتى في حالة زللها النموذجان الآتيان اللذان لا نجد لهما نظيرًا في التاريخ إلّا في من تربَّوا في ظلال القرآن.

عن بريدة ﷺ قال أتى ماعز بن مالك الأسلمي ﷺ فقال يا رسول الله إنّي ظلمت نفسي وزنيتُ ، وإنّي أريد أن تطهرني فردَّه.

فلما كان من الغد أتاه فقال يا رسول الله : إنّي زنيت فردّه الثانية فأرسل رسول الله (ﷺ) إلى قومه فقال: هل تعلمون بعقله بأسًا تنكرون منه شيئا؟ فقالوا ما نعلمه إلّا وفي العقل من صالحينا فيما نرى ، فقد رده رسول الله (ﷺ) وسأل قومه عنه لعله مجنون ؛ ذلك من أجل أن يجد له ذريعة شرعية فيبعد عنه حدّ الرجم رحمة به ، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضًا فسأل عنه أنّه لا بأس به ولا بعقله ، فقد رده الرسول (ﷺ) أيضًا عند مجيئه إليه في المرة الثالثة إلّا أنّ الرجل لم يتراجع عن كلامه واعترافه ، فجاء اليه في المرة الرابعة ، ورسول الله (ﷺ) لا يريد أن يقيم عليه الحدّ حتى قال له (ﷺ) في رواية تبكيتا له بلفظ صريح : هل نكتها؟ قال نعم فحينذاك حين لم يبق

أمام رسول الله (ﷺ) أية ذريعة كانت يتوسل بها من أجل أن يبعد تنفيذ الحكم عن هذا الرجل ، فلما كان الرابعة حفر له حفرة فأُمِر به فرُجِمَ

وبعد ذلك اختلف فيه الصحابة في أمر توبته لكشف ما اقترفه ، وكان جديرا به أن يستر على نفسه فمن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة ، وإنّ الله ستّير يحب الستيرين ، فحين سمع الرسول ﷺ اختلافهم وكلامهم هذا فيه قال: لقد تاب توبة لو قسمت بين أُمَّة لوسعتهم . رواه الخمسة.

وقد جاء في رواية أخرى قصة هذا الرجل ماعز بن مالك "فأُمِر به فرجم فسمع النبي ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما لصاحبه : انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْم الكلب فسكت عنهما ، ثم سار ساعة حتى مرّ بجيفه حمار شائل رجليه فقال : أين فلان وفلان فقالا : نحن ذان يا رسول الله ، قال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا : يا نبي الله من يأكل من هذا؟ قال: فما نلتما من عرض أخيكما آنفًا أشدّ من أكل منه (فكلامكما وإهانتكما أخيكما أشدّ من أكل جيفة هذا الحمار) والذي نفسي بيده إنّه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس.

وعن بريدة ﷺ أيضاً قال: فجاءت الغامدية ، وهي امراة من جهينة وقد زنت برجل ليس بماعز بن مالك الأسلمي بل بغيره ، فجاءت إلى النبي ﷺ فقالت يا رسول الله إنّي قد زنيت فطهِّرني ، وكانت متزوجة محصنة وتعلم أنّ عقابها هو الرجم حتى الموت فردّها رسول اللهﷺ ولم يُقم عليها الحدّ ، ثم جاءت إليه فيما بعد فلما كان من الغد ، وكانت قد علمت وسمعت بقصة ماعز كيف أنّ رسول الله ﷺ ردّه ثلاث مرات قبل أن يقيم عليه حدّ الرجم في المرة الرابعة ؛ لذلك حين جاءت إليه مرة أخرى ، قالت يا رسول الله لِمَ تردّني لعلك تريد أن تردّني كما رددتَ ماعزًا ، فو الله إنّي لحبلى من الزنا قال : أما لا ، أي : ألا تريدين أن تستري على نفسك فاذهبي الآن ، فاذهبي حتى تلدي ، فرجعتْ وبقيتْ شهورًا حتى ولدت ولو لم تأته لانقذت نفسها ، فلمّا ولدت أتته بالصبي في خرقة قالت : يا رسول الله ، هذا ولدي ، قد ولدته قال: فاذهبي فترضعيه حتى تفطميه ، فقد كان رسول الله ﷺ يردّ هذه المراة في كلّ مرة فلم يحبسها أو يبعث عليها حرّاسًا يراقبونها ، فكان بإمكانها أن

تهرب أو في الأقل أن لا تأتيه ، وهذا ما كان رسول الله ﷺ يبغيه رأفة بها ، فبقيت ترضعه وتربيه حتى أصبح قادرًا على أكل الطعام والاستغناء عن ثدييها وحليبها ، فلما فطمته أتته بالصبي في يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله ، هذا ولدي بالزنا فطمته وقد أكل الطعام ، حينذاك لم يبق لرسول الله ﷺ أي ذريعة شرعية كانت ليبعد بها حد الرجم عن هذه المراة ، فشكَّت عليها ثيابها ، أي: لفّت عليها ثيابها لئلّا تتكشف عند رجمها ، ثم أمِر بها فحُفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد ﷺ بحجر فرمى راسها فنضح الدم على وجهه فسبّها فسمع النبي ﷺ سبّه إيّاها فقال ، مهلًا يا خالد فو الذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس ، المرتكب أشنع المعاصي ، لغُفِر له ، ثم أمر بها فصلّى عليها ودُفنت . أخرجه مسلم وأبو داود.

وفي الحديث الذي رواه الخمسة إلّا البخاري عن عمران بن حصين ثم صلى عليها فقال له عمر: تصلي عليها يا نبي الله وقد زنت فقال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدتَ توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى.

فقد كان رسول الله ﷺ أرحم بهذه المرأة الزانية من نفسها إلّا أنّها كانت حريصة على تنفيذ حكم الله فيها ، فلم تزل تلحّ عليه وتأتيه بعد كل عدة ينقضي أجلها حتى أقيم عليها حكم الله.

فما أعظم التربية التي غرسها هذا الدين في نفوس أتباعه ، مما لا نجد لها مثيلًا حتى في الأساطير ، فيا أهل الأرض فيا أهل الشرق والغرب هذه هي مبادئنا صنعت ما صنعت من المعجزات فأرونا ماذا صنعت مبادئكم؟

اللهم طهر قلوبنا من معاصيك وكما سترت علينا في الدنيا عيوبنا فاسترها علينا يوم الدين. اللهم امين.

الدرس الرابع عشر

أول فتنة في الإسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

يا حي يا قيوم بك نستغيث فأصلح لنا شؤوننا كلها ولا تكلنا إلى أأنفسنا ولا إلى غيرك طرفة عين.

يوم الثامن عشر من ذي الحجة يذكرنا باستشهاد عثمان ﷺ .

تولى عثمان ﷺ الخلافة اثنتي عشرة سنة، وكان أحب إلى قريش من عمر بن الخطاب ﷺ لأنّ عمر كان شديدًا عليهم فلما وليهم عثمان لان لهم. فاستغل ضعاف الإيمان والمنافقون هذا اللين فكانوا سبب الفتنة.

أخرج ابن عساكر عن الزهري قال: قلت لسعيد بن المسيّب، هل أنت تخبرني كيف كان قتل عثمان؟ وما كان شأن الناس وشأنه؟ فقال ابن المسيب : قتل عثمان مظلومًا ، ومن قتله كان ظالمًا ، ومن خذله كان معذورًا ، فقد ولّى عثمان ﷺ عبد الله بن أبي سرح مصر، فمكث عليها واليًا سنين. فجاء أهل مصر إلى عثمان ﷺ يشكون إليه واليهم هذا بأنّه يظلمهم فكتب عثمان ﷺ إلى والي مصر كتابًا يتهدده فيه ، وأبى بن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عنه عثمان ، وضرب بعض من أتاه من قبله من أهل مصر ممن كان أتى عثمان فقتله ، فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلى الصحابة ﷺ في مواقيت الصلاة من صنع ابن أبي سرح بهم ، فقام طلحة بن عبيد الله فكلّم عثمان بكلام شديد ، وأرسلت عائشة رضي الله عنها إليه تطلب منه أن يسمع لشكوى هؤلاء المصريين وينصفهم من عاملهم ووواليهم أو يعزله، ودخل عليه علي بن أبي طالب ﷺ فطلب منه مثل ذلك.

تأمل هنا أخي القارئ عظم الحرية التي منحها الإسلام لعامّة المسلمين كيف ضمن لهم أن يطالبوا بحقوقهم أعلى سلطة في الدولة الإسلامية وبصفة خاصة وجها لوجه وبدون حجاب وحراس ، وتأمّل ماذا كان رد الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ أنّه لما سمع شكواهم من واليهم قال لهم : اختاروا رجلًا أولِّيه عليكم مكانه .

هذا الكلام يمثل أعلى درجات ما سمى اليوم بـ(الديمقراطية) يطلب رئيس الدولة من الشاكين أن يختاروا من يرضونه واليا عليهم ، فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر، وعزل والي مصر بن أبي سرح على الرغم من أنّه كان من أقربائه.

وخرج معهم عدد من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وابن أبي سرح ، فخرج محمد ومن معه ، فلمّا كانوا على مسيرة ثلاثة أيّام من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير ، فقال له أصحاب محمد ما قصتك وما شأنك كأنَّك هارب أو طالب؟ فمرة يقول لهم أنا غلام مروان ، ومرة يقول أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى والي مصر، ففتشوه فوجدوا معه كتابًا مكتوبًا فيه : من عثمان إلى ابن أبي سرح إذا أتاك محمد ، وفلان ، وفلان فاحتل (ودبِّر حيلة) في قتلهم وأبطل كتابه (ولا تأخذ به) وقر على عملك (وابق في منصبك) حتى يأتيك رأيي ، واحبس من يجيء إليك يتظلم (ويشكو) منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى.

فلما قرؤوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة ، فجمعوا طلحة والزبير وعليًّا وسعدًا ومن كان من أصحاب محمد ، ثم فكّوا الكتاب بحضرتهم وأخبروهم بقصة الغلام وأقرؤوهم الكتاب ، فلم يبق أحد من أهل المدينة إلّا غضب على عثمان ﷺ .

فحاصر الناس عثمان ﷺ سنة خمس وثلاثين ، فلمّا رأى ذلك عليٌّ ﷺ بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من الصحابة وكلهم بدري

ممن جاهدوا في معركة بدر ، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، فقال له علي : أهذا الغلام غلامك؟ قال نعم ، والبعير بعيرك؟ قال نعم ، والخاتم خاتمك؟ قال نعم.

قال: فأنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله ما كتبتُ هذا الكتاب ، ولا أمرتُ به ، ولا وجهتُ هذا الغلام إلى مصر قط ولا علم لي به.

فخرج أصحاب محمد من عنده ، وعلموا أنّ عثمان لا يحلف بباطل، ثم بدا لهم أنّ الذي كتب الكتاب مروان كتبه من غير علم عثمان ومن غير أذنه.

ولا يستبعد أن يكون الذي قام بهذا التزوير نفر من زعماء الثوّار، ولا غرابة أن يفعلوا ذلك ؛ إذ لهم سابقة في مثل هذا التزوير فحين عزموا أمرهم على الخروج من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة دسّ بعض زعمائهم حيلة ، يحملون بها أكبر عدد من المسلمين على الخروج معهم ، فزوّروا كتابًا على لسان أمِّ المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ﷺ يدعون المسلمين فيها إلى الزحف على المدينة لقتال عثمان ، ولم تعرف حقيقة هذه الخدعة إلّا بعد وقوع الواقعة واغتيال عثمان ﷺ .

وكان مروان عنده في الدار، فطلبوا منه أن يسلمهم مروان الذي كان رئيس ديوان الخليفة أو يعتزل عن الخلافة ، ولكي يحافظ عثمان ﷺ على هيبة الدولة الإسلامية ، رفض هذين الأمرين إلّا أنّه كان قد وعد الثائرين بعزل مروان وعزل أمراء الامصار الذين يشتكون منهم ، وأعطى عليًّا وعدًا صادقًا وعهدًا وثيقًا بذلك ، فلم يسلمهم مروان ؛ لأنّه علم أنّهم سيقتلونه ، ولم يفعل ذلك رضا بما فعله مروان "وإنّما هي طبيعة رجل لا يطيق أبدًا أن يسلِّم بيديه إنسانًا إلى ساحة القتل والإعدام" ؛ لذلك رفض المطلب الأول.

أمّا فيما يخصّ المطلب الثاني وهو اعتزاله عن الخلافة فقد استشار عثمان ﷺ عبد الله بن عمر أحد العبادلة الثلاثة وأحد فقهاء الصحابة الذين

شهد لهم الرسول ﷺ بعلمهم وورعهم وإصابة رأيهم فقال عثمان ﷺ : إنّ هؤلاء القوم يريدون خلعي فإن أجيبهم تركوني ، وإن ابيتُ قتلوني ، فماذا ترى؟ فأجابه عبد الله بن عمر : لا، فلا تسنَّ هذه السِّنّة في الإسلام وتخلع قميصا ألبسكه الله ، كما أنّ عثمان ﷺ قد ذكر وصية كان الرسول ﷺ قد أوصاه بها ، وهذه الوصية النبوية هي : "يا عثمان إذا الله كساك يومًا سربالًا وأرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه لظالم" ، وفي رواية أخرى أنّ الرسول ﷺ قال له : يا عثمان إنّ الله عسى أن يلبسك قميصًا فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني يوم القيامة ، فقد ألبسه الله لباس الخلافة وها هم الثوار المتمردون المنافقون كما وصفهم الرسول ﷺ يريدون بقوة السلاح أن يكرهوه على خلعه ، وعثمان ﷺ يريد تنفيذ الوصية التي أوصاه بها رسول الله ﷺ .

حاصر الثوار دار عثمان ﷺ ومنعوا عنه الماء الذي تتفجر به بئر رومة التي اشتراها من خالص ماله في أوائل أيّام الهجرة إلى المدينة وجعلها صدقة منه للمسلمين فبلغ ذلك عليًّا ﷺ فبعث إليه بثلاث قرب مملوءة ماء ، فما كادت تصل إليه وجرح بسببها عدد من المدافعين عنه من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصل إليه الماء ، ثم قال لابنيه الحسن والحسين اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحدًا يصل إليه وبعث الزبير ابنه ، وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدد من أصحاب رسول الله ﷺ ابناءهم يمنعون الناس عنه حتى خُضب الحسين بن علي بالدماء ، وكذلك جُرح محمد بن طلحة ، وشُجّ قنبر مولى علي ﷺ.

فقد أبلت ثلة طاهرة تحت إمرة الحسن والحسين وابن الزبير وابن عمر بلاء حسنًا في صد المتمردين الواقفين على باب دار الخليفة لقتله حتى ردتهم على أعقابهم.

وأخرج أحمد عن المغيرة بن شعبة أنّه دخل على عثمان ، وهو محصور فقال : إنّك إمام العامّة ، وقد نزل بك ما ترى وإنّي أعرض عليك خصالًا ثلاثا : إمّا أن تخرج فتقابلهم فإنّ معك عددًا وقوة ، وأنت على الحق وهم على الباطل ، وإمّا أن نخرق لك بابًا سوى الباب الذي هم عليه فتقعد على راحلتك فتلحق بمكة فإنّهم لن يستحلوك وأنت بها (فلن يستطيعوا قتلك هنالك) وإمّا أن تلحق بالشام فإنّهم أهل الشام وفيهم معاوية ، فقال عثمان : أمّا أن أخرج فأقاتل فلن أكون أوّل من خلف رسول الله ﷺ في أمّته بسفك الدماء ، وأمّا أن أخرج إلى مكة فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول : يلحد (ويكفر) رجل من قريش بمكة ، فيكون عليه نصف عذاب العالم ، فلن أكون أنا ، وأمّا أن الحق بالشام فلن أفارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ.

لقد وقف الحسن والحسين ابنا علي أرسلهما أبوهما ليحرسا منافذ الدار وكان معهما عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وآخرون.

وكانوا مستعدين لصد الثوار جميعًا ، وكانوا قادرين على ذلك إلّا أنّ عثمان ﷺ أمر كل من وقف ليدافع عنه بأن يلقي سلاحه ويذهب عنه ، وكان يقول لهم "أعزم عليكم لمَّا رجعتم فوضعتم أسلحتكم ولزمتم بيوتكم" وكان يقول لهم "أناشدكم الله ألّا تهرقوا بسببي دماء".

فقد حاصر الثوار "داره شاهرين سيوفهم وتواتيه فرص قتالهم وقتلهم فيرفضها قائلًا كلمته الخالدة : "ما أحب أن القى الله وفي عنقي قطرة دم لامرئ مسلم" .

ثم تواتيه فرص الخروج من الدار المحاصرة والنجاة من القتلة المتربصين فيرفضها معلنا أنّه على موعد في الجنة مع الرسول وصاحبيه وأنّه يتهيأ الآن للسفر إلى موعده" .

وقد عرض معاوية على الخليفة عثمان أن يصحبه إلى الشام فرفض عثمان ﷺ عنه قائلا : "لا أختار بجوار رسول الله جوارا" .

وعاد معاوية يعرض عليه أن يرسل جيشًا من الشام يرابط بالمدينة ويحافظ على حياة الخليفة، فرفض عثمان أيضًا هذا الأمر وقال : "أخشى أن يزحموا المدينة فتضيق بهم على أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار" .

وعاد معاوية يقول لعثمان ﷺ : إذن سيقتلونك ، وكان جواب الخليفة العظيم : حسبي الله ونعم الوكيل" . هنا تبدو عظمة الإسلام من بين النظم والأديان في صنع الرجال وعظمة الخليفة عثمان من بين الملوك ، فأيّ ملك من ملوك الدنيا في غير أُمة القرآن تعرّض بمثل هذه المحنة ثم رفض نصرة من أراد أن ينصره خوفًا من أن تسفك قطرة دم من أجله؟ بل عثمان ﷺ رفض نجدة من أراد ان ينجده خوفًا على رعيته من أن تضيق بهم طرقهم. فيالها من تضحية وإيثار وحرص على مصلحة الأمة ، ففدى بعرشه ونفسه من أجل أن لا تشتدّ إلى حد ما محنة رعيته .

أما محمد بن أبي بكر فقد كان من الثوار إلّا أنّه تراجع وندم في آخر الأمر وراح هو الآخر يدافع عن عثمان حتى استطاع أن يصدهم عنه لمّا اقتربوا منه لقتله ، فلما راوا ان محمد بن أبي بكر قد تخلّى عنهم وأنّ عددًا من بني هاشم جرحوا ، وخشوا أن تحصل بينهم وبين بني هاشم مواجهة كبيرة فأسرعوا في تدبير حيلة لاغتياله ، فنظروا فإذا دار مجاورة لدار الخليفة قريبة المنال فتسوروا عليه من هذه الدار فقتلوه ﷺ وخرجوا هاربين من حيث دخلوا ، ولم يعلم أحد ممن كان يحرسه ويدافع عنه ؛ لأنّهم كانوا جميعًا فوق البيت ، وصرخت امرأته ولم يسمع صراخها أحد لِما كان في الدار من الجلبة وصعدت إلى الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل عليه الحسن والحسين ومن كان معهما فانكبوا عليه يبكون ، فدخل الناس فوجدوا عثمان مقتولًا فبلغ ذلك عليّا وطلحة والزبير وسعدًا ومن كان بالمدينة فخرجوا من

بيوتهم وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان ﷺ وهو مقتول فاسترجعوا وقال عليٌّ لابنيه الحسن والحسين : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب، فرفع يده ولطم الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فخرج عليٌّ ﷺ وهو غضبان فلقيه طلحة فقال له : ما لك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين لو دفع عثمان مروان لم يقتل ، فقال علي ﷺ لو أخرج اليكم مروان لقتل قبل أن تثبت عليه حكومة (وتهمة) لقتل قبل أن يحاكم.

وروي عن ابن عباس ﷺ انّ رسول الله ﷺ قال لعثمان تقتل وأنت مظلوم.

وأخرج البخاري عن أبي عبد الرحمن السلمي أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم ، فقال: أنشدكم بالله، ولا أنشد إلا اصحاب النبي ﷺ : الستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال : من جهّز جيش العسرة فله الجنة ، فجهّزته ؟ الستم تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قال: من حفر بئر رومة فله الجنة؟ فحفرتها فصدقوه بما قال.

حتى ذُكر أنّ عثمان ﷺ اشترى الجنة مرتين.

وقد استمر حصار المرتدين لعثمان في داره أربعين ليلة وقيل خمسين.

وقد دفن عثمان ﷺ بملابسه ولم يغسَّل، وعن سهل بن حنبس وكان ممن شهد قتل عثمان قال : لما أمسينا قلت : لئن تركتم صاحبكم حتى يصبح مثّلوا به ، فانطلقنا به إلى البقيع فأمكنّا له من جوف الليل ثم حملناه فغشينا سواد من خلفنا (فظننناهم قتله عثمان وأنصارهم) حتى كدنا نتفرق (خوفًا منهم) فإذا مناد (من بين هذا السواد) لا روع عليكم (لا خوف عليكم) اثبتوا فإنّما جئنا لنشهد معكم ، وكان ابن حنبس يقول : هم الملائكة.

وعن عبد الله بن سلام قال: دخلت على عثمان لأُسلِّم عليه وهو محاصر فقال : مرحبًا يا أخي ، فقلت : يسرُّني لو كنت فداءك يا أمير المؤمنين، فقال الليلة رأيت رسول الله ﷺ وقد مثل لي في هذه الخوخة (كوة وفتحة من الدار) وأشار عثمان بيده إلى خوخة في أعلى داره فقال لي: يا

عثمان حصروك؟ قلت نعم. قال : عطَّشوك ؟ قلتُ نعم . قال : فدلى دلوا فشربت منه فها أنا أجد برودة ذلك الدلو بين ثديي وكتفي فقال: إن شئتَ أفطرتَ عندنا ، وان شئتَ نُصرتَ عليهم فاخترتُ الفطر.

لذلك صام تلك الليلية فقُتل وهو صائم ويقرأ القرآن من سورة البقرة فقطرت من دمه على قوله تعالى : (فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)}البقرة ١٣٧{

وأول ما ضرب على يده بالسيف فقطعت يده فقال : أما والله إنّها اول كف خطت القرآن (وكتبته بين يدي رسول الله ﷺ) فقد كان عثمان ﷺ من كتاب الوحي.

واستشهد عثمان ﷺ يوم الجمعة ٨ من ذي الحجة سنة ٣٥ للهجرة يوم ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ ميلادية وكان عمره٨٢ سنة.

وعن الحسن قال شهدت عثمان بن عفان دفن في ثيابه بدمائه ، وفي البخاري أنّه لم يغسل وأنّه دُفن بالبقيع.

وعن زيد بن أبي حبيب قال: إن عامّة من أشار إلى قتل عثمان جنوا.

وعن محمد بن الحنيفة أنّ عليًّا قال يوم الجمل : لعن الله قتله عثمان في السهل والجبل.

وعن عبد الله بن الحسن أنّه قد ذكر عند علي ﷺ قتل عثمان فبكى حتى بلَّ لحيته . أخرجه ابن السمان.

ومن الدروس التي نستنبطها من هذه الموعظة أنّ عظم الديمقراطية[١] التي منحها الإسلام لعامّة المسلمين كانت السبب الذي أدى إلى قتل عثمان ﷺ بل كانت هذه الديمقراطية التي طبقها الإسلام بمبادئه السامية قبل أربعة

(١) لا يصح أن نسمي الإسلام نظامًا ديمقراطيًّا ؛ لأنّ الديمقراطية مصطلح حديث قامت على أسس غير الأسس الإسلامية ، لكن استخدمنا هذا المصطلح لبيان عظمة الإسلام في هذا الجانب.

عشر قرنًا أعظم من الديمقراطية التي تتباهى بها أمريكا اليوم وتفخر بها على العالم والمبنية على الفسق والفجور، فقد سمع وشاهد العالم كلّه عبر وسائل الإعلام والإذاعة والتلفزيون والجرائد والمجلات بداية هذا العام ١٩٩٩م أنباء تورط الرئيس الامريكي بيلك كلنتن بفضيحة جنسية ، فقد رفعت مواطنة أمريكية تعمل موظفة في البيت الأبيض شكوى ضده ، ادعت بأنّه كانت له علاقة غرامية معها وأنّه تحرش وزنى بها في حرم البيت الأبيض.

وسمعت بإذنيَّ من إذاعة أمريكا ولندن وفرنسا أنّ من التهم التي وجهتها إليه هذه الموظفة أنّه كان يطلب منها أن تقبض فرجه، وقد عرضت على شاشة التلفزيون عدة مرات تدلي بشهادتها ويصرح المذيع باسمها، وكنت أراها مبتسمة دائمًا غير مبالية بما فضحت به نفسها.

فطلب أعضاء من الكونغرس محاكمة الرئيس الأمريكي، فكذب الرئيس أول مرة ، واستمرت الموظفة الأمريكية تؤكد ما تدعيه بدليل تلو دليل ، وكان من أدلّتها أنها قدمت أحد ملابسها وهو ملطخ بالمني ، فثبت بالفحص أنّه كان مني الرئيس الأمريكي، ثم اعترف في آخر الأمر بعلاقته معها ، وأنّه قد زنى بها في البيت الأبيض ، وأعلن ندمه وتوبته حتى سمعت من الإذاعات أنّه طلب من الكنيسة أن تغفر له ذنبه هذا.

ثم استمر أعضاء الكونغرس في محاكمته حتى انتهت نتيجة المحاكمة بعدم عزله عن الرئاسة ، لا لأنَّ المحكمة اثبتت براءته ، ولكن لكونها عدت هذا الفعل الذي صدر منه لا يستوجب عزله.

فديمقراطية الإسلام وصلت إلى أن يتمرد المتمردون فيعمدون إلى قتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ لأنّه فقط لم يسلم اليهم مروان ، رئيس ديوان الخلافة ، على الرغم من اعترافهم بأنّ عثمان ﷺ كان بريئًا من التهمة التي وجهت اليه.

في حين أنّ ديمقراطية أمريكا أقرّت ببقاء الرئيس الأمريكي في سلطته على الرغم من اعترافه أمامهم بانه قد أأهان هيبة الدولة الأمريكية حين زنى بموظفة تعمل عنده في قصر الدولة والرئاسة.

فاين ديمقراطية مريكا اليوم من ديمقراطية الاسلام بالأمس ؟!

اللهم رد أمة محمد ﷺ إلى دينها وجنبها الفتن ما ظهر منها وما بطن وجنبنا اللهم كل فتنة حتى نلقاك غير مفتونين اللهم آمين.

الدرس الخامس عشر

لا إكراه في الدين ، ولماذا الفتوحات الإسلامية

بسم الله والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، قال الله تعالى : (لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ {٨} إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظالِمُونَ){الممتحنة:٨-٩}

كان الدافع للفتوحات الإسلامية أمرين أساسيين :

الأول : هو الدفاع عن الدولة الإسلامية الفتية ، إذ كانت مهددة بالقضاء عليها من الدولة الفارسية من جهة الشرق ، والدولة الرومانية من جهة الغرب ، فاندفع المسلون شرقًا وغربًا لإزاحة هذين الخطرين .

الثاني: هو أنَّ المسلمين وجدوا أنفسهم مكلفين بتبليغ الناس بالإسلام ، وأنّ الله سبحانه قد أناط بهم هذه المسؤولية الإنسانية ، بل قد أمرهم بهذا ضمنًا حين أمر نبيهم بقوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ){المائدة : ٦٧} وشرفهم الله سبحانه بأداء هذا الأمر الرباني ؛ بأن جعلهم شهداء على الناس يوم القيامة ، قال الله تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)}البقرة : ١٤٣{

فقد وجد الرعيل الأول من المسلمين أنفسهم بأنَّهم قد أصبحوا مكلفين ، بأن يكونوا بمثابة رسل الله مبشرين ومنذرين ؛ ذلك عن طريق حمل الرسالة الإسلامية ، وإيصالها إلى الناس ؛ ليقيم الله الحجة على الناس ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كما قال الله تعالى : (رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاّ

يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا){النساء : ١٦٥}

فاندفعوا مضحين بأموالهم وأنفسهم خارج أوطانهم ؛ لإنقاذ شعوب الدنيا من ذل عبوديتهم للحكام ، إلى عز عبوديتهم لله ، إلّا أنَّ الطواغيت التي تحكم تلكم الشعوب لم يرق لهم أن يروا شعوبهم قد تحررت بالإسلام ، فسخروا جيوشهم المغلوبة على أمرها لصدّ الدعاة المسلمين من أداء هذا الأمر الرباني الذي فيه خلاص البشرية من عذاب الدنيا والآخرة ؛ مما اضطر الصحابة والتابعين لحمل السيف ضدهم ؛ ليتسنى لهم تبليغ شعوب العالم بدين الله فحسب ، من غير إكراههم على اعتناقه ؛ ليسلم منهم طوعًا من رغب في الإسلام ؛ فلولا تلك الفتوحات التي تحمَّل عناءها المسلمون الأوائل ، لما كان ثلث البشرية ينعمون اليوم بنعمة الإسلام التي لا تعادلها نعمة ؛ فرضي الله عنهم جميعًا، وجزاهم الله عنّا كل خير.

وبعد هذا نقول بأنَّ الإسلام قد رسم لنا منهجًا عامًّا في التعامل مع غيرنا من غير المسلمين ويمكن أن يمثل السياسة الخارجية للدولة الاسلامية، وهذا المنهج هو أن نحسن إلى من هم ليسوا على ديننا إذا أحسنوا إلينا ولم نلق منهم الأذى والعدوان سواء كانوا يهودًا أم نصارى أم مشركين وكافرين ، لكن علينا أن نجابه منهم من يظهر لنا عدوانه وأذيته.

فكما نجد من النصارى من يحاربنا في ديننا وعقيدتنا نجد قسمًا آخر منهم يدافع عنا ضد زملائه وبني جنسه ، وقد تسمع من يطعن في الإسلام أنّه انتشر بالقوة والسيف ، فيقول: إنّ القرآن يقول (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ) {آل عمران: ١٩} ، ويقول : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ){آل عمران: ٨٥} وهذا يعني أنّ من لم يسلم يجب قتاله ؛ لأنّه لا يقبل عند الله إلّا الإسلام.

يقول ميشينر وهو أستاذ أجنبي غير مسلم يُدرِّس في جامعة هارفرد في كلية التربية بولاية كولورادو الأمريكية الحاصل على جائزة كوبنزر ١٩٤٧م، وقد مارس تدريس نظرية تدريس التاريخ ، نقلًا من مجلة ريدرز دايجست حزيران ١٩٧٥م، بالغ من العمر ٧٠ عامًا.

يقول هذا الأستاذ في مقال نشره في هذه الجريدة : (إنّه في إحدى الكنائس في أمريكا لصقت عليها صور للمسيح وموسى وبوذا بشكل تظهر أنّهم دعاة سلام في حين أظهروا صورة لمحمد (ﷺ) وبيده سيف يلوح به : إما الإسلام أو الموت))

فانتقد هذا الأستاذ الكبير هذه المعاملة التي تعامل بها بلاده الإسلام ومما ذكره : "من أغرب الحقائق في عالمنا المعاصر أنّ الاسلام تعرض إلى فهم بائس".

ثم بعد ذلك راح يثني كثيرًا على الإسلام ومعاملته السمحة.

هذه التهمة التي يوجهها ضدّ الإسلام مستشرقون غربيون لا تستند إلى واقع ، بل هؤلاء المستشرقون أنفسهم يعلمون علم اليقين أنّها كذب ومفتريات إلّا أنّهم يسعون من شيوعها في بلدانهم صرف الناس عن هذا الدين ؛ لذلك نجد مستشرقين آخرين أكثر منهم علمًا لم تخفَ عليهم سخف هذه التهمة فراحوا يفندونها بالأدلة المنطقية والواقعية.

من الكتب التي اطلعت عليها كتاب : تاثير الإسلام على أوربا، تاليف المستشرق مونتمكري واط ترجمة الدكتور عادل نجم عبو الأعرج. يقول هذا المستشرق، ص١٣-١٤:

((إنّ حضارات القبائل الوثنية في الجزيرة العربية كان عليها أن تختار بين الإسلام والسيف إلّا أنّ تعامل المسلمين كان مختلفًا تجاه اليهود والمسيحيين والزرادشتيين وغيرهم ممن احتسبوا ضمن (أهل الكتاب) حيث عدوا دياناتهم الديانات الشقيقة للإسلام برغم الدعوى القائلة بأنّ الاتباع

المعاصرين لتلك الديانات قد ابتعدوا عن جوهرها، ومهما كان الأمر فإنّهم عدوا (أهل الكتاب) .

وعدَّ المسلمون "معظم سكان الأقطار التي فتحوها أول الأمر خارج الجزيرة العربية ضمن (أهل الكتاب) لذلك فإنّ فرض الجهاد لم يكن يرم إلى تحويل أولئك السكان إلى الإسلام بقدر ما كان يرمي إلى اعترافهم بالحكم الإسلامي وبمنزلتهم أناسًا يحميهم الإسلام ، وكانت حمايتهم للذميين واجبًا مفروضًا وكانت تمثل بالنسبة للدولة الإسلامية كلمة شرف تلتزم بها الدولة وتنفذها"[١]

ويذكر ص١٢٠ بأنّ الأوربيين يزعمون أنّ الإسلام انتشر بحد السيف فعقب على ذلك بقوله : (("إن التصور الأوربي للإسلام في هذا الجانب بعيد كل البعد عن الحقيقة فكما وضحنا في الفصل الأول: إنّ الاختيار بين الإسلام والسيف لم يفرض على اليهود والمسيحيين وأتباع الديانات السماوية الأخرى بل اقتصر على الوثنيين"))[٢].

ويقول : ((لم يكن يومًا من أغراض الحرب في الإسلام إكراه الناس على اعتناقه لا في مبادئه النظرية ولا في واقعه التاريخي ، اللهم إلّا فلتات عارضة وقعت خطأ ممن لم يفهموا حقيقة الدعوة الإسلامية ، ولا تحسب على الدين ؛ لأنّها ليست من هذا الدين)) [٣].... ويقول سير، ت،و، أرنولد في كتابه : الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وزميليه ص٥١: "ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون على العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة ، واستمر في الأجيال المتعاقبة نستطيع أن نستخلص بحقّ أنّ هذه القبائل المسيحية التي

(١) تاثير الإسلام على أوربا / واط، ص١٣-١٤.
(٢) المصدر نفسه، ص١٢٠.
(٣) المصدر نفسه،

اعتنقت الإسلام إنّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة ، وإنّ العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح)) ويقول ص ٤٨((ويمكن أن نحكم من الصلاة الودية التي قامت بين المسلمين والمسيحين من العرب بأنّ القوة لم تكن عاملًا حاسمًا في تحويل الناس إلى الإسلام فمحمد ﷺ نفسه قد عقد حلفًا مع بعض القبائل المسيحية ، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية ، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم في أمن وطمأنينة")) وهناك كتب عديدة غير التي تقدم ذكرها ألّفها غربيون تتعلق بالسيرة النبوية أو الحضارة الإسلامية وهم بذلك يردون على إخوانهم الذين يطعنون في بعض جوانب من شخصية الرسول ﷺ أو في جوانب من التشريع الإسلامي.

وقد اطلعت أيضًا على كتاب حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ، وصاحب هذا الكتاب كان قد طاف البلاد الإسلامية والعربية في أواخر القرن التاسع عشر واحتك بالمسلمين ، وتعرَّف إلى طرق حياتهم ، والتقط صورًا كثيرة في أثناء تجواله منها صور لمكة والكعبة في أثناء الحج ، وكان قد طبع كتابه باللغة الفرنسية عام ١٨٨٨م ثم ترجم إلى العربية أول مرة عام ١٩٤٧م.

ومما قاله عن انتشار الإسلام: ص١٢٧-١٢٨ ((وسيرى القارئ حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم ، أنّ القوة لم تكن عاملًا في انتشار القرآن ، فقد ترك العرب المغلوبين أحرارًا في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم ؛ فذلك لِما راوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من ساداتهم السابقين ؛ ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة ؛ فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر القرآن بالسيف إذن بل انتشر بالدعوة وحدها ، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب.... وبلغ القرآن من الانتشار في الهند عن طريق التجار المسلمين لا عن طريق السيف))[1]

وبيَّن في هذا الكتاب نفسه التسامح الإسلامي تجاه الأديان الأخرى وقسوة الصليبيين ضد المسلمين فقال: ((وكانت القدس تابعة في ذلك الحين لسلطان مصر الذي استردها من الترك فاستولى عليها الصليبيون في ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ وقد جاء في الأقاصيص أنّ القديس جورج تراءى للصليبين (يعني ظهر لهم وهو في عداد الأموات كما يقولون عن ظهور مريم أحيانًا للنصارى فظهر لهم هذا القديس) من جبل الزيتون ، وأنّه حرضهم على القتال فانقضوا على أسوار القدس واقتحموها.

وكان سلوك الصليبين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو النصارى حين دخلها منذ بضعة قرون.

قال كاهن مدينة لوبي ريموندا جيل : حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار وحرق بعضهم في النار فكان ذلك بعد عذاب طويل (يعني يعذبون في البداية عذاب طويلًا ، ثم بعد ذلك يحرقونهم في النار) وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلّا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ، وروى ذلك الكاهن الحليم خبر ذبح عشرة آلاف مسلم في مسجد عمر فعرض الوصف اللطيف كالآتي، ....ولم يكتف الفرسان الصليبيون الاتقياء بذلك ، فعقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع

([1]) حضارة العرب للمستشرق الفرنسي غوستاف لوبون، ص١٢٧-١٢٨.

سكان القدس من المسلمين واليهود والخوارج النصارى الذين كان عددهم نحو ستين ألفًا فأفنوهم على بكرة أبيهم في ثمانية أيّام. ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولدًا ولا شيخًا)) "[1].

وقال: ((وكان تعميد العرب كرهًا (أي تحويلهم إلى نصارى) فاتحة ذلك الدور ... ولم تتمّ عملية التطهير بالنار إلّا بالتدرج لتعذر إحراق الملايين من العرب دفعة واحدة ، ونصح كردينال طليطلة التقي الذي كان رئيسا لمحاكم التفتيش بقطع رؤوس جميع من لم يتنصر من العرب رجالًا ونساء وشيوخًا وولدانًا، ولم ير الراهب الدومينيكي بليد الكفاية في ذلك فأشار بضرب رقاب من تنصر من العرب ، ومن بقي منهم على دينه ، وحجته في ذلك أنّ من المستحيل معرفة صدق إيمان من تنصر من العرب ؛ فمن المستحب إذن قتل جميع العرب بحدّ السيف لكي يحكم الربّ بينهم في الحياة الآخرة ، ويدخل النار من لم يكن صادق النصرانية منهم.

ولم تر الحكومة الإسبانية أن تعمل بما أشار به هذا الدومينيكي الذي أيّده الأكليورس في رأيه لِما قد يبديه الضحايا من المقاومة ، وأمر في سنة ١٦١٠م بإجلاء العرب من إسبانية ، فقتل أكثر مهاجري العرب في الطريق، وأبدى ذلك الراهب البارع ارتياحه لقتل ثلاثة أرباع هؤلاء المهاجرين في أثناء هجرتهم ، وهو الذي قتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠.٠٠٠ مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقية))[2].

والله سبحانه هو الذي سخّر هؤلاء ليبينوا الحقائق لأقوامهم لتكون دلائلهم أبلغ وحجتهم أقوى ؛ لأنّ الذي رد عليهم وأوضح زيف كلامهم أناس منهم ينتمون إلى نفس القومية واللغة والدين والبلد ، وأوسع وأشهر منهم علمًا وأفضل منهم أخلاقًا وسيرة.

([1]) المصدر نفسه، ٣٢٦-٣٢٧.
([2]) المصدر نفسه، ٢٧٠-٢٧١.

وذكر الشيخ إبراهيم النعمة أنَّ من صور الاضطهاد الأخرى ضد المسلمين أنّ الاستعمار الفرنسي في افريقيا الوسطى منع تدريس اللغة العربية لابناء المسلمين في أيّ مدرسة كانت ... وجعل مفتشين يقومون بتفتيش المدرسة الوحيدة للمسلمين في العاصمة (بانكي) ومن هؤلاء المفتشين رجل فرنسي ولد في الجزائر يحسن العربية كتابة وقراءة كان مكلفا للتفتيش ، بل كان يأتي في الأوقات كلها ، فإذا علم الطلاب المسلمون أو المدرسون بقدومه أخفوا ما معهم من كتب العربية تحت الحصير ثم جلسوا فوقها ووضعوا أمامهم كتبًا أخرى ، بل كان هذا المفتش الصفيق يأتي إلى مدير المدرسة في بيته ويبحث عن كتب العربية عنده ، حتى يبحث عنها تحت سريره.

كما أنّهم وضعوا حراسة مشددة على الحدود السودانية والتشادية ، فإذا جاء أحد من السودان أو تشاد يريد دخول البلاد فتشوه ، فإذا وجدوا كتبًا معه بالعربية سحبوه وأخذوا منه الكتب ، وظل الأمر على هذا الحال حتى الاستقلال عام ١٩٦٠[1].

إنّ القرآن الكريم لم يدع إلى نشر السلام بالقوة بل قال تعالى : (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ){النحل: ١٢٥} وقال تعالى : (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ){البقرة: ٢٥٦}

والقرآن الكريم لا يريد نشر الإسلام بالقوة ؛ لأنّ الذين يدخلون الإسلام عن هذا الطريق يكونون منافقين.

وبروز ظاهرة النفاق في المدينة أعطت المسلمين درسًا في الابتعاد عن إكراه الناس على قبول الاسلام.

---

(1) هذا ما ذكره الشيخ ابراهيم النعمة في كتابه الإسلام في أفريقيا، وكان الشيخ إبراهيم النعمة قد زار هذه البلاد ودرّس فيها.

وكان الرعيل الأول مرهفي الحسّ في هذا الصدد ، فقد روي أنّ عمر بن الخطاب ﷺ وجد امرأة من غير المسلمين –يهودية أو نصرانية– بلغت أرذل العمر ، جاءته تسأله (تستجدي منه) فقال: هل أسلمتِ؟ قالت: إنّي أريد أن أموت على ديني، فخشي عمر ﷺ أن يكون قد أغلظ لها في القول مما يشبه الإكراه ، وقال: اللهم إنّي لا أريد أن أكرهها ، ثمّ تلا قوله تعالى: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ){البقرة : ٢٥٦}

وقد بالغ كثير من العلماء في احترام حرية الأديان، وما يعجب في هذا الموضوع ما يقوله علماء الشافعية : إذا أسلمت زوجة الذمي ، أي: زوجة النصراني أو اليهودي لا يعرض الإسلام على زوجها ؛ لأنّ في عرض الإسلام عليه إكراهًا له على الإسلام من طريق خفي ، وذلك أنّ الإسلام يفرق بينها وبين زوجها.

ومن الأمور المعروفة في التاريخ الإسلامي أنّ محمدًا (ﷺ) حين أوحي إليه وأُمر من قبل الله بتبليغ الناس ونشر الإسلام لم تكن له وقتئذ أيّة قوة كانت ، وأيّة سلطة كانت ، فراح ينشر الإسلام والناس يدخلون في هذا الدين طوعًا وعن رضًا وقناعة ، فأيَّة قوة وأيّ سيف أجبر مثلًا أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وبلالًا على الدخول في الإسلام ؟ واي مطمع دنيوي حرك فيهم دافع الإيمان ؟.[1].

بل هؤلاء والصحابة من الرعيل الأول جميعًا ، رضي الله عنهم ، أسلموا على الرغم من أنّ السيف كان مشهورًا من قبل المشركين ضدّهم ليحول بينهم وبين دخولهم الإسلام ، أسلموا على الرغم من أنّ الإسلام عرضهم للخوف والفقر والقتل والهجرة ومفارقة الأهل والأولاد، أي : أنّ هذا الواقع التاريخي يشهد بعكس ما ادعاه أعداء الإسلام تمامًا

---

(1) مجلة التربية الاسلامية

ويؤلف المسلمون في الحبشة ٦٠% من السكان ، وقد أعلن امبراطور الحبشة هيلا سيلاسي في خطابه الذي ألقاه في الكونغرس الأمريكي أنّ المسلمين أقلية دخلت الإسلام على أيدي عدد من التجار الأجانب ، وإنّهم قريبًا سيعودون إلى دين آبائهم وأجدادهم.

وهذا اعتراف صريح من هذا الطاغية من حيث لا يشعر بانّ الإسلام لم ينتشر بالسيف في بلاده.

وقد أسلم من قبلُ النجاشي ملك الحبشة في عهد رسول الله (ﷺ) ولم يصل إليه ولا إلى بلاده سيف إسلامي واحد ، فقد أسلم على يد المسلمين الذين هاجروا أول مرة إلى الحبشة ، وما يزال في الحبشة أكثر من عشرين مليون مسلم.

وهذه أندنوسيا يبلغ عدد المسلمين فيها (١٥٠) مليون مسلم لم تصل إليها الفتوحات الإسلامية ، بل أسلم أهلها عن طريق وصول التجار المسلمين إليها ، وكذلك بلدان مناطق أخرى كبلدان السواحل الشرقية لأفريقيا وشمال الصين وما كان يسمى بالأمس جمهوريات الاتحاد السوفيتي وغيرها من المناطق والبلدان.

كما أنّ الاسلام عقيدة وتشريعا قائم على أساس مبدأ عدم الإكراه. فكل أمر يقوم على الإكراه أمر باطل في الإسلام.

فالإنسان في الإسلام لا يحاسب على أمر هو مسيّر فيه لا مخيّر فلا يحاسب ولا يسال مثلًا : لِمَ كان أنثى ولم يكن ذكرًا؟ ولِمَ ولد في هذا البلد ولم يولد في غيره؟ وأولاد الزنا لا يسألون يوم القيامة لِمَ ولدوا من أمٍّ زانية؟ فلا يحاسب الإنسان على مثل هذه الأمور ؛ لأنه مكره عليها ، ولكن يحاسب على ما هو مخيّر فيه عن صلاته: لِمَ لم يصل؟ وعن صيامه لِمَ لم يصم؟ وعن اخلاقه لم كانت سيئة ولم تكن حسنة؟ لانه غير مكره على ترك الصلاة والصيام وغير مكره على القيام بالخلق السيء.

وفي الإسلام إذا شرب العبد الخمر حوسب وعدَّ آثما ، وإذا أُكره على شربها لا يحاسب ولا يعدُّ آثما ، وإذا صلى العبد أُجر على أدائه هذه الفريضة ، أمّا إذا أدّاها عن طريق الإكراه لا يؤجر عليها ، فكل أمر مكره عليه العبد حكمه باطل في الإسلام.

بل عدّ شرع الله من اعتنق الإسلام عن طريق الإكراه منافقًا ، والمنافق في نظر الشرع أشد خطرًا على الإسلام من الكافر ؛ ولهذا فإنّ الإسلام جعل من مبادئه الأساسية في الدعوة عدم إكراه الناس على اعتناق دين الله.

بل الرسول ﷺ والرعيل الأول من المسلمين لم يكرهوا عبدة الأصنام على اعتناق الاسلام سوى أنّهم دعوهم إلى ترك هذه العبادة المتمثلة في السجود والركوع للأحجار والاعتقاد بأنّها تضر أو تنفع ، ومع أنّ الله سبحانه أوجب على مشركي مكة دون غيرهم إسلامهم ، فإنّ الرسول صلى عليه وسلّم ، اتبع لتركهم عبادة الأصنام طريق الدعوة لا طريق الإكراه ، والأمثلة من السيرة والسنة النبوية كثيرة منها.

أنّ رسول الله ﷺ لما ذهب إلى الطائف ليدعو أهلها إلى الإسلام قابله صبيانها بضربه بالحجارة حتى أدموا قدميه ، فنزل عليه جبريل عليه السلام ومعه ملك الجبال وأخبره أنّ الله يقرئه السلام إن شاء الله أن يطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلان بمكة، إلّا أنّ الرسول ﷺ لم يدع عليهم لإهلاكهم على الرغم من أنّهم مشركون ولقي منهم الأذية بل دعا الله أن يخرج من أصلابهم من يقول لا إله إلّا الله.

وفي إحدى غزواته كان رسول الله ﷺ نائمًا تحت شجرة بعيدًا عن اصحابه ، فرآه رجل من المشركين فنوى في نفسه شرًّا ، فجاء إليه وجعل السيف فوق رقبة رسول الله ﷺ عازمًا قتله ، فقال له : يا محمد من يمنعك الآن مني؟ فقال ﷺ الله ، فوقع السيف من يده وتسلّمه رسول الله ﷺ فقال له : ومن يمنعك مني ؟ فقال الرجل المشرك : كن خير آخذ ، فعفا عنه ، ثمّ

عرض رسول الله ﷺ الإسلام عليه فأبى ، ومع ذلك لم يكرهه على الإسلام ، ولم يقتله ، بل عفا عنه .

وفي كتب السيرة ، وتراجم الصحابة أنَّ ثُمامة بن أُثال بن النعمان جاء من اليمن إلى المدينة متوشحًا بسيفه ، فلما رآه عمر ارتاب به ، وقال له : ماذا تريد؟ فقال : أريد قتل محمد ، فأخذ عمر السيف منه ، وربط الرجل في سارية من سواري المسجد ، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ يخبره بقصة الرجل، فجاء إليه فقال له الرسول ﷺ: قل: لا إله إلّا الله ، محمد رسول الله ، فقال الرجل المشرك : لا أقولها ، فأعادها عليه. قل : أشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله ، فقال في الثانية: لا أقولها ، ثم التفت الرسول ﷺ إلى أصحابه وقال : هل أعددتم له طعامًا؟ وعمر ﷺ لم يكن يتوقع أن يسمع من الرسول ﷺ ذلك ، بل كان قد اشتدّ غضبه على الرجل المشرك ، وكان ينتظر أن يأمره الرسول بقتله فيقتله ، فقال عمر: أيّ طعام نعدّه لهذا الذي جاء لقتلك يا رسول الله؟ ثم أمر الرسول ﷺ أحد الصحابة أن يأتي له بطعام من بيته ، فلما فرغ من أكله ، قال ﷺ فكّوا وثاقه وأطلقوا سراحه.

فلم يمش إلّا عدة خطوات حتى عاد إلى الرسول ﷺ فقال: يا محمد أشهد أن لا اله إلّا الله وأشهد أنّك رسول الله ، فقال له رسول الله ﷺ : لِمَ لم تقلها قبل قليل؟ فقال: لم أقلها ، وأنا موثق اليدين ؛ لئلّا يقال عني أنّي أسلمت مكرهًا خوفًا منك ومن أصحابك ، أمّا الآن وقد أطلقتَ سراحي فإنّي أعلنتُ إسلامي ليعلم الناس أني اسلمت من غير إكراه ، وأنّي أسلمتُ ابتغاء مرضاة الله ، ثم قال: لقد جئت إلى المدينة وليس أحد أبغض عندي من محمد ، وخرجتُ منها وليس عندي أحبَّ إليّ من محمد ﷺ.

الدرس السادس عشر

حكمة النسخ في القرآن

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى ال ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين إنّك حميد مجيد.

ذكر قريب لي أنّ الله لم يحرم الخمر ؛ إذ لم توجد آية فيها لفظ حرمت عليكم الخمر ، كما في قوله تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ){المائدة: ٣}

وهذا كلام صادر من إنسان يجمع بين استحواذ الشيطان على قلبه وبين جهلة المطبق بالتعبير القرآني ، فالقرآن الكريم بليغ في أسلوبه ، فهو إن كان لم يعبّر عن تحريم الخمر بلفظ (التحريم) فقد عبّر عنه بلفظ (الاجتناب) والاجتناب أوسع من التحريم ، فالله سبحانه ما أراد أن يحرم الخمر فحسب ، بل أراد أن يحرم كل سبيل يؤدي إليها ، فلو قال: حرمت عليكم الخمر، لكان المحرم منها شربها فحسب ، ولحل ما عدا ذلك كشرائها وبيعها والتجارة بها والعمل في صناعتها ونحوه ، ولكن لما أراد تحريم ذلك كله قال سبحانه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ){المائدة: ٩٠}

وكذلك لم يقل سبحانه عن الزنا : حرم عليكم الزنا، فلو حرمه بهذا التعبير لكان المحرم هو الزنا فقط الذي يعني دخول الفرج في الفرج الذي يأتي منه الحمل والولد ، ولحلّ أيضًا ما عدا ذلك كالاختلاط بالنساء الأجنبيات ومعاشرتهنّ ومغازلتهنّ وتقبيلهنّ ومداعبتهنّ والعوم معهنّ عاريات. وما إلى ذلك مما هو ليس بجماع.

لكن لما أراد الله سبحانه تحريم ذلك كله ، قال جل شأنه : (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى){الإسراء: ٣٢} ليدخل في التحريم الزنا وكل طريق وسبب يدفع إلى الانزلاق فيه ، أمّا الميتة والدم ولحم الخنزير فإنّ الله سبحانه لو عبّر عن تحريمها كما عبّر عن تحريم الخمر والزنا لوقع الناس في حرج كبير ولحرموا من منافع كثيرة ، لأنّه بتعبير الاجتناب وعدم الاقتراب لا يحرم أكل الميتة فحسب بل يحرم كذلك الاستفادة من شعر الميتة ، وصوفها وجلدها ، وكذلك يحرم حمل الدم وبيعه وشراؤه ونقله من إنسان إلى إنسان للعلاج وإنقاذ الأنفس من الموت ، فليس في إباحة هذه الأمور ضرر، فلمّا أراد الله سبحانه عدم تحريم هذا كله قال جل شانه (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ){المائدة: ٣} ولو قال: فاجتنبوها ، أو لا تقربوها لحرم الاقتراب من الميتة ولحرم حتى إزاحتها عن طريق الناس.

وقد قرأت في كتيب لمؤلف هندي نصراني يدعو إلى تنصير المسلمين ويطعن فيه بالقرآن لوجود النسخ فيه بأنّه كيف يجوز أن تنسخ آية آية أخرى ، ولقد تبيّن لي من خلال كلامه أنه رجل جاهل بمبادئ الشرائع السماوية عامة فضلًا عن جهله المطبق بالشريعة الإسلامية وعلوم القرآن.

والنسخ في الاصطلاح: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي آخر متأخر، ويسمى الحكم الرافع (الناسخ) والحكم المرفوع (المنسوخ) ويسمى الرفع (النسخ)

وقد ألّف الأستاذ الدكتور مصطفى الزلمي كتابًا بعنوان : التبيان لرفع غموض النسخ في القرآن ، أكّد فيه أنّه لا يوجد في القرآن ناسخ ولا منسوخ ، وإنّما يوجد فيه التدرج في التشريع ، فأحكام الشرع الإسلامي لم تنزل من الله جملة واحدة ، بل جاءت متفرقة وروعي فيها قابلية النفوس لتلقي الأحكام والسير عليها ، ولو أنّ الله سبحانه ألزمها القيام بكل تلك الأحكام دفعة واحدة لثقل عليها الأمر، بل كان من المتعذر انقيادها وإصلاحها، وأنّه لمن أشق الأمور على المرء أن يتخلى عن جميع معتقداته وعاداته وميوله بين عشية

وضحاها ، ويستبدل بها معتقدات وعادات وميولًا جديدة ؛ لذلك اقتضت حكمة الله مراعاة التدرج في نزول الأحكام.

فالصلاة مثلًا كان أول ما شُرِّع منها ركعتان بالغداة ، وركعتان بالعشي ؛ لأنّ النفوس التي لم تتذوق حلاوة الإيمان بعد ، يثقل عليها أن تُكلَّف مباشرة بالقيام بخمس صلوات في كل يوم ، فاقتضت الحكمة التسهيل لأدائها بركعات قليلة في أول النهار وآخره ، فلمّا طابت نفوسهم بذلك ، وتغلغل الإيمان في قلوبهم ، وأخذوا يستشعرون اللذة الروحية في الوقوف بين يدي الله ومناجاته أصبحت نفوسهم مهيَّاة لأن تتقبل زيادتها ، عند ذاك فرض الله الصلوات خمس مرات في اليوم ؛ لتصبح بهذا العدد الركن الثاني من أركان الإسلام.

وقد كان شرب الخمر عند العرب قبل الإسلام عادة متأصّلة وشائعة قد تمكّنت من النفوس وهيمنت على المشاعر ، وكان من الصعب إقناع المدمنين على شربها بالإقلاع عنها لذلك اتبع القرآن أسلوب الحكمة في تدرّج تحريمها.

فبدأ القرآن بالإشارة إليها في قوله تعالى : (وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ){النحل: ٦٧}.

ففي هذه الآية أشار القرآن إلى العنب بأنّه يُصنع منه شيءٌ يسكر هو الخمر، وهذا تلميح أول على أنّ السكر لا يليق بالمؤمن التقي فربّما انتبه إليها نفر من المسلمين فآثروا العزوف عنها.

ثم جاءت آية أخرى أكثر منها تصريحًا بضرر الخمر ، فقال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) {البقرة:٢١٩}.

فهذه إشارة أخرى إلى بيان ضرر الخمر قبل إعلان تحريمها ، فلعلها تكون تنبيها لنفر آخر من المسلمين لحثهم على اجتنابها ، ثم جاءت الآية الثالثة، فقد كان بعض المسلمين يصلي إمامًا وهو سكران فيخطئ في القراءة فنزل قوله تعال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعلموا ما تَقُولُونَ) {النساء:٤٣}.

ولما كانت الصلوات خمس مرات في اليوم ، تبدأ من طلوع الفجر وتنتهي إلى صلاة العشاء ، وجد المسلم نفسه أنّه ملزم بعدم شرب الخمر أو الإقلال منها كثيرًا في النهار لئلّا يأتي وقت الصلاة ، وهو ما يزال سكران، لذلك اقتصر على شربها بعد العشاء ليلًا.

وقد ظل الكثير من الصحابة بعد نزول هذه الآيات في المواضع الثلاثة يتحدثون عن الخمر، فمنهم من هجرها ، ومنهم من تحرّج في الاستمرار على شربها ، ومنهم من راح يترقب عاقبة أمرها ويتوقع أن تنزل آية صريحة بتحريمها ، فأصبح المسلمون في حرج وحيرة حتى أخذ عمر بن الخطاب ﷺ يدعو الله بقوله : اللهم أنزل فيها بيانًا شافيًا.

فهذا الوضع النفسي مهّد السبيل وجعل القلوب المؤمنة مستعدة لأن تتقبل أيّ حكم رباني يصدر بشأن الخمر باطمئنان ورضا ورحابة صدر ، عند ذلك نزل قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {٩٠} إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ){المائدة:٩٠-٩١}.

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال : إنّي لقائم أسقي (الخمر) أبا طلحة ، وأبا أيوب ، ورجالًا من أصحاب النبي ﷺ في بيتنا ، إذ جاء رجل فقال : هل بلغكم الخبر؟ فقلنا : ما هو؟ فقال: إنّ الخمر قد حرمت، فقال: طلحة يا أنس أرِقْ (واسكب) هذه القلال (والجرات المملوءة بالخمر فسكبوها جميعًا) قال فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل.

فقد أخذ بهم كما ترى إلى تحريم الخمر درجة بعد درجة ، ولو أنّه فاجأهم في أول الاسلام بتحريمها وهم قد عكفوا عليها وأُدمنوا شربها، واتخذوها شعيرة من شعائر الكرم والفخر والفتوة والأريحية لصعب عليهم ذلك كثيرًا ، ولاحتمل ارتداد نفر منهم أو عدم امتثالهم لأمر التحريم.

وأضرار الخمر الكبيرة لا تخفى على أحد، ففي بداية عام ١٩٩٠م قالت صحيفة رسمية في الصين أنّ المسؤولين الصينيين رُوِّعوا بالمشاكل الاجتماعية التي يسببها شرب الخمر كحوادث القتل والطلاق.

"وقد كشفت دراسة عالمية صدرت في أمريكا على أنّ شرب الخمر كان وراء أغلب حالات الاعتداء الجنسي على أطفال الأسرة والمحارم مثل الأخوات والبنات ، كما أنّها مسؤولة عن ٨٥% من حوادث القتل.

وقد بدأت السلطات في منغوليا الداخلية تتحدث عن احتمال إصدار قوانين تحريم الخمور" وهذا ما تتمناه كل الحكومات الغربية والأوربية لو استطاعت قوانينها أن تصرف شعوبها عن شرب الخمر إلّا أنّ قوانينهم لا تملك القوة التي يملكها الإسلام في التأثير في النفوس وإصلاحها ، فأين نظام البشر من شرع الله؟!.

"ففي بداية القرن العشرين أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تخلص شعبها من مضار الخمر ، وتجرب ما جاء به القانون الإسلامي فشَّرعت في سنة ١٩٣٠م قانون تحريم الخمر الذي حرَّم على الناس بيع الخمور أو شراءها أو صنعها أو تصديرها أو استيرادها، وقد مهّدت الحكومة لهذا القانون بدعاية واسعة عن طريق السينما والتمثيل والإذاعة ونشر الكتب والرسائل ، وكلها تبين مضار الخمر مدعومة بالإحصائيات الدقيقة والبحوث العلمية الطبية.

وقد قُدّر ما أُنفق على هذه الدعاية (٦٥) مليون دولار ، وسُوِّدت تسعة آلاف مليون صفحة في بيان مضار الخمر والزجر عنها.

وبلغت الغرامات التي فرضت على المخالفين (١٦) مليون دولار وصودرت ممتلكاتهم ما يبلغ (٤٠٠) مليون دولار، وأُعدم من أجل تنفيذ هذا القانون (٣٠٠) نسمة وسجن ٥٣٢.٣٣٥ أمريكيًّا ، ولكن مع ذلك لم تزدد الأمّة الأمريكية إلّا غرامًا بشرب الخمر وعنادًا وإصرارًا في تعاطيها وكان آخر المطاف أن اضطرت الحكومة الأمريكية إلى إلغاء قانون التحريم في تشرين الثاني سنة ١٩٣٣م ولم تنفعها تلك الأموال الطائلة والتضحيات الجسيمة لحمل الناس على ترك الخمر الذي ثبتت عندها أضرارها"[١].

فما أعظم هذا الدين وما أعظم أثره في النفوس ، فقد كان قبل تحريم الخمر نفر من الصحابة في مجلس وكؤوس الخمر بين أيديهم، فلما رنَّت في آذانهم آية التحريم التي انتهت بقوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ) {المائدة: ٩١} كسروا من فورهم كؤوس الخمر جميعًا ، وقالوا بصوت واحد انتهينا يا ربّ انتهينا.

فقد أراقوا خمورهم بأيديهم لا بيد شرطي أو جندي أو رقيب.

(١) التشريع الرباني والقانون الوضعي للأستاذ أبي الأعلى المودودي وينظر: المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان، ص٤٢-٤٣.

الدرس السابع عشر

الرقيق في الإسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

والرق هو استعباد الناس ، والرقيق هم العبيد عند أسيادهم

تفخر أمريكا اليوم على العالم ؛ لأنّ رئيسها أبراهام لنكن الذي تولّى رئاسة الولايات المتحدة عام ١٨٦٠م يعدّ اول رئيس في العالم وفي تاريخ البشرية أعلن إلغاء الرق .

وكذلك تفخر أوربا بنفسها ؛ لأنّها أصدرت مثل هذا الإعلان في القرون الأخيرة ، ويعززون هذا الفخر بأنّ الإسلام لم يفعل مثل ما فعلوا ؛ إذ لم يحرم الرق كما حرموه.

نقول في البدء أنّ الإسلام لم يوجد الرق ولم يشرعه ؛ لأنّه جاء والرق منتشر بين الناس وعند الأمم كلها ، ولم يوجد في القرآن نصٌّ يبيح الرقّ وإنّما جاء فيه وفي السنة النبوية الدعوة إلى تحرير العبيد ، واتخذ وسائل شتى لإنقاذ العبيد من العبودية ، من هذه الوسائل ما يأتي:

جعل الإسلام عتق السيد عبده طريقًا إلى رحمة الله وجنته، قال تعالى : (فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ {١١} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ {١٢} فَكُّ رَقَبَةٍ {١٣} أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ){البلد: ١١- ١٣}

و(فك رقبة) تحرير عبد من سيده في سبيل الله.

جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنة ، فقال: عتق النسمة وفك الرقبة، فقال يا رسول الله ، أو ليسا واحدًا؟ أي : أليس عتق النسمة وفك الرقبة معناهما واحدًا، فقال: لا، عتق النسمة ، أن تتفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تساعد في ثمنها.

وجعل الإسلام كفارة الحنث في اليمين، أي : يحلف الله على فعل شيء ولم يفعله، جعل الإسلام كفارة ذلك أمورًا من بينها عتق الرقبة ، فقال تعالى : (لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ)[المائدة: ٨٩].

وكذلك جعل الإسلام الظهار وهو أن يقول الرجل لزوجته : أنت علي كظهر أمّي أنّه جعل كفارة ذلك لتحل له زوجته عتق رقبة ، فقال الله تعالى : (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[المجادلة: ٣](وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)[النساء : ٩٢]

وقد جعل القرآن الكريم كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة. قال الله تعالى: .(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَئًا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاّ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مْؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةً فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا)[النساء : ٩٢]

وجعل من نذر أن يحرر رقبة وجب عليه الوفاء بنذره.

فهذه الذنوب التي كثيرًا ما يقع فيها الناس حين جعل الإسلام كفارتها عتق العبيد أدّى ذلك إلى تحرير عدد كبير منهم.

فالإسلام بهذه التشريع ضيّق من مصادر الرق ، وفتح للرقيق أبواب التحرير.

بل نستطيع ان نقول في هذا الصدد أنّ أمريكا وأوربا ألغتا الرق في مجال الدستور ، ولكن لم تلغياه في مجال الواقع والتطبيق في حين أنّ الإسلام ، وإن لم يلغ الرقّ في مجال الدستور، إلّا أنّه ألغاه في ميدان العمل والمعاملة ، وهذا هو المهم ، وقد شرع الإسلام في هذا الميدان مبدأين:

أولهما : مبدأ المكاتبة : شرع الإسلام مبدأ المكاتبة وهو منح الحرية للعبد متى ما طلبها بنفسه مقابل مبلغ من المال ، وهذا الأمر ثابت في نصّ القرآن قال تعالى : (وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ){النور ٣٣}

وعتق العبيد هنا ، أي تحريرهم أمر إجباري لا يملك السيد رفضه ولا تأجيله بعد أداء المبلغ المتفق عليه ، وإلّا تدخلت الدولة الإسلامية ، القاضي أو الحاكم لتنفيذ عتق العبد بالقوة.

وبتقرير مبدأ المكاتبة يكون الإسلام قد فتح في الواقع باب تحرير العبد متى ما رغب العبد في ذلك ، ولم ينتظر من سيده ليمنَّ عليه بتحريره ، والدولة تساعده بتسديد هذا المبلغ كلّه أو شيء عن أدائه ، قال الله تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ){التوبة : ٦٠} وفي الرقاب: هم العبيد.

بل الإسلام بتقرير هذا المبدأ قد ألغى الرق في الحقيقة والواقع والتطبيق ، أو بتعبير أدق أنّه قد ألغى الرق من قبل الدولة ومن قبل السيد، وبقي إلغاء الرق منوطًا فقط بالعبد نفسه.

والمبدأ الثاني: أنّ العبودية قبل الإسلام كانت قائمة على أنّ السيد أعلى من عبده درجة ، وأنّ للسيد الحقوق كلّها على عبده ، وأنّ العبد لا

يملك أيّ حق كان على سيده ، فكان السادة يعاملون العبيد كما تعامل البهائم أو أدنى ، فلمّا جاء الإسلام ألغى هذه الفروقات بينهما وساوى بينهما في الإنسانية وفي الحقوق جميعًا، فلمّا رأى السادة أنّ العبيد في ظل الإسلام ارتقوا إلى مستواهم ، وأنّهم لا يتميزون منهم بشيء وجدوا أنفسهم أنّهم لا حاجة لهم بعد ذلك في استرقاق العبيد فتركوا الرق طوعًا.

وقد انتبه على هذه الحقيقة مستشرق غير مسلم من قساوسة الغرب لا يؤمن بالإسلام ، وهو المستشرق مونتكمري واط في كتابه الذي اطلعت عليه : محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، فقد ذكر ص٤٥٠-٤٥١ من هذا الكتاب أنّ دعوة القرآن والرسول إلى أخوة العبيد والسادة جعلت السادة يتركون الرق ؛ لأنّهم لم يعدوا أنفسهم متميزين منهم ، وهذا أدى إلى أن يفقد المسلم السيد الرغبة في استرقاق أخيه ، فتركوا الرق بعد أن شعروا أنّ عبيدهم قد صاروا مثلهم في ظل الإسلام.

فالإسلام ألغى الرق في الواقع ، فقد اتبع الإسلام في هذه القضية وفي كل قضية الأسلوب الحكيم في تحرير العبيد ، وهو الأسلوب الذي تفتقده أنظمة الدنيا كلها قديمها وحديثها.

فقد ألغى الغرب الرق في مجال الدستور في حين بقي العبيد عندهم مكبلين بأغلال العبودية في الواقع نفسيًّا وماليًّا ، والدليل على ذلك أنّ الرئيس الأمريكي حين أصدر قرارًا منعَ بموجبه الرق ، وأمر السادة بتسريح عبيدهم ضاعوا وتاهوا وجاعوا حتى عاد كثير منهم بعد أسابيع وأشهر إلى سادتهم يرجون منهم أن يعيدوهم عبيدًا عندهم كما كانوا ؛ لأنهم وجدوا أنفسهم لا يحسنون غير عمل العبودية.

فقد كان إلغاء الرق عندهم من الظاهر ومن أجل الإعلام ، وإلّا فأين هو الرق الذي أُلغى،؟! فما اسم ما كانت تصنعه فرنسا في المغرب العربي.؟

وما اسم ما كانت تصنعه أمريكا في الزنوج وانكلترا في الملونين في جنوب افريقيا. ؟

أليس الرق في حقيقته هو تبعية قوم لقوم آخرين وحرمان طائفة من البشر الحقوق المتاحة للآخرين. ؟

تزعم أوربا أنّها أعلنت إلغاء الرق في بلادها ، وهي لا تملك ولم تطبق من مبادئ المساواة بين السادة والعبيد غير هذه الإعلان.

وأوربا لم تلغ حين ألغته متطوعة ، وكتَّابهم يعترفون بأنّ الرقّ ألغي حين ضعف إنتاج الرقيق لسوء أحوالهم المعيشية ، وفقدان الرغبة والقدرة على العمل حيث أصبحت تكاليف العبد من إعالة وحراسة أكثر من إنتاجه، فهي إذن حسبة اقتصادية لا غير، يحسب فيها الكسب والخسارة ، ولا ظل فيها لأي معنى من معاني الإنسانية التي تشعر بكرامة الجنس البشري فتمنح الرقيق حريتها من أجلها.

كما أنّ أوربا اضطرت إلى إلغاء الرقيق نتيجة الثورات المتتابعة التي قام بها الرقيق فاستحالت معها دوام استرقاقهم.

وأين إلغاء الرق الذي تدعيه أمريكا فماذا يسمى التمييز العنصري الذي تمارسه ضد الزنوج ، إنّه حين مشى رجل أسود بجانب فتاة بيضاء بإذنها ورضاها لا كرها منها ثارت حفيظة البيض ، لا لأنّ واحدة منهم قد دنّس عرضها ، فتدنيس الأعرض عندهم شيء مباح ، ولكن لأنّ واحدًا من السود استطاع أن يصادقها فثاروا بغضب وطرحوه أرضًا وما زالوا يضربونه بأحذيتهم حتى فاضت روحه.

كل هذا حدث ورجل البوليس ينظر ويشاهد بعينه هذا القتل البشع ، وهو واقف لا يتحرك ولا يتدخل ولا يهم لنجدة أخيه في الوطن واللغة والدين فضلًا عن الأخوة البشرية.

كل هذا لأنّه أسود فأين الحرية وأين المساواة وإلغاء الرق التي يدعون بها؟

الغوا الرق في الاسم لكن لم يلغوه في الواقع، فها هي أمريكا في القرن العشرين الذي أعلن رئيسها أبراهام لنكن إلغاء الرق قبل أكثر من قرن ونصف، ها هم الأمريكان اليوم في مدنهم يضعون على فنادقهم لافتات مكتوب عليها (للبيض فقط) وعلى لافتات أخرى (ممنوع دخول الكلاب والسود).

وتتجاوز التفرقة إلى تكاليف التعليم فالأسود تنفق عليه الحكومة الأمريكية ٥٨ دولارا في السنة في حين تنفق على الأبيض ١٠٤٧ دولارا في السنة.

وقد أصدرت أمريكا التشريعات التي تدعو إلى إلغاء التفرقة فلم تستطع إلغاءها كما حدث في نوفمبر عام ١٩٥٧م في ولاية أركياس، إذ حكمت المحكمة الأمريكية بالغاء التفرقة العنصرية ودخول أولاد الزنوج مدارس البيض، فتحدى حاكم الولاية هذا الحكم ودعا رجال الحزب الوطني في ولايته ليمنعوا بالقوة تنفيذ هذا الحكم.

ومما روته أنباء العالم في أكتوبر عام ١٩٥٧م أنَّ وزير مالية غانة لكونه أسود طرد من أحد المطاعم في مدينة دوفر بالولايات المتحدة الأمريكية لأنَّه غير مسموح للملونين (أي السود) بتناول الطعام في هذا المطعم.

ولم تزل ونحن في القرن العشرين نجد بعض الولايات الأمريكية تنصّ دساتيرها على أحكام غريبة لا يستسيغها الضمير الإنساني ولا يقرّها عقل سليم، فمن ذلك النص أنّ الزواج بين شخص أبيض وامرأة سوداء يعد زواجا باطلا والنص على أنّ كل من يطبع أو ينشر أو يوزع ما فيه حث للجمهور على إقرار المساواة الاجتماعية والزواج بين أبيض وأسود أو تقديم حجج

للجمهور أو مجرد اقتراح في هذا السبيل يعد عمله جريمة يعاقب عليها القانون بغرامة ٥٠٠ دولارا أو بسجن لا يتجاوز أشهر أو بالعقوبتين معا.

وتاكيدًا لما ذكر عن التمييز العنصري ، فقد سمعت بأُذنيَّ من إذاعة أمريكا ، ليلة ٢٠٠٠/٦/٢٧م في برنامج (صور من الحياة في أمريكا) تحدث فيها المذيع عن قصة حياة رجل أسود تقاعد عن منصبه بعد أن خدم أمريكا نصف قرن ، اسمه سيركد مارشال بأنّه في بداية هذا القرن ، القرن العشرين أراد الالتحاق بكلية القانون في جامعة مارلن ، فرفضته الجامعة مع كونه طالبًا يتمتع بدرجات عالية ومن المتفوقين ، رفضته لا لشيء إلّا لكونه رجلًا أسود فاضطر أن يلتحق بجامعة أخرى خاصة بالكلاب السود ، فتخرج فيها محاميًا وقاضيًا بارعًا ، ووسع من عمله في مجال اختصاصه حتى إنّ الكثير من أفكاره أخذ بها القانون الأمريكي ، وأصبح أستاذًا مشهورًا مما اضطرت أن تقبله جامعة مارلن أستاذًا يُدرِّس فيها ، وهي الجامعة التي رفضته من قبل أن يكون طالبًا فيها.

ثم عينه الرئيس الأمريكي عام ١٩٧٦م قاضيًا في المحكمة العليا ، ويُعدّ أول رجل أسود يُعيّن في هذا المنصب حتى تقاعد عام ١٩٩١م.

وسمعت من المذيع يعرض أفكار هذا القاضي الأسود أنّه من الأفكار التي دافع عنها دعوته إلى إلغاء التفرقة العنصرية بين السود والبيض ، وأنّه لا ينبغي أن يُمنع من التحاق المواطن الأمريكي أيّة مدرسة أو جامعة كانت لكونه أسود.

وكان يدعو أيضًا إلى إلغاء التفرقة في الاهتمام بتعليم البيض دون الاهتمام بتعليم السود وكان يقول : إنّ هذه التفرقة مخالفة للقانون الأمريكي ويبدو أنّه قصد القانون الذي أصدره أبراهام لنكن حيث ترأس أمريكا عام ١٨٦٠م.

فهذه نماذج من التفرقة العنصرية التي لم تزل تمارسها جماعات أو ربّما ولايات في المجتمع الأمريكي والأوربي، فأين هي من المعاملة التي تمتع بها العبيد السود في ظل الإسلام، فقد روى علي ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال : اتقوا الله فيما ملكتْ أنفسكم ، والمعنى احذروا الله في معاملة الأرقاء الذين تملكونهم وفي الأثر عنه ﷺ قال : لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننتُ أنّ الناس لا تُستعبَد ولا تُستخدَم ، وقد رأى أبو هريرة ﷺ رجلًا على دابته وغلامه (عبده) يجري خلفه ، فقال له : احمله خلفك يا عبدالله فإنّما هو أخوك وروحه مثل روحك ، وروي عن رسول الله ﷺ أنّه قال : اضرب عبدك إذا عصى الله ، واعف عنه إذا عصاك ، وقد وصى رسول الله ﷺ بالرقيق قبيل وفاته بقوله : اتقوا الله فيما ملكتْ أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإنّ الله ملككم إيّاهم ، ولو شاء لملكهم إيّاكم

يضاف إلى ذلك أنّه في ظل الإسلام طبقت المساواة بينهم وبين السادة بصفة عملية من ذلك أنّ رسول الله ﷺ آخى بين بلال بن رباح الحبشي وخالد بن رويحة الخثعمي ، وآخى بين مولاه زيد وعمّه حمزة بن عبد المطلب ، وبين المولى خارجة بن زيد وأبي بكر ﷺ جميعًا ، وكانت هذه المؤاخاة صلة حقيقية تعدل رابطة الدم وتصل إلى حد الاشتراك في الميراث.

ولم يكتف الإسلام بهذا الحدّ فقد زوّج الرسول ﷺ السيدة القرشية زينب بنت عمه من مولاه زيد ، وكان زيد عبدًا اشترته خديجة ثم أهدته لرسول الله ﷺ والزواج قضية مهمة جدًّا من جانب المرأة ، فهي ترغب في أن تتزوج من يفضلها مقامًا ، ولكن تأبى ان يكون زوجها دونها في الحسب والنسب والثروة ، وتشعر أنّ مثل هذا الزواج يحطّ من شأنها ، ولكن رسول الله ﷺ كان يرمي من وراء ذلك رفع الرقيق إلى أعلى مراتب السادة ، وبلغ الأمر إلى أن يقول

رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري "اسمعوا وأطيعوا ولو استعمل عليكم عبد حبشي ، كأنّ رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى.

فأعطى الإسلام الموالى (العبيد من قبل) الحق في تولّي أعلى مناصب الدولة، وهي خلافة المسلمين ، وقد قال عمر ﷺ وهو يستخلف: لو كان سالم العبد مولى حذيفة حيًّا لوليته ، فيسير على المبدأ نفسه الذي سار عليه رسول الله ﷺ بل مثل هذا ما وقع في عهد رسول الله ﷺ فقد ولّى رسول الله ﷺ مولاه زيد بن حارثة قيادة جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل يضم خيرة الصحابة من سادات قريش لمقاتلة الروم في غزوة سميت بغزوة مؤتة ، وأمر عليه الصلاة والسلام أنّه إذا قتل زيد يتولّى القيادة من بعده جعفر بن أبي طالب ، واذا قتل جعفر يتولَّى القيادة من بعده عبد الله بن رواحة ، وقد استشهد الثلاثة في هذه الغزوة.

فقد جعل لرسول الله ﷺ ابن عمه جعقر بن أبي طالب تحت إمرة عبده ومولاه زيد بن حارثة.

وبعد استشهاد زيد ﷺ جهز رسول الله حملة أخرى لمقاتلة الروم في بلاد الشام ، جعل هذه الحملة بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ، وقد كان شابًّا، بيد أنّ مرض الرسول ﷺ ووفاته حالت دون إرسال هذه الحملة في حياته ﷺ فلما تمت البيعة لأبي بكر الصديق ﷺ كان أول عمل قام به بتنفيذه غداة بيعته هو إنقاذ بعثة أسامة ، وقد ضمّ جيش أسامة عددًا كبيرًا من الصحابة من أهل المدينة ، وقد شكا نفر من الصحابة من تأمير أُسامة بن زيد على الجيش ، وفيه عدد من كبار الصحابة في حين أنّ أسامة كان شابّا من جهة وابن عبد ومولى من جهة أخرى ، وطلب هذا النفر من عمر ﷺ أن يكلم أبا بكر الصديق بشأن تبديله ، فلما فعل ذلك عمر ردّ عليه أبو بكر بغضب شديد قائلًا : ثكلتك أُمُّك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله

رسول الله ﷺ (وعينه قائدًا) وتأمرني أن أنزعه ؟!، وقد كان عمر ﷺ جنديًّا من جنود أسامة في هذا الجيش.

وانطلق جيش أسامة من المدينة في آخر شهر ربيع الآول سنة ١١ هجرية وخرج أبو بكر الصديق ﷺ في توديعه ، وهنا يحصل في ظل هذا الدين أعظم معجزة ؛ إذ يجيء أبو بكر الصديق الخليفة والسيد القرشي وصاحب رسول الله ﷺ في الهجرة ، والغار إلى ولي رسول الله ﷺ وعبده من قبل أن يلتمس منه ؛ ليأذن له أن يتخلف عن هذه الغزوة عمر بن الخطاب ﷺ سيد قريش في الجاهلية والإسلام ؛ لحاجته الماسّة إليه في إدارة الدولة فأذن له بذلك.

لم يحظ العبيد بمثل هذه المعاملة ، ولم يحلموا بها في ظل أيّ نظام آخر منذ أن وجد الرقيق في الدنيا .

فقد عاش العبيد في ظل الإسلام عيشة السادة الأعزاء ، وكم من سيد يعيش اليوم في ظل غيره عيشة العبيد الأذلاء. ؟

وقد كان الصحابي أبو ذر الغفاري ﷺ سيِّدًا وصحابيًّا جليلا اختلف مع بلال في حضرة الرسول ﷺ فقال له أبو ذر: يا ابن السوداء ، فعيَّره بأصله بأنّه عبد ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : طُفّ الصاع طُفَّ الصاع (أي: تجاوز الأمر الحد وبلغت العصبية أقصاها) وصاح في وجه أبي ذر: إنّك امرؤ فيك جاهلية ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلّا بالتقوى ، فيشعر أبو ذر بالذنب ويندم لما زلَّ به لسانه ، وسرعان ما ينام على وجه الأرض ويضع خدّه على رمالها ، ويطلب من بلال أن يطأ خدَّه بنعاله ليكفّر عن ذنبه.

فهذه مبادئنا وأنى لأمريكا وأوربا مثل هذه المبادئ ؟ ! .

ومما يثار في هذا الموضوع قضية الجواري في الإسلام .

الدرس الثامن عشر

الجواري في الإسلام

قال الله تعالى : (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُواْ فِي الْيَتَامَى فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلاَّ تَعُولُواْ){النساء : ٣}

فيما يتعلق بقوله تعالى (أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ) فان استرقاق الجواري كان مباحًا ومشروعًا وشائعًا قبل الاسلام ، وقد ذكرته الكتب السماوية، فهاجر جارية تزوجها إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) وقد كان من نسلها إسماعيل عليه السلام ومن نسل إسماعيل محمد (ﷺ).

واسترقاق النساء وجعلهن جواري انتشر قديمًا لثلاثة أسباب:

الاول : الحروب ، فكانت إذا قامت حرب بين دولتين ، فإن الدولة الغالبة المنتصرة تقتل رجال الدولة المغلوبة وشبابها ويبقى النساء والبنات فتجلبهنّ إلى بلادها أسيرات ، تبيعهن لمن يرغب في شرائهنّ.

والثاني: الفقر، فقد كانت شدة الفقر تدفع أحيانًا بعض الآباء إلى بيع بناتهم

والثالث : الاختطاف، فكان ثمة لصوص يخرجون إلى القوافل التجارية في الطرق البعيدة ، أو يصعدون إلى السفن العائمة وسط البحار فيخطفون ما شاؤوا من النساء والبنات ويبيعوهنّ في المدن في أسواق بيع العبيد، وحين جاء الإسلام حرم استرقاق النساء والبنات اللواتي يُؤتى بهنَّ عن طريق البيع أو الاختطاف، وأجاز فحسب استرقاق أسيرات الحرب ، وقد أجاز ذلك ؛ لأنّ الدول المعادية للإسلام كانت تغزو المدن الإسلامية فتقتل الرجال والشباب وتسبي نساءهم وبناتهم ، وتأتي بهنّ أسيرات وتبيعهنّ لكل غاد ورائح ، فيأخذ الرجل الكافر والمشرك ما شاء من النساء والبنات المسلمات ، وتمسي كلٌّ منهن متاعًا مباحًا مشاعًا يعاملوهن كما تعامل المراة الزانية ، فقد يشترك في

جماع المرأة المسلمة الأسيرة الرجل وأبناؤه وإخوانه وأصدقاؤه ؛ من أجل ذلك أباح الإسلام بالمثل استرقاق النساء الكافرات اللواتي يؤتى بهنَّ بعد الحرب، إلّا أنّ ثمة فرقًا كبيرًا بين معاملة المسلمين للجواري غير المسلمات من معاملة الكفار للأسيرات المسلمات.

فقد شرع الفقه الإسلامي كيف يجب أن يعامل السيد المسلم عبيده ، ذكورًا كانوا أم إناثًا ، وجعل لهم حقوقًا كثيرة نجمل فيما يأتي عددًا منها :

١-لا يجوز للسيد أن يأمر عبده بمعصية الله ، أو ينهاه عن طاعته.

٢-ليس له حق في إجبار عبده الكافر أن يسلم ؛ لأنّه لا إكراه في الدين.

٣-ليس له حق أن يزوج عبده بمن لا يرضاها ، أو يجبره على تطليق زوجته.

٤-ليس له حق أن يمنع عبده الذمي ، اليهودي والنصراني من شرب الخمرة ، أو أكل لحم الخنزير أو الذهاب إلى الكنيسة ؛ لأن ذلك من دينه.

٥-لا يجوز أن يكلف عبده أو عبدته بالقيام بأعمال شاقة فوق طاقتهما ؛ لقوله ، صلى الله عليه وسلم ، إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم .

٦-على السيِّد أن يريح عبده صيفًا وقت القيلولة ، وإن سافر به على السيِّد أن يؤمِّن له ما يركب عليه .

٧-يجب على السيد المسلم أن يحافظ على حياة عبده ، فليس له قتل عبده ، أو جرحه ، أو قطع شيء من أعضائه ، كقطع أذنه ، أو جدع أنفه أو ضربه على الوجه ، فإن فعل السيد بعبده شيئًا من ذلك وجب عليه أن يعتق عبده ، أي: أن يطلق سراحه بأمر إجباري من القاضي.

٨–للعبد على سيده نفقة واجبة ، طعامه وكسوته وسكنه ، قدر حاجته وكفايته ، فإن امتنع السيد من دفع النفقة لعدم القدرة أو رفض دفعها مع القدرة ، فللقاضي الحق أن يبيع ممتلكات السيد لتأمين النفقة على عبيده.

٩–على السيد إذا مرض عبده ، أو عجز عن العمل بسبب ما ، أن ينفق عليه ، كما يجب أن ينفق على عبده الصغير، وعلى السيد نفقات دفنه.

١٠–على السيد أن يجعل عبده عفيفًا ، فإذا كان العبد رجلًا أعزب ، وجب عليه أن يزوجه خشية انحرافه ، وإذا كان العبد امرأة عزباء ، وجب عليه أن يزوجها ، أو أن يطأها هو خشية انحرافها ، بشرط عدم وجود مانع شرعي ، أو تكون متزوجة ، أو محرّمة عليه ، أمّا إذا كان العبد متزوجًا فعليه أن يمكنه من الاستمتاع بزوجته ليلًا.

١١– ليس للسيد الحق أن يجبر عبدته المتزوجة على تطليق زوجها ، أو منعها من المبيت معه ليلًا.

فتأمل أخي القارئ كيف كان يعامل أعداؤنا أسرانا وسبايانا ، وكيف كنا نحن نعامل أسراهم وسباياهم.

فقد حرم الإسلام أن تكون الجارية متاعًا مشاعًا ، فأوجب أن تكون الجارية أو الجواري ملكًا لرجل واحد ، ولا يجوز بل يحرم أن يجامعهنّ غيره ، كما أوجب الإسلام عليه ان ينفق عليهنَّ ، وأنّ لهن ما يحتجن إليه من الطعام والكسوة ، وأن يكرمهنَّ ، كما حث الرسول ﷺ من الزواج بهنّ، ليصبحنَ حرّات سيّدات ، كما حث ورغَّب في تعليمهنّ وتأديبهن ، ونهى عن ضربهنّ ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : من كانت له جارية فعلَّمها وأحسن إليها وتزوجها كان له أجران في الدنيا والآخرة : أجر النكاح والتعليم وأجر العتق ، فهذا التشريع هو خير لهنّ من أن يُتركنّ يتسكعنَ في الطرقات والشوارع ولا معيل لهنّ ، أي: أن الإسلام شرع ملك اليمين واسترقاق الجواري حرصًا على مصلحتهنّ وخوفًا عليهنّ من أن يتشردنَ فيتعرضنَ للإهانة في

شرفهنّ وكرامتهنّ ، كما أنّ في هذا التشريع حفظًا للبلاد من انتشار الفساد إذا تُركنَ بغير معيل يعيلهنّ ، ولا راع يرعى شؤونهنّ.

فما أعظم هذا الدين ، وما ارحمه ، وما اسمى معاملته حتى مع ألدِّ أعدائه.

واسترقاق الجواري يُشرَّع عند وجود أسبابه ، وقد امّحت هذه الأسباب في الوقت الحالي

الدرس التاسع عشر

قوة هذا الدين

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

تتفق الرسالات السماوية ومن بينها الإسلام بالحق الذي تحمله ؛ لأنّها جميعًا من مصدر حق واحد ، هو الله سبحانه.

إلّا أن الإسلام يتميز من بين سائر هذه الرسالات بقوة عظيمة مذهلة لا مثيل لها، فقد تعرّض الإسلام لمحن كثيرة مختلفة إلّا أنّه تغلب عليها واحدة تلو أخرى ، وكان يخرج دائمًا من كل محنة ، وهو أقوى صلابة وأرسخ ثباتا ، على حين أنّ الأديان السماوية التي نزلت قبله لم تستطع أن تتصدى لأعدائها ، فاضمحلت واندثر أصلها المنزل ولم يبق فيه شيء يذكر على الرغم من أنّ المحن التي تعرضت لها كانت أقلّ وأهون كثيرًا من المحن التي تعرض لها الإسلام فما سرّ ذلك؟.

لا شك بأنَّ في هذا الدين قوة وأنّها متأتية من أنّ الله سبحانه تعهد بحفظه ونشره بين الناس ولم يتعهد بحفظ الديانات السابقة ، ولولا ذلك لاندثر الإسلام لعظم المصائب التي ابتلى بها كما اندثر أصل كل دين قبله ، فليس في الإسلام حق فحسب بل بجنب ذلك قوة ربانية حمت هذا الحق من العواصف التي هبت عليه وسجلت له مآثر في كل جولة من جولات التحدي.

في هذا الدين قوة متأنية من قوة الله ؛ لأنّه دين الله ؛ لذلك اصطفى الله محمدًا (ﷺ) سيد أولى العزم من الرسل أن يكون نبي هذا الدين، فقد جاء إليه سادات قريش وكبراؤها من المشركين ليساوموا رسول الله (ﷺ) في أمر ترك دعوته ، وقدموا بين يديه أعظم المغريات ، فإن شاء الغنى جمعوا من أموال اغنيائهم حتى جعلوه أغناهم ، وان كان يسعى للسيادة جعلوه سيدهم

وملكهم ولا يصدرون إلّا عن رأيه ، وتوسطوا عند عمه أبي طالب ليرضى بهذه الصفقة فكان جوابه ﷺ : والله يا عمّ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، فقد استمدَّ رسول الله من هذا الدين قوة جابه بها أعتى طواغيت الدنيا وأعتى مغرياتها.

وحين تولى أبو بكر ﷺ الخلافة ارتدت قبائل عربية عن الإسلام بقيادة مسيلمة الكذاب فاستفحل أمرهم وكثرت أنصارهم وقويت شوكتهم حتى إنّ عمر ﷺ الذي تميز من بين الصحابة بشدته لان تجاههم وأشار مع نفر من الصحابة إلى عدم قتالهم لئلّا تتسع الفتنة ، إلّا أنّ أبا بكر ﷺ شعر لتوليه الخلافة أنّه قد أصبح المسؤول الأول عن أمر هذا الدين ، فاستعان الله ليكون بمستوى هذه المسؤولية ، فأيده بالقوة والعزم حتى صاح بوجه عمر ﷺ أمغوار في الجاهلية خوار في الإسلام؟! والله لو منعوني عناقاً[1] كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. فقاتلهم بقوة الله وبتأييده ، فقُتل مسيلمة وهُزم جيشه وأنقذ الأمة الإسلامية من خطر فتنة كادت تقوِّض أركان دولة التوحيد حتى جاء عمر ﷺ فقبل رأس أبي بكر ﷺ وقال: إنا فداؤك لولاك لهلكنا.

وقد أحس بقوة الإسلام المشركون أنفسهم يوم كان الإسلام فتيا قليل الأنصار. فقد جاء الوليد بن المغيرة الذي كان كأبي جهل في محاربته للإسلام جاء إلى رسول الله ﷺ فعرض عليه أن يتخلّى عن معاداة أصنامهم فلم يكلمه رسول الله ﷺ بل قرأ عليه سورة السجدة سورة فصلت حتى إذا بلغ قوله تعالى: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ){فصلت: ١٣} فإذا بالوليد بن المغيرة ترتعد فرائصه ويضع يديه على رأسه خشية أن تنزل عليه صاعقة من السماء تصعقه ، ويطلب من رسول الله أن

([1]) العناق: (بفتح العين) هو الأنثى من الماعز، وروى: عقال بعير: (بكسر العين) وهو الفتية من الإبل.

يكف ولا يستمر في قراءته ، فقد شعر وهو يسمع صوت القرآن بصدق هذا الدين وقوته واشتد خوفه منه فجعلت ترتعش بين يدي رسول الله ﷺ أكتافه.

وقد شعر كذلك بهذه القوة الربانية سند هذا الدين أهل الكتاب ، فقد قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ، وكانوا ستين راكبًا منهم أربعة عشر رجلًا من أشرافهم وأمر هؤلاء الأربعة عشر يؤول إلى ثلاثة منهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح وكان أمير القوم وصاحب مشورتهم ، والسيد: وهو الأيهم وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلًا من العرب من بني بكر بن وائل ، لكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وكان هذا الوفد من نصارى نجران جاؤوا ليحاجّوا رسول الله ﷺ في أمر المسيح عيسى بن مريم ، فهم يقولون هو الله ، ويقولون هو ابن الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة وفي شأن هذه المحاججة في أمر عيسى عليه السلام أنزل الله قوله تعالى: (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ){العمران: ٦١}

والمباهلة هي الملاعنة وهي أن يجتمع الفريقان بأبنائهم ونسائهم ورجالهم ثم يدعو كل فريق منهم الله أن ينزل اللعنة والعذاب على الفريق الظالم والكاذب ، وفي حديث ابن عباس من شاء باهلته أن الحق معي ، فلما عرض عليهم رسول الله ﷺ المباهلة ليعرف بها من هو الظالم والكاذب ترددوا ؛ لذلك قالوا له : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ثم انصرفوا عنه ، ثم اختلوا بالعاقب فاجتمعوا به وكان أمير رأيهم فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى فقال : والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أنّ محمدًا لنبي مرسل ولقد جاء بالفصل من خبر صاحبكم (عيسى عليه السلام) ولقد علمتم أنّه ما لاعن قوم نبيًّا قط إلّا هلك

كبيرهم وصغيرهم ، وأنّه الاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلّا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم عيسى بأنّه هو ابن الله ، أو هو الله فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ، ونتركك على دينك ونرجع على ديننا.

وفي تفسير ابن كثير "قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال أبو جهل قبّحه الله إن رأيت محمدًا يصلي عند الكعبة لأتيته حتى أطأ على رقبته فقال: لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا... ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا ، وقد رواه البخاري والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح.

وفي تفسير ابن كثير أيضًا أنّ أميري وفد نجران العاقب ، والسيد أبيا أن يباهلا رسول الله ﷺ وأقرّا له بالاستسلام وبدفع الجزية والخراج ، وقال رسول الله ﷺ والذي بعثني بالحق لو قالوا (لا) لأُمطِرَ عليهم الوادي نارًا ، والمعنى : أنّهم لو باهلوه أو رفضوا الاستسلام ودفع الجزية والخراج لأمطر الله عليهم نارًا وأبادهم عن آخرهم بيوتهم وأموالهم وأهليهم وأولادهم.

فقد تراجعوا لأنّهم لم يدركوا فحسب أنّ الحق مع الإسلام ، بل أدركوا أيضًا أنّ معه قوة الله وتأييده ، فمن خاصمه فقد خاصم الله ، ويا ويله عندئذ من بطش الله.

والمعروف في علم الاجتماع والتاريخ أنّ دين الأمم الغالبة هو الذي يؤثر في عقيدة شعوب الأمم المغلوبة ، فالمرء يشعر باليأس من دينه حين يشعر أنه ينتمي إلى دين أُمة قد هزمت أمام خصمها ، ولا سيما إذا كانت الهزيمة نكراء ويعظم ويميل إلى دين الأمة المنتصرة.

فقد هُزِمَت الأمة الإسلامية في جولات عبر التاريخ أمام أعدائها من الأمم الأخرى ، إلّا أنّه دين هذه الأمة لم يهزم في قلوب أتباعه ، وما ازداد

إلّا رسوخًا ، بل حصل ما يعد معجزة للإسلام ، فبدلًا من أن يتزعزع الإسلام في نفوس المسلمين المهزومين إذا به نجده يدخل في قلوب قادة أعدائه المنتصرين ، فبعد سقوط الخلافة العباسية غزت جيوش المغول التتار البلاد الإسلامية ، وكانت هذه الجيوش تدين بديانات وثنية ، وكان من عقيدتهم أنّ كل فرد منهم يكون عدد خدمه في اليوم الآخر بعدد ما يقتل من المسلمين ويمثل فيهم ؛ لذلك راحوا يقتلون المسلمين شيوخًا وأطفالًا ونساءً ظفروا بهم بوازع دينهم الوثني ، ودمروا المدن الإسلامية وحضارتها وكانت من بينها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ورموا بما تحتوي عليه مساجدها من مخطوطات في علوم دينية وإنسانية وعلمية مختلفة رموا بها في نهر دجلة حتى روي أنّه لكثرتها اتخذ منها عليه جسر وتغير ماء لونه ، هؤلاء الذين غزونا باسم الوثنية وقتلوا الأنفس وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض وخربوا المدن ، هؤلاء انفسهم بعد فترة من حكمهم فإنّهم بدلًا من أن ينشروا بيننا وثنيتهم تُسلم قادتُهم وملوكُهم ، وكان من بينهم محمود غازان ، وبعد أن اعتنقوا الإسلام وجعلوه دين الدولة الرسمي ندموا على ما اقترفه أسلافهم بحقه وحق حضارته وأبنائه ، فأرادوا أن يُكفِّروا عن ذنوبهم وذنوب أجدادهم ، فأكثروا من بناء المساجد والمدارس الدينية وإكرام علمائها وبناء المؤسسات الخيرية ، بل لم يكتفوا باعتناق هذا الدين ، بل راحوا يدعون إليه الأمم الأخرى ، فكانوا هم الذين نشروا الإسلام في بلاد الهند وأنشأوا إمارات إسلامية في بلاد القوقاز المحصورة بين البحر الأسود وبحر قزوين التي من آثارها اليوم الشيشان وداغستان ، وقد كان لإنشاء هذه الإمارات أثر في حمايتنا من غزوات أخرى ، فقد حالت مثلًا دون توغل القياصرة في البلاد الإسلامية.

وبعد أربعة عشر قرنًا من نزول الإسلام لم يزل أعداؤنا يشعرون بقوة ديننا فقد صرح مسؤول في وزارة الخارجية الفرنسية عام ١٩٥٢م بأنّه ليس

هناك نظام في هذه الدنيا يهدد كيان أوربا ونظامها إلّا الإسلام وما قاله : "ليست الشيوعية خطرًا على أوربا فيما يبدو لي أنّ الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدًا مباشرًا وعنيفًا هو الخطر الإسلامي "ثم ذكر بعد ذلك أنّ الإسلام عملاق عظيم إلّا أنّ أهله نائمون فلنسع جميعًا إلى بقائهم نائمين ؛ لأنهم إذا نهضوا وحملوا معهم لواء الإسلام كان ذلك انذارًا يهدد أوربا بأسرها.

فبعد الأخذ بالأسباب المادية ليس للعرب ولا للأمة الإسلامية من قوة تستند إليها إلّا الإسلام ، بعد نكسة حزيران في حرب ١٩٦٧م مع إسرائيل ذهب وفد عسكري مصري للتباحث مع زعماء السوفييت حول تزويد مصر بما افتقدته من أسلحة ومعدات حربية في أثناء الحرب ، والتقى الوفد بعدد من العسكريين السوفييت ومن بينهم وزير الدفاع السوفييتي مالينوفسكي ، قال الوفد المصري بالحرف الواحد: إنّنا لم نستطع أن نستعمل الأسلحة التي اشتريناها منكم ؛ لأنّها كانت جديدة علينا ولهذا خسرنا المعركة ، فما كان جواب مالينوفسكي إلّا أن ردّ عليهم بقوله : لقد انتصر أجدادكم على الفرس والروم بسيوف صادئة قديمة رديئة ، وقد علمتني التجارب والوقائع وأنا في هذا المنصب بأنّه لا شيء يساوي القوة المعنوية في الأمة.

ويعدّ الإسلام أعظم قوة معنوية ملكتها أو تملكها أيّة أمّة كانت.

اللهم امنح هذه الأمّة قوة من عندك بردِّها إلى دينك ردًّا جميلا. اللهم آمين.

الدرس العشرون

من آثار هذا الدين في نفوس أتباعه

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ، اللهم إنّا نعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأعمال. اللهم إنّا نعوذ بك من الجنون والبرص والجذام وسيء الأسقام.

بشرع الله وهداه ، وبفضل تعاليمه الربانية التي تربط الإنسان بربَّه وتذكيره بيوم عظيم يوم الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صنع الإسلام المعجزات في تربية أبنائه ؛ لأنّ النفوس لا تسمو إلّا بهذه الصلة الربانية والأخروية ، وأمّا الديانات السماوية الأخرى فقد حُرِّفت جميعها ومُسخت عن الأصل مسخًا ؛ لذلك فقدت تأثيرها في تزكية الروح ؛ لأنّها فقدت صلتها الربانية ، والنظم الدنيوية لا تملك هذه الصلة ، ولا تذكر الإنسان إلّا بالدنيا ومتاعها الفاني ؛ لذلك لا تجد دينًا سماويًّا ولا مبدأً أرضيًّا أصلح النفوس ورفعها إلى المعالي إلّا الإسلام.

بعد أن انتخب المسلمون أبا بكر ﷺ أن يكون خليفة على المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ولم يكن راغبًا فيها ، طلب من عمر ﷺ أن يساعده في تولي القضاء ، بأن يكون حاكمًا وقاضيًا بين المسلمين في المدينة يحتكم إليه الناس ليفضَّ بينهم نزاعاتهم ، فبقي عمر ﷺ قاضيًا سنة كاملة ولم تُرفع إليه قضية واحدة ، ولم يختصم اليه اثنان ، فتخلى عن هذا المنصب وأخبر بذلك أبا بكر ﷺ بأنَّ قومًا عرف كل منهم ما له وما عليه لا يحتاجون إلى قاض يقضي بينهم.

هذا ما يحصل في المجتمع الإسلامي ويحصل العكس من ذلك في المجتمعات غير الإسلامية ، لنأخذ مثلًا واحدة من الدول التي تسمي نفسها دولا علمانية متحضرة ، تقول إحصاءات للجرائم أنّه يحصل في المجتمع الأمريكي ٢٦ جريمة في كل دقيقة من سنة ١٩٨٨م كإطلاق النار أو الطعن

او اغتصاب الأطفال والفتيات أو السرقة والسطو على أموال الناس بقوة السلاح وسجل التقرير السنوي عن الجرائم في أمريكا الذي أصدره مكتب التحقيق الاتحادي ٢٠٦٧٥ جريمة في سنة ١٩٨٨ أي بزيادة ٢.٩% على عدد الجرائم في سنة ١٩٨٧م.

ولم يكتف الإسلام بتزكية النفوس بل سما بها إلى العلا درجات وقد خلف للإنسانية نماذج من هذا السمو في كل ميدان من ميادين الحياة ، ولنأخذ على سبيل المثال ميدان حب الشهادة في سبيل الله.

فقد شاور رسول الله (ﷺ) يوم بدر الصحابة في قتال المشركين فقالوا : يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك ولو سرتَ بنا إلى كذا وكذا لسرنا معك ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: (فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) [المائدة: ٢٤] ولكن نقول اذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون.

وبعد انتصار المسلمين في معركة بدر جمع المشركون الجموع وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريبًا من أُحُد تلقاء المدينة فصلى رسول الله (ﷺ) يوم الجمعة ، فلما فرغ منها صلى على رجل من بني النجار يقال له مالك بن عمرو واستشار رسول الله ﷺ الناس : أيخرج اليهم أم يمكث في المدينة؟ فاشار عبد الله بن أُبي بالمقام في المدينة فإذا بقي المشركون في مكانهم هلكوا ، وإن دخلوا المدينة قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين ، وكان هذا الرأي صائبًا وهو الموقف الذي كان يحبذه رسول الله ﷺ إلّا أنّه أشار جماعة من الصحابة ممن لم يشهدوا بدرًا بالخروج إليهم ، فقد شعروا أنّهم حرموا شرف الجهاد في سبيل الله في معركة بدر فتشوَّقوا للجهاد في جولة أخرى فانتظروها بلهف حتى إذا اقبلت جولة أُحُد دفعهم شوقهم للجهاد في سبيل الله ومقاتلة العدو وجهًا لوجه إلى أن يشيروا إلى رسول الله ﷺ بالخروج لقتال

المشركين دون البقاء في المدينة ، فدخل رسول الله ﷺ خيمته أو بيته ولبس لأمَته، أي : لبس درعه وخرج عليهم ملبيًّا رغبتهم ونزل إلى رأيهم، وقد ندم بعضهم وقالوا لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ وألححنا عليه بالخروج فقالوا : يا رسول الله ﷺ : إن شئتَ أن نمكث أن نبقى في المدينة بقينا ، فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمَته أن يرجع عن القتال حتى يحكم الله ثم حدث ما قدر الله.

وكان زيد بن الخطاب وهو أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، قد أسلم قبل عمر ﷺ وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان زيد ﷺ يحمل راية المسلمين في معركة اليمامة ضد مسيلمة الكذاب ، وقد رأى انكشاف المسلمين وتراجعهم وجعل يصيح بأعلى صوته : اللهم إني أعتذر إليك من فرار أصحابي وابرأ إليك مما جاء به مسيلمة ، وكان لثبات زيد وجماعة من الصحابة أثر في تغيير مجرى الحرب لمصلحة المسلمين ؛ إذ قُتِل مسيلمة وانهزم جيشه وانتصر جيش المسلمين.

وقاتل زيد في هذه المعركة بثبات وإيمان حتى استشهد ﷺ ولما بلغ عمر بن الخطاب خبر استشهاد أخيه لم يبكه ولم يحزن عليه ، بل ولا استرجع فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، إذ لم يعد قتل أخيه مصيبة بل غبطه كما يغبط أحدنا إنسانًا إذا سمع أنّه قد فاز بمنصب عال من مناصب الدنيا ، فقد قال حين وصل إليه الخبر : لقد سبقني إلى الحسنيين (أخي) أسلم قبلي واستشهد قبلي.

وفي غزوة تبوك تهيأ جيش المسلمين للقتال وكلٌّ أخذ عُدّته التي يحتاج إليها للجهاد في سبيل الله ، إلّا أنّ رجالًا من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم الباقون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، كانوا فقراء وذوي حاجة لا يملكون عدة الحرب من دابّة وسلاح فاستحملوا رسول الله ﷺ وطلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجهزهم بعدة الجهاد فاعتذر لهم رسول الله ﷺ وقال:

(لا أجد ما أحملكم عليه) وفي ذلك نزل قول الله تعالى: (لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {٩١} وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ){التوبة: ٩١-٩٢}.

فرجعوا وهم يبكون لأنّهم لم تتهيأ لهم الفرصة ليشاركوا إخوانهم في الجهاد ؛ ولقد كان بكاؤهم صادقًا ؛ لان الذي أخبرنا عن حالهم هذا هو الله الذي يعلم أسرار الناس ونياتهم ويعلم من يبكي ممن يتباكى.

فيا سكان الأرض هل قرأتم او سمعتم في التاريخ أنّ رجالًا من غير أُمّة القرآن ، قد قطرت أعينهم بقطرة دمع واحدة ؛ لأنّ قائدهم اعتذر لهم عن المشاركة بالقتال؟!

وفي معركة القادسية يأتي عبد الله بن أم مكتوم ، وكان رجلًا أعمى وشيخًا كبير السن يطلب من القادة أن يشارك في القتال والجهاد في سبيل الله ، فيعتذرون له بأنّهم لا حاجة لهم فيه ، وماذا يصنعون به وهو شيخ أعمى؟ فطلب منهم أن يكلفوه بأيّ عمل كان ، وما زال يلحّ عليهم حتى أعطوه حمل الراية ، فاستشهد وهو يحملها.

وهذه الخنساء أشعر شاعرات النساء عاشت في الجاهلية والإسلام وفي ظل الجاهلية قُتل أخوها صخر فحزنتْ عليه ، وجعلتْ أكثر قصائد شِعرها في رثائه ومن أبياتها فيه:

إنَّ ضخرًا لتأتم الهداة به كأنَّه عَلَمٌ في رأسه نارُ

ومنها

أعينَيَّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ومنها:

يذكرني طلوع الشمس صخرًا وأذكره لكل طلوع شمس

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
وما يبكين مثل أخي ولكن أُعَزِّي النفس عنه بالتأسِّي

حتى إنّها لشدة جزعها عليه علقتْ نعليه على صدرها فربطت خُفَّيه بحبل ثم تقلدته فجعلته لها كالقلادة.

هذه الشاعرة نفسها أسلمت فرباها الإسلام ، ثم اشترك أولادها الأربعة في معركة القادسية فاستشهدوا فيها جميعًا ، فلما جاء إليها خبر استشهادهم لم تقابل هذا الخبر كما تقابله كلّ امرأة من نساء الدنيا بالبكاء واللطم والعويل ، بل قابلته بصبر وثبات وبقولتها المشهورة : الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم واستشهادهم جميعًا.

هكذا أصبح حال الخنساء في ظلال القرآن فأين هذا الحال من حالها في ظلال الجاهلية؟!

فكل حال يرتفع بالإسلام وينحط بغيره ، اللهم ارفعنا بالإسلام وأمتنا على شهادة الإسلام ، اللهم آمين.

الدرس الحادي والعشرون

فريضة الصلاة في الاسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى اله وصحبه ومن والاه

(ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم)

(ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)٠

اللهم إنّا نعوذ بك من شر ما عملنا ومن شر ما لم نعمل.

قد يرى الذين ليسوا من ديننا، وقد تحسّ شرذمة من أبناء المسلمين بأنّ القيام بالصلاة خمس مرات في اليوم كثير ، وأنه يكفي تأديتها مرتين، كأن تكون إحداها في الصباح ، والأخرى في المساء.

إنّ القيام بالصلاة خمس مرات في اليوم ليس كثيرًا ؛ لكن الإحساس بكثرتها ، ومشقة أدائها يأتي من ضعف الايمان والاسلام ، او يأتي من الاعتقاد بأن امرها هين. ويزول هذا الاحساس وذلك الاعتقاد تماماً عند الشعور باهميتها عند الله وفي اهمية تاثيرها في اصلاح النفوس والحياة الانسانية.

ان الصلاة التي قد عدها الله عماد الاسلام، وباب الدخول في رحمته وجنته التي عرضها السموات والارض، لتبدو خفيفة الوزن جدا في الوقت والجهد إذا ما قيست بالأعمال الأخرى التي يقوم بها الانسان من اجل قضايا دنيوية تافهة زائلة.

ان وقت الصلوات الخمس كثيراً ما يكون اقصر من الوقت الذي يصرفه الانسان في طريق ذهابه الى محل عمله ، فضلًا عن المجيء منه

الى بيته، بل قد ينتظر المرء في موقف المركبات ما يزيد عن وقت الصلوات جميعاً.

إنّ زمن الصلوات المكتوبات أقلّ من الزمن الذي يصرفه الإنسان في الأمور غير الضرورية التي لا يحسب لها حساب، مع العلم أنّه ينبغي أن يقاس بالزمن الذي يشغله الإنسان في أعماله الدنيوية.

فإذا كان ربع يوم الإنسان أو أكثر يشغل بالعمل من أجل متاع الدنيا التافه والزائل ، لا يعدُّ كثيرًا في اعتقاد الناس ، فكيف يعدُّ كثيرًا في اعتقادهم نصف ساعة يشغلها العبد من أجل ربه ، والحياة الآخرة التي هي خير من الدنيا وأبقى؟!

في يوم ما كنت بين نصارى ، وتحدثنا معًا عن عدد الصلوات في الإسلام والنصرانية ، فسألت بعضهم : كم مرة تصلون في اليوم؟ فقال : مرتين ، في الصباح، وفي المساء ، فسالني وأنتم؟ قلت: خمس مرات فردّ بعضهم ، فقال ما معناه : ليس المهم كثرة الصلوات ، إنّه يكفي أن تُؤدى مرة أو مرتين في اليوم.

ففكرت في هذه المسألة لحظات ، فوثب إلى ذهني ما أضرم في قلبي الإيمان والإسلام وزاد من تصديقي لرسالة محمد ﷺ.

لقد قلت في نفسي وقتئذ لو أنّ رسول الله ﷺ جعل الصلاة مرتين في اليوم لما أنكر عليه ذلك أحد ، بل لرحب المسلمون بهذا التخفيف ، كما أنّه سيكون وسيلة تشجع غير المسلمين على الدخول في الإسلام ، وهذا الأمر سيكون من مصلحة محمد ﷺ فلِمَ لَمْ يفعل مثل ذلك ، عليه الصلاة والسلام؟!

مما لا ريب فيه ، أنه لم يفعل ذلك ؛ لأنّ الصلولت وأوقاتها فرضها الله وليس محمد ؛ ولأنّ القرآن والإسلام من عند الله لا من عند محمد ﷺ فليس محمد ﷺ إلّا بشر يتلقى الأوامر من عند الله ، ثم يبلغها نفسه والمسلمين ويفرضها على نفسه وعلى المسلمين.

إنّه ما من شك أنّ الأمر لو كان بيد محمد ﷺ او كان كاذبًا بنبوته – حاشاه من ذلك – لجعل الصلوات ثلاثًا او مرتين ؛ لأنّ هذا ما يتفق مع مصلحة النبي الكاذب ومع هوى النفس والأكثرية ، لكن جعلُها خمس مرات في اليوم دليل من أدلة كثيرة على صدق نبوة المصطفى ، وعلى صدق رسالته ، عليه الصلاة والسلام.

الصلوات الخمس أخفّ تكليف:

فرض الله الصلاة، وقد جعل القيام بها من أحد الأمور المهمة وأولها، التي تبلغ صاحبها رضا الله ، والدخول في جنته ، فبما أنّ الأمر كذلك ، فإنّ جعلها خمس مرات في اليوم هو أقلّ ما يمكن للتمييز بين المؤمن الصادق والمؤمن الكاذب ، إنّها تكاد تكون أخفّ من أيّ تكليف أنيط بالإنسان في أموره الدنيوية.

لقد فرض الله الصلاة لتكون تكليفًا يختبر به العباد ، وجعلها تبلغ الحدّ الأدنى من التخفيف ، فإن خُففت أكثر ، عادت غير تكليف ، وانحدرت إلى مستوى حيث يؤديها الناس كأنّها تسلية يتسلّون بها ، أو نزهة يتمتعون ويقضون بها وقت فراغهم ، كما حدث ذلك في صلوات الأديان الأخرى، وعندئذ ستفقد غايتها ، فلا تكون وسيلة ناجعة لفرز الجادّ في إيمانه من الهازل ؛ لأنّها ستنزل من مرتبة التكليف إلى مرتبة اللعب ، والناس يُعرف جوهرهم بالأول لا بالثاني ، فكل نفس تهوى أن تلعب فكل نفس تهوى الصلاة إذا كانت تُؤدى بغير وضوء وبغير اغتسال وغير مقيدة بأوقات وأركان ، وبخاصّة إذا كانت تُؤدى جنبًا إلى جنب مع النساء الحاسرات السافرات في المعابد.

الجد والضبط في الصلوات

امتازت العبادات الإسلامية ومن ضمنها الصلاة بالجدّ والضبط ، فهي تختلف من هذه الناحية عن الصلاة في الأديان الأخرى ، من ذلك مثلًا أنّها

في الإسلام لا يجوز أن تُؤدى إلّا عن طهر ووضوء فإذا كان المسلم على جنب وجب عليه الاغتسال ، وإذا أحدث الحدث الأصغر وجب عليه أن يتوضأ، يفعل ذلك قبل أن يقدم عليها كما أنّها يلزم أن تقام في أوقاتها المعينة التي حددها الله سبحانه ، فصلاة الصبح يجب أن تُؤدى ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فلا يجوز أن تُؤدى قبل الفجر ولا بعد الشروق ، وكذلك أوقات الصلوات الأخرى الظهر، والعصر والمغرب ، والعشاء ، فقد حددت بداية كل منها ونهايته.

ومن علامات الجد والضبط الأخرى ، أنّه لا يجوز البتة تأجيلها لأيّ سبب كان ، حتى في حالتي السفر والمرض ، بيد أنّه وضعت رخص لتخفيفها ، فتقصر وتجمع في الحالة الأولى ، وفي الحالة الثانية من لم يستطع أن يصلي وهو واقف ، صلى وهو قاعد ، ومن عجز عن الصلاة قاعدًا ، صلاها مضطجعًا ، وجاز التيمم بالتراب لمن تعذَّر عليه الحصول على الماء ، أو استعماله بدلًا من الوضوء والاغتسال ، كل ذلك شرع لكي لا يسمح بتأجيلها.

ومن الأمثلة الأخرى على هذا الموضوع ، أنّه من صلى صلاة قبل وقتها بدقائق وجب عليه إعادتها ، وإلّا عد كأنّه لم يصل ، ومن أخَّرها بغير عذر فإنّه مع وجوب أنّ يصليها قضاء عُدَّ آثمًا ، وأوعد بالحساب إن لم يستغفر ربه.

إنّ الإسلام لا يقبل من أيّ مسلم التهاون في أمرها، فلا يقبل من مؤخر فريضة الصبح إلى بعد طلوع الشمس أن يعتذر بقوله عن تأخيرها ، أنّه كان سهران أو تعبًا أو أجنب في ليل من ليالي الشتاء ، فلما نهض للفجر وجد الماء باردًا فثقل عليه كثيرًا أن يغتسل فيصلي ، إنّ هذه الحجج وأمثالها قد يسمح بها بصورة شرعية في غير الإسلام ، أمَّا في الإسلام فإنّه لا يفتح أُذنه ليسمع مثل تلك الأعذار ؛ لأنّ العبادة في هذا الدين التي من

بينها الصلاة ، لم تفرض للتسلية ، كما هو الحال في بقية الأديان، كأنّها دمية يلعب بها الطفل متى ما هواها، وفي أيّ وقت شاء وبايّ صورة.

إنّ الصلاة في الإسلام تتصف بصفة الجدّ ، تُشبه في ضوابطها القوانين العسكرية ، فكما أنّ العسكري يجب أن يلتزم في تأدية واجباته دون إفراط أو تفريط ، وإن صدر منه أيّ تهاون كان عوقب ؛ ليلقن درسًا يذكره كلما فكر في التهاون مرة ثانية ، فكذلك المسلم عليه أن يلتزم بتأدية صلاته من دون إهمال ، وإلّا لقي الحكم في قوله تعالى : (فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ {٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ){الماعون: ٤-٥}

صفة الضبط هذه تجعل للصلاة معنى، تجعل المصلي يحسّ بها، عندما يؤديها يشعر بأنّه قد أدّى واجبًا، تجعله يثق بالنتيجة، بضمان المستقبل، أي: تجعله يثق بدخول الجنة.

فكل طالب مثلًا لا يرغب أن يكون في كلّية ليس فيها ضبط لدوام الطلبة ، ولا في امتحاناتهم، يتساوى لدى الإدارة من يلتزم ممن لا يلتزم ، لا يُضبط الاختبار، فيسهل على الكثير الغش ، فينجح الغبي والمهمل ، بل يفوزون بأعلى الدرجات بسهولة وبدون اجتهاد ، ولا يضبط التصحيح، والإدارة لا تحاسب طلبتها ولا أساتذتها ، فكلٌّ يجري حسب هواء ، يشيع في الكلية التسيب والفوضى ، مما لا شكّ فيه إنّي لو كنت طالبًا ووجدت مثل هذه الكلية ، فإني أُوَلِّيها الدُّبُر ، ولا أرغب فيها، وهذا ما يفعله كل طالب إزاءها ليس كرها للتسيب ، فكل نفس تهوى الهزل ، وأن لا تحاسب ، لكن لا يرغب فيها ؛ لأنّه يهتم بمستقبله ؛ لأنّه يحس بأنّ الكلية هذه لا عاقبة محمودة وراءها، فيعود لا يثق بنتيجتها، وسيشعر بجدوى دراسته وضمان مستقبله عندما يلتحق بكلية ثانية يجد فيها الإدارة تحاسب طلابها تضبط دوامهم وامتحاناتهم بشدة ، تحاسب من يتأخر أو يحاول الغش ، وتفصل من لا يلتزم بقوانين الدراسة.

هذا الحال الأخير ستجعل الدارس يثق بكليته ، ويثق بنتيجة تعبه فيها، فكذلك الصلاة في الإسلام ، إنّ الضبط الذي فيها تجعل المسلم يحسّ بحقها، وبجد نتيجتها، بخلاف الصلاة في الأديان الأخرى التي لا ضبط فيها، تُؤدى بدون تكليف التي تجعل صاحبها يشك في أمرها، وفي أمر ما تنتسب اليه.

إنّ صلاة تُؤدى حسب أهواء البشر، لا وضوء فيها ولا اغتسال، ولا بأس إن صلاها قبل وقتها أو بعده ، يجتمع في أدائها النساء والرجال بلا مسوغ ، محسورات الرأس والساقين ، إنّ صلاةً مثل هذه تجعل صاحبها من الصعب أن يصدق أنّها من عند الله ، وأنّها ستدخله جنة عرضها السموات والارض ، وهو يعلم أن أدنى وظيفة في الدنيا لايبلغها المرء ، ولا يأخذ أجرها إلّا بعد أن يؤدي واجباتها وقوانينها كاملة وبإخلاص وإتقان، فكيف تصدق نفسأن تنال جنة الخلد بعبادة هزلية؟!

إنّ قوانين الضبط التي فُرِضت على المصلي في صلاته في الإسلام دليل من أدلة كثيرة على أنّها من عند الله ، وأنّ التهاون الذي تراه في صلاة الأديان الأخرى ، دليل من أدلّة كثيرة على أنّها خرجت من عند الله منذ زمن ، وباتت في أيدي البشر، فصاغوها كما تهوى أنفسهم، وتهوى نفوس التابعين.

في الصلاة الإسلامية قوانين فيها حزم وجدّ ، ولكن ليس فيها عسر وتكليف فوق قدرة الإنسان، فقد قال تعالى: (يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ){البقرة: ١٨٥}.

فيجب التفريق بين الضبط والشدة ، إنّ الشباب لا يشكون من التعب في أداء الخدمة العسكرية في الجيش؛ لأنّه في الحقيقة ليس فيها أعمال مرهقة ؛ لكن يشكون من قوانينها التي يجب أن تنفذ بحذافيرها، وإتقان من دون تأخير، ودون التماس الأعذار للتماص منها، وإلّا عوقب.

وهكذا كانت الصلاة في الإسلام، إنّ الاسلام يريد من المسلمين بأداء هذه الفريضة أن يكونوا جميعًا شبابًا وشيوخا ، نساء ورجالًا، جنودًا ملتزمين تعلمهم عباداتهم بما فيها من ضبط ، على الضبط لتنفيذ القوانين الربانية وفي قضاء أمورهم الدنيوية.

اللهم إنّا نعوذ بك من شر أسماعنا ومن شر أبصارنا ومن شر قلوبنا ومن شر ألسنتنا ومن شر منيِّنا. اللهم اهدنا وسددنا ، اللهم إنّا نسألك الهدى والسداد ، اللهم آمين.

الدرس الثاني والعشرون

شهادة أهل التوراة والإنجيل

اللهم أجرنا ووالدينا وذرياتنا من النار ولا تخزنا يوم يبعثون ، اللهم آمين.

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. يا حي يا قيوم بك نستغيث فأصلح لنا شؤوننا كلها ولا تكلنا إلى أنفسنا ولا الى غيرك طرفة عين.

ليس غريبًا اذا وجدنا اليهود والنصارى يطعنون في شخصية محمد ﷺ فهم الذين اتهموا إبراهيم عليه السلام بأنّه كذاب ، واتهموا لوطًا عليه السلام بأنه زنى بابنتيه ، واتهموا داود عليه السلام بانّه اغتال أوريا وزنى بزوجته حتى حملت منه ، واتهموا سليمان بأنّه عبد الأصنام ، وإذا كانت هذه حالهم مع أنبيائهم فكيف يكون حالهم مع محمد ﷺ الذي قال عنهم : والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأُمَّة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلّا كان من أصحاب النار. رواه مسلم.

ومن سنة الله ، سبحانه ، أن يُهيئ من أعداء الإسلام من يردُّ على زملائه الذين هم من بني قومه وجنسه ومذهبه دفاعًا عن هذا الدين ونبيِّه ، وهؤلاء المدافعون غالبًا ما يكونون من المعروفين عند أقوامهم بالعلم والسيرة الحسنة ، إنّها سنة قوله تعالى : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا){يوسف: ٢٦}.

شهد بحقه ﷺ الكهّان من العرب ، والأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فهؤلاء جميعًا كانوا قد أُخبروا بقرب مبعث محمد ﷺ قبل بعثته لمّا تقارب زمانه ، أمّا الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فقد وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، أخبرتهم بذلك أنبياؤهم ، أمَّا الكهان من العرب فقد أتتهم بأخباره الشياطين من الجن الذين كانوا يسترقون السمع من

السماء قبل أن تحجب دونهم بالشهب ورجمهم بها ، فما يزال الكاهن والكاهنة يتحدثان عن أخبار النبي محمد ﷺ وعن أحواله وصفاته والعرب ما كانت تعير لذلك اهتمامًا حتى إذا بعث النبي ﷺ وجدوا أنّ ما كان يتحدثان به ينطبق عليه ، عليه الصلاة والسلام .

شهدوا جميعًا بحقه فمنهم من آمن ومنهم من بقي على استكباره ، يقول المستشرق واط في كتابه (تأثير الإسلام على اوربا) ص١١٩ أن القديس توماس أكونياس على الرغم من عدم إيمانه برسالة محمد أشار إلى أنّ الكتاب المقدس قد تنبّأ بمجيئه ﷺ وأكد هذا المستشرق أنّ التمحيص و (التحقيق) أوضح أنّ التوراة والإنجيل قد حُرِّف فيهما الكلم ، منها علامات نبوة محمد ﷺ.

وروى البخاري في صحيحه عن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال : كنت في اليمن فلقيتُ رجلين (نصرانيين) من أهل اليمن كان اسم أحدهما ذا كلاع واسم الآخر ذا عمرو ، فجعلتُ أُحدثهما عن رسول الله ﷺ فقال لي ذو عمرو : لئن كان الذي تذكر من أمر صاحبك (أنّه رسول حق) فقد مرّ على أجله (ووفاته) منذ ثلاث (ليال) وأقبلا معي حتى إذا كنّا في بعض الطريق رفع لنا ركب من قبل المدينة فسألناهم فقالوا قبض (وتوفي) رسول الله ﷺ واستخلفه أبو بكر والناس صالحون.

فتح الباري ١٣٨/٩.

فحتى يوم وفاته كان مذكورًا عند النصارى في إنجليهم ، وعند اليهود في توراتهم ، فقد كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، قال الله تعالى : (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ){البقرة: ١٤٦}

وروى أحمد في مسنده عن سلمة بن سلامة ﷺ وكان من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما

من بيته قبل مبعث النبي ﷺ فوقف على مجلس بني عبد الأشهل ، قال سلمة : وأنا يومئذ أحدث وأصغر مَن في هذا المجلس عمرًا ، فخاطب من في المجلس أن!ه سيظهر نبي من هذه البلاد ، وأشار إلى مكة ، قالوا له : ومتى نراه ؟ قال فنظر اليَّ فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه ، قال : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا فآمنا به وكفر به بغيًا وحسدًا (يعني أنّه لما بعث الرسول ﷺ كان جار سلمة اليهودي ما يزال حيًّا فآمنا بالرسول ﷺ وكفر به اليهودي الذي بشرنا بقرب ظهوره) فقلنا له : ويلك يا فلان ألستَ قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى.

وفي سيرة ابن هشام. وقال ابن اسحاق وكان من حديث مخيريق وكان حبرًا (من اليهود) وعالمًا (من علمائهم) وكان رجلًا غنيًّا كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه (ومما كان يقرؤه في التوراة عنه وعن صفته واسمه وزمانه) وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى إذا كان يوم أُحد وكان يوم أُحد يوم السبت قال: يا معشر يهود والله إنّكم لتعلمون أنّ نصر محمد لحقٌّ (لأنّ ذلك مسطَّر عندكم من صفته) قالوا : إنّ اليوم يوم سبت قال : لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ بأحد (ليقاتل مع المسلمين) وعهد إلى من وراءه من قومه إن قُتلت هذا اليوم فأموالي لمحمد ﷺ يصنع فيها ما أراه الله ، فلمّا اقتتل الناس قاتل حتى قُتل ، فكان رسول الله ﷺ فيما بلغني يقول مخيريق خير يهود ، وقبضَ رسول الله ﷺ أمواله وكانت كافة صدقات رسول الله ﷺ في المدينة منها.

وفي سيرة ابن هشام أيضًا وقال ابن اسحاق : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا إنّ مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، لِما كنّا نسمع من رجال يهود ، كنّا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا

وبينهم شرور (وعداوات) فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنّه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكثيرًا ما كنّا نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرنا إليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة : (وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ){البقرة: ٨٩}.

وفي سيرة ابن هشام أيضًا وقال ابن إسحاق وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم حُدِّثْتُ عن صفية بنت حُيَي بن أحطب (وهي زوجة رسول اللهﷺ وكانت من اليهود) أنّها قالت لما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء (وهي قرية قريبة من المدينة دخلت الآن ضمن المدينة) في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حُيَي بن أحطب ، وعمّي أبو ياسر بن أحطب مغلسين (أي أقبل أبوها اليهودي وعمّها إلى رسول الله ﷺ في ظلام عميق) فرجعا (منه) مع غروب الشمس ، كالَّين (متعبين) ساقطين يمشيان الهوينى (مما أصابهما من الإعياء فقد كانا عند رسول الله ﷺ من ظلام الفجر حتى غروب الشمس) قالت فتهشيشتُ إليهما (فاستقبلتهما بابتسامة وفرح وترحيب) كما كنتُ أصنع (عند استقبالهما في كل مرة) فو الله ما التفتا إليَّ أحد منهما مع ما بهما من الغمّ (فلم يحتفلا بي كما احتفلتُ بهما ولم يرحبا بي كما رحبتُ بهما وذلك من شدة ما أصابهما من غمٍّ وهمٍّ وحزنٍ) قالت: وسمعتُ عمي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حُيَي بن أحطب : أهو هو؟ (أي: أنّ محمدًا الذي قابلناه فجر هذا اليوم ، هل هو نفس النبي المنتظر المكتوبة أوصافه وزمانه عندنا في التوراة ؟ هل تنطبق عليه العلامات كلها كما أُخبِرنا بها في كتبنا ؟ هل هو نفس النبي الذي وعدنا بمجيئه موسى نبي الله ؟) قال: نعم والله ، قال : أعرفته وثبته قال : نعم قال: فما في نفسك منه

(أي قال عمّ صفية لأبيها : وماذا تقول في نفسك بعد أن عرفته بأنّه هو النبي أتؤمن به أم ماذا تصنع؟) قال: عداوته والله ما بقيتُ (يعني على الرغم من أني عرفت بأنّه هو النبي نفسه الذي بشرنا موسى بمجيئه إلّا أني مع ذلك سأبقى أُعاديه ما بقيتُ حيًّا وما بقي حيًّا.

وقال ابن اسحاق وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم وكان حبرًا وعالمًا (من أحبار اليهود) قال: لما سمعتُ برسول الله ﷺ عرفتُ صفته واسمه وزمانه الذي كنّا نتوكف له (ونترقب لمجيئه) فكنتُ مسرًّا لذلك صامتًا عليه لا أُحدث أحدًا بذلك ، فبقي هذا السرّ عندي حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة ، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف (مهاجرًا من مكة إلى المدينة) أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة أعمل فيها وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبَّرتُ (فصحت الله أكبر) فقالت لي عمتي حين سمعتْ بتكبيري : خيبك الله والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادمًا ما زدتَ (وما كبَّرتَ هذا التكبير ، وابتهجت هذا الابتهاج) قال : فقلت لها: أي عمّة (يا عمَّة) هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه بُعث بما بعث به قال : فقالت : أي ابن أخي (يا ابن أخي) أهو النبي الذي كنا نخبر أنّه يبعث مع نفس الساعة؟ قال: فقلت لها نعم ، فقالتُ فذاك إذن ، قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا.

قال وكتمتُ (وأخفيتُ) إسلامي (عن قومي) من يهود ، ثم جئتُ رسول الله ﷺ فقلتُ : يا رسول الله أنّ يهود قوم بُهت (أنّهم قوم باطل وكذّابون لا يقولون بالحق الذي عرفوه وهو ما مذكور من صفتك في التوراة) وإنّي أُحبُّ أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ، ثم تسألهم عني حتى يخبروك

كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي ، فإنّهم إن علموا به بهتوني (وكذبوني) وعابوني.

قال فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وساءلوه ثم قال لهم : أيّ رجل الحصين بن سلام بينكم؟ قالوا: سيدنا وحبرنا وعالمنا قال: فلما فرغوا من قولهم : خرجتُ عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوا الله إنّكم لتعلمون أنّه لرسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنّه رسول الله وأُؤمن به وأعرفه وأصدقه فقالوا : كذبتَ ثمَّ وقعوا بي ، فقلتُ لرسول الله ﷺ ألَم أُخبرك يا رسول الله أنّهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور قال : فأظهرت (حينئذ وأعلنت) إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمتْ عمتي خالدة بنت الحارث فحسن إسلامها.

اللهم إنّا نشهد أنّك أنت الله لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك ونشهد أنّ محمدًا عبدك ورسولك ، أرسلته بالحق بشيرًا ونذيرًا ، اللهم إنّا آمنّا فاكتبنا مع الشاهدين.

الدرس الثالث والعشرون

(أفي الله شكّ)

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

قال الله تعالى: (أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الأبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)﴿الغاشية ١٧﴾ وجَّه القران الكريم العرب إلى النظر إلى الإبل ؛ ليشعروا من خلال تأملهم في تركيب هذا المخلوق بوجود الله وقدرته ؛ وخصت الإبل هنا بالذكر لعناية العرب بها ولأنّها تعد من أكثر دوابهم.

من المواضيع الرئيسة في كتب العقائد الإسلامية موضوع أدلة وجود الله ، ومن أهم هذه الأدلّة ما أودع الله في مخلوقاته من نظام وتدبير دالّ على عظم المنظم والمدبر، وفيما يأتي نماذج من ذلك:

١- أقدام الحيوانات والطيور: زُوِّد كل حيوان وطائر بأقدام ملائمة لطبيعة الأرض التي يرتادها فلكون الجمل مثلًا موطن معيشته الأساسي، رمال الصحراء ، فقد جعلت أرجله تنتهي بأظلاف مشعوفة تحتها وسادة لينة ثخينه تسمى الخف تمنع القدم من الغوص في الرمال ، وعلى أرجله كذلك أربعة من جلد خشن تحميه من الحصى والرمال عندما يبرك ، والطيور التي يستلزم أمر معيشتها البحث عن غذائها في الماء تتصل أصابعها بغشاء جلدي تستعمله كالمجذاف في سباحتها.

٢- مناقير الطيور: لم يُزوَّد الطير بفم ذي أسنان ؛ لأنّه يبتلع غذاءه بدون مضغ لذلك زُوِّد بدلًا من الفم بمنقار ، ثم اختلفت مناقير الطيور لاختلاف طريقة بحثها عن الغذاء ، فقد زُوِّد البط والوزّ بمناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء في الطين والماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان تساعدها على قطع الحشائش ، وزُوِّدت

الطيور الجارحة كالحدأة (١) والبوم بمنقار قوي مقوس حاد لتمزيق اللحوم ، أما الدجاج والحمام وبقية الطيور التي تلتقط الحبّ من الأرض فمناقيرها قصيرة مدببة، ومنقار البجعة طويل طولًا ملحوظاً ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد ، إذ إن السمك غذاء البجعة(٢) الأساسي ومن أعجب المناقير التي شاهدها علماء التاريخ الطبيعي وذكروها في أكثر من موضوع من مواضيع الدراسة مناقير غربان نيوزلندا ، إذ يختلف منقار الذكر عن منقار الأنثى اختلافًا واضحًا، فمنقار الذكر صلب قوي سميك على حين أنّ منقار الأنثى طويل مدبب معقوف مقوس، يضرب الذكر ساق الشجرة المصابة بالسوس بمنقاره القوي حتى ينتهي الى موضع الدود فيها، عندئذ ترسل الأنثى منقارها الطويل المعقوف إلى داخل الساق فتخرج الدود منه ويتقاسماه معًا، فقد زُوّد كل طائر بمنقار يلائم طريقة بحثه عن غذائه الذي يحتاج إليه حتى ذكر علماء الطبيعة أنّه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أيّ طائر كان من النظرة العابرة إلى منقاره ، فلو جُعل مثلًا منقار النسر كمنقار الحمام ، ومنقار الحمام كمنقار النسر، لما استطاع كل منهما أن يستخدم منقاره ، ولاستحالت عندئذ عيشته ؛ لأنّ النسر لا يستطيع أن يمزق اللحم بمنقار الحمام ، ولا يستطيع الحمام أن يلتقط الحبَّ بمنقار النسر، فمن وضع كل خلق في موضعه المناسب؟ أليس هو الله سبحانه؟.

٣- عظام الطيور: اتضح بالتشريح أنّ عظام الطير رقيقة مجوفة لجعله خفيف الوزن وقادرًا على الطيران.

٤-ريش الطيور: الطيور التي تضطر أن تبقى مدة طويلة في الماء من أجل الحصول على غذائها ، قد زُوِّد ريشها بمادة دهنية خاصة تمنع من تعلق الماء بجسم الطائر ؛ لذا لا تحسّ بالبرودة ولا يصل الماء إلى أجسادها

---

(١) الحدأة: من الطيور الجارحة التي تنقض على الجرذان والدواجن ونحوها.
(٢) البجعة: طائر طويل العنق والساقين والمنقار.

، فمن علم أنّ هذه الطيور تحتاج إلى هذه المادة الدهنية فزودها بها دون سواها؟!.

٥-بصر الطيور: من طريف ما أيده العلم حديثًا أنّ معظم الحيوانات الثدية (ذات الثدي) تمتاز بحاسة شمٍّ قوية وحاسة بصر ضعيفة ؛ ذلك أنّها تهتدي إلى غذائها الذي يكون دائمًا على الأأرض في طريقها بحاسّة الشمّ ، ولا تحتاج إلى حدة البصر لقرب غذائها منها، على حين أنّ حاسّة البصر عند الطير قوية ؛ ذلك أنَّ الطيور، وهي في السماء ، تحتاج إلى حدة في البصر لترى غذاءها من على بعد مرتفع عن الأرض.

٦-تخدير الحيوان فريسته : تستطيع طوائف من العناكب والزنابير أن تحفظ لحوم فرائسها أسابيع من غير أن يفسد ؛ ذلك أنّها تحتاج إليها طريّة ، ولمّا كانت لا تستطيع أن تظفر بهذه اللحوم كلّ يوم ، تعمد إلى إفراز مادة في أبدان ما زاد عن حاجتها من الحشرات التي تتغذى عليها، فتخدّرها بهذه المادة دون أن تميتها، ليبقى غذاؤها طازجًا، بل حيًّا لحين استهلاكه وقد يصيد الزنبور الجندب(١) فيخدره ثم يحمله ليتغذى عليه صغاره حين يولدون، ولم يتمكن العلماء لحد الآن من صنع مثل هذه المادة لتخدير ذبيحة الإنسان، فمن صنع هذه المادة وزَوَّد بها هذه المخلوقات؟!.

٧-قردة تعالج نفسها : راقب العلماء في تنزانيا أحد القردة من نوع جيونون (**Guenon**) نهكها المرض وفقدت الشهية لكنها لم تيأس من حالها ففتشت عن شجر معين اسمه العلمي **ve monia anyo do lina** وهي من الأشجار التي لا تأكلها هذه القرود عادة ، وقد قامت هذه القردة المريضة بمضغ الأغصان دون بلعها لاستخراج عصارتها ، فوجد العلماء احتواءها على مواد كيمياوية قاتلة للديدان والطفيليات ومواد شافية لبعض الاضطرابات الهضمية ، مما أدى إلى شفاء القردة مما كانت تعانيه.

---

(١) وهو نوع من الجراد.

من أرشد هذه القردة إلى هذا الدواء الذي يجب أن تستعمله لتشفى من دائها؟! إنّه : (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(طه: ٥٠).

٨-الخفاش : حيّرت العلماء قدرة الخفاش على تفادي الاصطدام بالمباني والأشجار والأسلاك الكهربائية وغيرها ، فهو يطير في الليل مع ضعف بصره ، وقد تقدم العالم الإيطالي سبالانزالي بالتحقيق من هذه القدرة بتجربة لطيفة ، إذ علّق في سقف حجرة عددًا من الحبال في نهاية كلّ منها ناقوس صغير يدق إذا لمس هذه الحبال ، ثم أظلم الغرفة إظلامًا تامًّا وأطلق فيها خفاشًا ، وطار الخفاش مرارًا ، ولكنه لم يمسَّ هذه الحبال ؛ اذ لم يدق أي ناقوس كان ، وقد علل العلماء هذه القدرة بأنّ جلد الخفاش يرسل اهتزازات تعود عليه إذا اصطدمت بشيء فيعلم به فيتجنبه ، وإنّ نظرية معرفته بالأجسام دون رؤيتها تُعدُّ نفس نظرية الرادار الذي اخترع في عصر الذرة ، فمن زَوَّدَ هذا الطائر بهذا الرادار الطبيعي ؛ ليكون عوضًا عن فقدان بصره؟! فتبارك الله أحسن الخالقين.

٩-لغة النحل : في كتاب الألسنية: علم اللغة الحديث، تأليف ميشال زكريا، دكتوراه في الألسنية من جامعة باريس ، وردتْ هذه المعلومة عن لغة النحل أنقلها بايجاز.

من المعروف أنّ النحلة بعد أن تكشف مصدر الطعام تتغذى عليه ، ثمّ تعود إلى خليتها فتؤدي أمامهم نوعًا من الرقصات المعينة تكون على شكل رقم (8) ثمانية باللغة الانكليزية ، فتكرر هذه الرقصة بعدد معين وبدائرة معينة ، وبشكل مائل إلى اليمين أو إلى الشمال ؛ لأنّ ذلك كله محسوب لتحديد المسافة والجهة ، وتنظر بقيّة النحل إلى رقصة رفيقتهم فيفهمون منها جيِّدًا مكان الطعام ، فسرعان ما تتهافت عليه دون أن ترافقهم النحلة التي اكتشفته ، وقد تصل المسافة المشار إليها الى ستة كليومترات.

والإنسان برغم ما وهبه الله من عقل ميَّزه بهذا العقل من الحيوان فإنّه لا يستطيع أن يتفاهم بهذه اللغة مهما دُرِّبِ عليها ، فمن علَّم النحل هذه اللغة ودَرَّبها هذا التدريب؟!.

١٠–تحريك الدجاجة لبيضها : خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض دون حضانة الدجاجة ، فلمّا جمع البيض ووضعه في جهاز التفريخ نصحه فلاح أن يقلب البيض ؛ إذ رأى الدجاجة تفعل ذلك ، فسخر منه العالم معتقدًا أنّ الدجاجة تفعل ذلك لإيصال حرارة جسمها إلى أسفل البيضة ، أمّا هو فلا يحتاج إلى تقليب البيض بعد أن أحاطه بجهاز يشع حرارة ثابتة من الجهات جميعها، واستمرّ العالم في عمله حتى جاء وقت الفقس وفات ميعاده ، ولم تفقس بيضة واحدة ، أعاد التجربة وقد استمع إلى نصيحة الفلاح فقلَّد الدجاجة فصار يقلِّب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريخ.

والتعليل العلمي لتقليب البيض هو أنّ الفرخ حين يخلق في البيضة، ترسب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه ، فإذا بقي بدون تحريك تتمزق أوعيته ؛ لذلك لا تقلِّب الدجاجة بيضها في اليوم الأخير ، فمن علّم الدجاجة هذا العلم الذي جهله العالم الأمريكي؟!

والدجاجة لم تفعل ذلك لعلمها بالعلة العلمية المذكورة ، إذ هذه العلة جهلها من له علم وعقل وكيف يمكن أن تعلم بها ما لا علم لها ولا عقل؟ وإنّما هي تقلب البيض ؛ لأنّها تجد نفسها مأمورة أن تفعل ذلك بوحي ربّاني ، فسبحان الذي يصل أمره إلى كلّ شيء (أفي الله شك)!.

يذكر علماء العقيدة الأسباب التي تدفع أُناسًا إلى الإلحاد ، ولكن الذي يبدو في الواقع أنّ السبب الأساسي الذي حمل هؤلاء إلى أنكار وجود الله هو ظلمهم ، والظالمون ليس من مصلحتهم أن يكون هناك بعث ويوم يحاسب فيه الناس ؛ لأنه إذا جاء ذلك اليوم خسروا خسرانًا مبينًا، كما قال الله تعالى

في مشركي مكة : (يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ {١٠} أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً {١١} قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ)[النازعات: ١٠-١٢].

في تفسير ابن كثير أنّ المقصود بالحافرة : الحياة بعد الموت أو هي النار، فالمشركون كانوا يقولون : لئن كانت لنا رجعة إلى الحياة بعد أن نصير عظامًا نخرة فستكون لنا رجعة خاسرة ؛ لأنّنا لم نعدّ أنفسنا لها، قال محمد بن كعب ، قالت قريش: لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرنّ .

إنّ مجيء يوم الحساب خسارة وغبنٌ للظالمين ، قال تعالى : (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)[التغابن: ٩] قال ابن عباس : التغابن اسم من أسماء يوم القيامة ؛ ذلك أنّ أهل الجنة يغبنون أهل النار، وكذا قال قتادة ومجاهد، قال مقاتل بن حيان : لا غبْنَ أعظم من أن يدخل هؤلاء الجنة ويذهب بأولئك الى النار.

سيبعث الكافرون وإن أنكروا يوم البعث ويحشرون إلى النار برغم أنوفهم ، وفي تفسير ابن كثير أيضًا قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أُبَي بن خلف، لعنه الله ، إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظيم رميم (عظم صغير لميت قد بليَ) وهو يفتّه ويذروه في الهواء ، وهو يقول: يا محمد تزعم أنّ الله يبعث هذا؟ قال ﷺ نعم يميتك الله ، ثم يبعثك ، ثم يحشرك إلى النار.

يعذب الكافرون بعد موتهم في قبورهم ويستمر العذاب إلى أن ينفخ إسرافيل نفخة الصعق، قال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ) {الزمر: ٦٨}.

وفي نفخة الصعق يموت كلّ مخلوق ويهلك كل شيء ، قال تعالى : (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[القصص: ٨٨} حتى الأموات المعذبون في قبورهم يهلكون بأن ينقطع عنهم الإحساس بعذابهم،

وتبقى هذه الحالة مدة لا يعلمها إلّا الله ، ورد في الحديث أنّها تستمر أربعين عامًا ، ثم ينفخ إسرافيل نفخة البعث التي فيها تحيا الخلائق ويبعثون من قبورهم قال تعالى : (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ {٥١} قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ){يس: ٥١-٥٢}.

ومعنى الأجداث: القبور فهم منها ينسلون ويخرجون، إنّهم كانوا قبل بعثهم نائمين سعيدين بنومهم، وإنّهم اليوم يبعثون لحسابهم وعذابهم ؛ لذلك يقولون متحسرين : من بعثنا من مرقدنا ، من أيقظنا من نومتنا، تجيبهم الملائكة: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.

وفي الحديث الذي رواه البخاري ، وقد تقدم ذكره في كتابي : مواعظ إسلامية ، يذكر رسول الله ﷺ قصّة رجل من بني إسرائيل أسرف على نفسه بارتكاب المعاصي، عندما حضرته الوفاة نادى أأبناءه وأوصاهم بأنّه إذا مات فعليهم أن يحرقوه حتى يصير رمادًا، ثم يذرّوا هذا الرماد في يوم عاصف شديد هبوب رياحه ، يذرّوا نصفه فوق البحر ونصفه فوق الصحارى ، ثم قال: والله لئن قدر الله عليَّ، يعني لئن قدر الله على إعادتي حيًّا بعد مماتي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين ظنًّا أنّ هذه الطريقة تبعده من ملاقاة ربه ، فلمّا مات وفعل به أبناؤه ما أوصاهم به أمر الله ، سبحانه وتعالى ، ملائكة البحر وملائكة البرّ أن يجمعا ذرات جسمه فجمعت ، فعاد كما كان بجسده نفسه كامل الأعضاء فمثل بين يدي رب العالمين ، فخاطبه الله : يا عبد لِمَ فعلت بنفسك هذا؟ قال: من خشيتك يا رب وأنت تعلم ، فغفر الله له جزاء خوفه منه ، فما أعظم الله! وما أرحمه.

فلا مفرّ من مجيء يوم البعث والحساب، إذن لا مفرّ من الإيمان بوجود الله ؛ لنستعد لملاقاة ذلك اليوم العصيب ، اللهم يسِّره علينا تيسيرًا ، اللهم آمين.

الدرس الرابع والعشرون

من معاني الحج في الاسلام

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا وأهلينا وأموالنا اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا ، اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بك أن نغتال من تحتنا.

قال الله تعالى : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {٩٦} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ){ال عمران:٩٦- ٩٧}.

قال ابن كثير في تفسيره : "يخبر الله تعالى أنّ أول بيت وضع للناس أي: لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون به ويعتكفون عنده (للذي ببكة) يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي اليهود والنصارى أنّهم على دينه ومنهجه ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه".

وهذه علامة واحدة من علامات كثيرة على أنّ الاسلام حق وما سواه زيغ وباطل.

"وبكة" من أسماء مكة على المشهور وقيل سميت ذلك... لأنّ الناس يتباكّون فيها أي : يزدحمون ، قال قتادة : إنّ الله بَكَّ بها الناس جميعًا فيصلي النساء أمام الرجال ، ولا يفعل ذلك ببلد غيرها".

وقال الله تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لابْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ){الحج: ٢٦}

ذكر الله تعالى أنّه بوَّأ لإبراهيم مكان البيت ، أي: أرشده إليه وسلّمه له وأذن له في بنائه واستدل به كثير ممن قال: إنّ ابراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وأنّه لم يُبن قبله كما ثبت في الصحيح عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول؟ قال: المسجد الحرام (يعني الكعبة في مكة) قلت ثم أي: قال: بيت المقدس قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة.

وبعد أنّ أتم إبراهيم عليه السلام بناء الكعبة أمره أن يدعو الناس للحج اليها قال الله تعالى : (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ {٢٧} لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِير)[الحج: ٢٧].

أي: ناد في الناس داعيًا لهم الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه فذكر أنّه قال : يا ربِّ ، كيف أُبلغ الناس وصوتي لا ينفذهم ؟ فقال (جل وعلا) ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر ، وقيل على الصفا ، وقيل على (جبل) أبي قبيس(١) وقال : يا أيّها الناس إنّ ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه فيقال: إنّ الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض (شرقًا وغربًا) وأسمع مَن في الأرحام (في بطون أُمهاتها) ومَن في الأصلاب (أصلاب آبائها ممن لم يولدوا بعد) وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله (له) أن يحج إلى يوم القيامة (فأجابوا صوته جميعًا بقولهم) لبيك اللهم لبيك.

وهذا المضمون ما ورد عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، والله اعلم.

---

(١) أبي فبيس من أعظم جبال مكة ، وهو أحد الاخشبين اللذين تقع بينهما مكة ، والثاني قيقعان.

وقد شرع الإسلام للمطوف حول الكعبة استلام الحجر الأسود وتقبيله ؛ ذلك أنّ هذا الحجر رمز لتوحيد المسلمين.

وورد في الأحاديث النبوية أن الحجر الأسود نزل من الجنة ، وكان أشدّ بياضًا من اللبن فسودته خطايا بني آدم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر الأسود: "والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ، ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق". رواه الترمذي وقال حديث حسن وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما. واستلامه بحق: أن يعلم أنه حجر لا يضر ولا ينفع ، ولكنه يفعل ذلك تقربًا إلى الله واقتداء برسول الله (ﷺ).

وورد في الأحاديث النبوية أيضًا أنّ الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه ، وأنّه شافع ويشهد لمن استلمه.

يؤدي المسلمون الصلوات الخمس في المسجد القريب من بيوتهم فبفضل هذه الفريضة يجتمع أبناء الحيّ الواحد كل يوم خمس مرات ، ويؤدون صلاة الجمعة في الجامع القريب من أحيائهم ، فبفضل خطبة الجمعة يجتمع أبناء عدة أحياء مرة في كل أسبوع .

وفي فريضة الحج يتفاطر المسلمون من مختلف مدن العالم فيجتمعون في صعيد واحد لأداء مناسك هذه الفريضة.

والحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام ، وفي تأدية هذا الركن تتحقق أغراض روحية وبدنية وسياسية واجتماعية وكونية.

١-الأغراض الروحية :

زيارة مكة والمدينة تذكر المسلمين بسيرة نبيهم (ﷺ) بولادته ونشأته وبهجرته وهجرة صحابته رضي الله عنهم ، وكيف أنّهم تركوا بلدهم وأموالهم وأولادهم وأهليهم من أجل أن يوصلوا إلينا هذا الدين كما أُنزل من ربّ العباد.

وفي هذا التذكر استحضار لمآثر الجهاد والاستشهاد في سبيل الله فيزداد الحجاج المسلمون إيمانًا على إيمانهم ، وتزداد مشاعر حبهم للنبي (ﷺ) وللرعيل الأول من المسلمين رضي الله عنهم.

والزحام الشديد الذي يلقاه الحجاج في عرفات وفي رمي الجمرات وفي السعي والطواف يذكر المسلمين بالزحام الذي سيكون عليه الناس يوم الحساب.

ومن مناسك الحج الإحرام من الميقات حتى الفراغ من طوائف القدوم ، وكذلك عند التوجه إلى عرفات حتى الفراغ من جمرة العقبة ، والإحرام : هو تجرد الحاج من الملابس ومن كل ما هو مخيط ، فيرتدي إزارين غير مخيطين ، الأول: يلفّه على بطنه ورجليه يستر عورته من السرة إلى الركبيتن ، والثاني: يضعه على صدره وكتفيه ، ويلبس نعلًا يكون أغلب وجه القدم فيه مكشوفًا.

فقد أُريد بهذا الزي أن يكون الحاج شأنه شأن الذين يحشرون يوم القيامة حفاة عراة ، قد تركوا الدنيا وأموالهم فيها خلف ظهورهم وجاؤوا إلى ربهم فرادى مجردين من كل متاع دنيوي.

فتأدية مناسك الحج تجعل الحجاج يتذكرون أهوال يوم القيامة ومواطنه المختلفة فتفيض نفوسهم بالمعاني الروحية ويخف تعلقها بالدنيا وحطامها الفاني ، وبهذا تصلح النفوس وبصلاحها يصلح المجتمع.

٢-الغرض الدنيوي :

يعوِّد الحج الإنسان على تحمل الشدائد ، فالسفر قطعة من العذاب كما قال عليه الصلاة والسلام، والحاج في حجه يؤدي مناسك الحج وهي الطواف حول الكعبة سبعة أشواط ، يؤدي ذلك عدة مرات مشيًا وهرولة ، ويؤدي كذلك السعي بين الصفا والمروة يؤديه أيضًا سبعة أشواط مشيًا وهرولة ،

وهناك الوقوف في عرفات والزحام والشدة التي يلقاها الحجاج عند رمي الجمار الثلاث لمدة يومين أو ثلاثة.

مما لا شك فيه أن تأدية هذه المناسك رياضة بدنية ، وقد أصبح من المعروف اليوم أنّ الرياضة البدنية تزيد من قوة البدن وصحته وتقيه من كثير من الأمراض.

٣-الغرض السياسي :

الحج مع أنّه عبادة يُعدُّ مؤتمرًا إسلاميًّا إلّا أنّه يفوق المؤتمرات العالمية الدولية بأمرين:

أولهما: أنّ المسلمين في مؤتمر الحج يجتمعون في كلّ عام في المكان والزمان المعينين من دون ن يختلفوا في مكان الاجتماع أو زمانه.

والثاني : أنّ في المؤتمرات الدنيوية العالمية تجتمع الملوك والوزراء فحسب ، ومن المعروف أنّ المشاكل التي يعالجونها هي القضايا التي تهمّ شعوبهم ، أمّا مؤتمر الحج ففيه تجتمع الملوك والشعوب وبزيٍّ واحد على اختلاف أجناسها ولغاتها ، فيتحقق في هذا المؤتمر أن يجتمع أصحاب الشأن فيما بينهم ومعهم أمراؤهم ، ومثل هذه المزية وتلك لم تتحقق في أي مؤتمر دنيوي كان في العالم ، ولم ولن تجدها إلّا في ظل هذه الفريضة من فرائض الإسلام.

٤-الغرض الاجتماعي :

يدعو الإسلام إلى المساواة بين الناس وفي الفرائض الإسلامية تطبيق لهذا الغرض ، فالمسلمون في صلاة الجماعة التي تقام خمس مرات كل يوم يقفون صفًّا واحدًا جنبًا إلى جنب كأنّهم بنيان مرصوص على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية.

وفي الحج يتحقق هذا الغرض بصفة أشدّ وعلى نطاق أوسع فالمسلمون في الحج يرتدون جميعًا زيًّا واحدًا ، هو زيّ الإحرام وبه يؤدون

المناسك، لا فرق بين حاكمهم ومحكومهم ، ولا بين غنيهم وفقيرهم ، ولا بين أَسودهم وأَبيضهم ، فلباسهم واحد، وعلَمهم واحد، وتلبيتهم واحدة ، فتطبق في تأدية مناسك الحج المساواة العملية بأجمل معانيها وأشمل نواحيها.

وقد أكد التربويون قديمًا وحديثًا أنّ من الوسائل الرئيسة لاكتساب الفضائل هي العادة ، والعادة تأتي عن طريق التطبيق العملي، وهذه هي إحدى الوسائل التي يتبعها الإسلام في تربية المسلم ، فالإسلام مثلًا يدعو إلى عدم الإسراف في استعمال الماء عند الوضوء حتى لو كان المصلي يتوضأ من شاطئ نهر جار ؛ ذلك ليتعود المسلم على عدم التبذير، والمسلمون في الحج يمارسون فضيلة المساواة بصفة عملية للتحلي بها وتطبيقها في أعمالهم ومعاملاتهم مع إخوانهم إذا رجعوا إلى أوطانهم بعد أن تعودوا عملًا على ممارستها في حجّهم ، فما أجمل هذا الدين وما أجل فرائضه!.

٥-الغرض الكوني :

تميّز الحج من بين الفرائض الإسلامية بوضوح صلته بالكون والكائنات ، فمن مناسكه الأساسية الطواف حول البيت ويؤدي الحاج هذا المنسك ثلاث مرات في الأقل ، وفي كل مرة يدور حول الكعبة سبعة أشواط.

وقد فرض الإسلام على الحاج أن يجعل الكعبة عن يساره في اثناء طوافه ، أي وجب أن يدور حولها من اليسار إلى اليمين ، فَلِمَ جعل الطواف بهذا الاتجاه ، ولم يجعله من اليمين إلى اليسار؟ ما السرّ في ذلك؟.

من الحقائق المعروفة لدى علماء الفلك أنّ الأرض تدور حول نفسها من اليسار إلى اليمين ، وكذلك الحال في الذرة التي هي أصغر شيء في المادة ، فقد وُجِد أنّها تتألف من نواة تقع في الوسط ، وحولها ألكترونات ، وهذه الألكترونات تدور أيضًا حول النواة من اليسار إلى اليمين ، فالكائنات

من الذرة إلى المجرة ، تدور جميعها عكس عقارب الساعة ، فتتبع المنهج نفسه ، إلّا ما شذّ منها .

وكذلك الحيوانات المنوية حين يقذفها الرجل في رحم زوجته ، يقول الأطباء عنها أنّ هذه الحيونات التي تُعدُّ بالملايين تتحرك وتتموج في الرحم تريد أن تلتقي بالبويضة ، وهي تدور بصفة عامة أيضًا في أثناء تموجها من اليسار إلى اليمين.

وكذلك أريد من المسلم في حجه أن يطوف حول الكعبة بالاتجاه نفسه من اليسار إلى اليمين ليشارك الكائنات كلّها في هذا المنهج الكوني العام ؛ لتكون طريقة عبادتهما واحدة ؛ لأنّ ربّهما واحد.

وهذا هو إحدى معجزات هذا الدين العظيم ، فلو سئل قبل بضعة قرون أعلمُ المفسرين ، وأيّ عالم كان في الدنيا ، لِمَ فرض الله على المسلم أن يطوف بهذا الاتجاه ؟ لما استطاع الإجابة عنه ، إلّا أنّ يقول ، هكذا أمر الله ، وعلينا أن نستجيب ، وعلينا بأن نؤمن بأنّ الإسلام دين الله لا يأمر إلّا بالحق سواء عرفنا العلة أم لا .

أما اليوم، وبعد أن علّم الله الإنسان في هذا العصر ما لم يعلم من قبل ، فقد تبيّنت الحكمة بجلاء وتبيّن معها أنّ الإسلام من عند الله.

وثمة مسألة أخرى في هذا الباب أنّ من الحقائق الفيزيائية أن دوران الشيء حول نفسه ، أو حول شيء آخر يولِّد عزمًا للسير في اتجاه معيّن ، تتحكم في تعيين هذا الإتجاه حالة الدوران ، فإذا كانت من اليمين إلى اليسار، كدوران عقارب الساعة كان عزم الحركة متجهًا نحو الأسفل ، وإذا كانت من اليسار إلى اليمين كطواف المسلمين حول الكعبة كان عزم الحركة متجهًا نحو الأعلى.

والحجاج يبتغون من طوافهم رضا ربّهم الذي فوقهم في السماوات العلا قال الله تعالى : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ){النحل ٥٠}،

فهم يبتغون من أداء هذه الشعيرة أن تصعد عبادتهم وأعمالهم إلى الله تعالى وأعمال العباد كلّها تصعد إلى ربّها قال الله تعال : (مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ){فاطر: ١٠}.

ففي هذا الطواف تتحد الحقائق الفيزيائية والحقائق الروحية ؛ ليكون ذلك دليلًا على وحدانية الربّ والآمر والخالق ووحدة المصير.

ودوران الأجرام الكونية من اليسار إلى اليمين يؤلف قوة طاردة تبعد الأجرام عن بعضها ؛ مما يؤدي إلى اتساع المسافات بينها وإلى اتساع الكون.

ولم يجعل الله سبحانه الأجرام تتحرك وتدور من اليمين إلى اليسار ؛ لأنّ دورانها بهذا الاتجاه يؤدي إلى اقترابها من بعضها واصطدامها وانكماشها حتى تصبح الكائنات كلها كتلة واحدة وجرمًا واحدًا ، وفي هذا خراب الدنيا والحياة على الأرض والكون بأسره ، والإسلام في تشريعاته ومنهج عبادته موافق لمنهج الكون ، فكما يسير الكون بأجرامه بانتظام فكذلك الإسلام يسير بمجتمعاته التي يحكمها إلى طريق الأمان والسلام.

اللهم كما وحَّدتَ عبادتنا وحِّدْ قلوبنا ولا تحرمنا زيارة بيتك في الدنيا ولا تحرمنا رؤية وجهك الكريم يوم الدين اللهم آمين.

الدرس الخامس والعشرون

(وكلّ شيء أحصيناه كتابًا)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

استطاع الإنسان في الوقت الحالي من صنع آلة تسجل صورة الشيء وحركته وصوته سميت (التلفزيون) فإذا قدر الإنسان على تسجيل عمل الناس وكلامهم وحفظهما وعرضهما في أيّ وقت شاء للتسلية أو لتكوين شهادة واقعة على إجرام المجرم ، أفليس الله قادرًا ، وهو الخالق ، على صنع مثل ذلك وتسخيره لتسجيل أفعال عبده وأقواله لعرضها أمامه يوم القيامة لحسابه؟!

لقد أخبرنا الله أنّه تبارك وتعالى يعلم نياتنا، وقد أثبت العلم الحديث أنّ الإنسان إذا فكَر في شيء نقش تفكيره هذا في نفسه ، في مكان ما ورسمت حروفه رسمًا لا تندرس أبدًا.

ورد في كتاب (الإسلام يتحدى) تأليف وحيد الدين خان ، تعريب ظفر الإسلام خان، المعلومات الآتية:

"إنّ أفكارنا جميعها تحفظ كاملة ، ولسنا قادرين على محوها أبدًا، يقول فرويد في محاضرته الحادية والثلاثين... حتى تأمّلاتنا الخيالية التي دفنت في اللاشعور، في مكان من أنفسنا لا نشعر بها ، تكون أزلية أبدية في الحقيقة والواقع ، تبقى إلى ما لا نهاية ، وتبقى محفوظة لعشرات السنين، وكأنّها لم تحدث إلّا أمس."

وقد سلَّم علماء النفس بهذه النظرية ، بصفة عامة اليوم ، ومعناها: أنّ كل ما يخطر على بال الإنسان من خير أو شر، وكل ما ينوي به ، ويفكر به ينقش في صفحة اللاشعور ، ولا يزول إلى الأبد ، ولا يؤثّر فيه تغيّر الزمان وتقلب الحدثان. قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ){ق : ١٦}

فالإنسان إذا مات لا يموت ما كان ينويه ويفكّر به ؛ لأنّ النيات والأفكار هذه تحفظ في مكان من الروح لا في مكان من الجسد ، إذن هي لا تفنى بفناء الجسد ، بل تبقى حتى بعد موت صاحبها ؛ لأن الروح باقية لن تموت.

فهذه نياتنا أثبت العلم الحديث أنّها تسجل في أنفسنا وأرواحنا ولا تمحى ، وكذلك أثبت أنّ أقوالنا أيضًا تسجل في الفضاء ولن تزول أو تضمحلّ.

ولتناول هنا مسألة القول ، إنّ الآخرة تقول بأنّ الإنسان مسؤول عن أقواله ، فجميع ما يلفظه من كلام حسنًا كان أم قبيحًا، يحفظ في سجل. قال تعالى: (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق: ١٨] وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة ليتم حساب الإنسان ، وإمكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث ، فنحن نعرف قطعًا أنّ أحدًا عندما يحرك لسانه ليتكلم يحرك موجات الهواء ، وقد ثبت أنّ هذه الموجات تبقى كما هي في الأثير ، تبقى في الفضاء إلى الأبد، بعد حدوثها للمرة الأولى ، ومن الممكن سماعها مرة أخرى ، ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات ، أو بعبارة أصح ، عاجز عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى مع أنّها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد ، ولم يبد العلماء اهتمامًا خاصًّا بهذا المجال حتى الآن بعد أن سلّموا نظريًّا بإمكان صنع آلة لالتقاط أصوات الناس الذين عاشوا في الأزمان الماضية ، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال ، على أنّ المسألة الكبرى التي نواجهها في هذا الصدد ليست التقاط الأصوات القديمة ، وإنّما التمييز بين الأصوات الكثيرة حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة ، وهذه مسألة الإذاعة التي وصلنا فيها إلى حل ، فإنّ آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء في كل اتجاه بسرعة الضوء التي تقدر بـ(١٨٦) ألف ميل في الثانية، وكان من المعقول جدًّا

عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطًا هائلًا من الأصوات لا نفهم منه شيئًا ، ولكن هذا لا يحدث ؛ لأنّ محطات الإذاعة جميعها ترسل برامجها على موجات يختلف طولها ، فنستطيع أن نسمع أيّ موجة كانت من المذياع بمجرد أن ندير عقربه إلى المكان المطلوب.

إنّ علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرّق بين أصوات الزمن القديم ، ولو استطاعوا لكنّا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمانه بأصواته ، وبناءً على هذا يثبت إمكان سماع الأصوات القديمة في المستقبل فيما لو نحجنا في اختراع الآلة المطلوبة ، ومن ثَمَّ لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأنَّ كل ما ينطق به الإنسان يُسجَّل ، وهو محاسب عليه يوم الحساب.

ولتوضيح ما تقدم يمكن أن نذكر هنا ما حدث للدكتور مصدق ، رئيس إيران عندما كان مسجونًا في أثناء محاكمته عام ١٩٥٣م فقد رُكِّبت في غرفته آلة تسجيل تتحرك من تلقائها ، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته ، وقد عُرضت أشرطة التسجيل أمام المحكمة شهادة عليه ، وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة.

فنياتنا تُسجَّل في أنفسنا ، واقوالنا تُسجَّل في الفضاء كما ثبت ذلك عند العلماء ، وكذلك ثبت عندهم أنّ أعمالنا يسجلها المحيط الذي نعيش فيه ، ثم تبقى لا يعتريها تغير أو زوال ، فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأنّ أعمالنا جميعها ، سواء باشرناها في الضوء أم في الظلام ، فرادى أم مع الناس ، هذه الأعمال كلها موجودة في الفضاء في حالة الصور ، ومن الممكن في أيّة لحظة كانت تجميع هذه الصور حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما من اعمال خير أو شر طوال حياته.

فقد أثبتت البحوث العلمية أنّ كل شيء يحدث في الظلام أو في النور جامدًا كان أم متحركًا، تصدر منه حرارة بصفة دائمة في كل مكان وفي كل

حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تمامًا ، وقد تمّ اختراع آلة دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تصدر عن كل كائن ، ثم تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة له ومثاله : أنني أكتب الآن في مكتبتي وسوف أُغادرها بعد ساعة ، ولكنَّ الموجات الحرارية التي خرجت من جسدي في أثناء وجودي في مكتبتي ستبقى دائمًا، ويمكن الحصول على تسجيل لجلستي في المكتبة في أيِّ وقت كان بوساطة تلك الآلة ، غير أنّ الآلات التي تمّ اختراعها لحدِّ الآن لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلّا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث ، أمّا الموجات القديمة للذين عاشوا قبل آلاف السنين فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها ، وتستعمل في هذه الحالة أشعة قادرة على التصوير في الظلام والضوء على حدٍّ سواء.

ولقد بدأ العلماء في برطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم ، فذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة وأدَّى ذلك الى معرفة نوع الطائرة.

فلقد أطلق على هذه الآلة اسم (آلة التصوير الحرارية) ونشرت جريدة هندوستان تايمز الهندية تعليقًا بمناسبة هذا الاختراع قالت فيه : إنّنا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل"، ومن الممكن أن تنتهي هذه العملية إلى كشوف عجيبة تغيّر أفكارنا عن التاريخ من جذورها.

وإنّي أعدّ هذا الاختراع عجيبًا كل العجب ، فإنّ تحركاتنا جميعها تُسجّل على شاشة الكون حيث لا يسعنا منعها ، أو الهرب منها سواء أكنّا في الظلام أم في النور، في الليل أم في النهار، فحياتنا كالقصة التي تصور في (الاستوديو) ثم نشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن وعلى بعد كبير من مكان التسجيل ، وهذا شأن كل ما يقترفه الإنسان وشأن

الأحداث التي يعيشها ، فإن (فيلمًا) تسجيلًا ناطقًا ومصورًا سوف يوضع بين يدي كل فرد يوم القيامة قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)(الكهف: ٤٩}

والتفاصيل العلمية التي أوردناها في الصفحات الماضية يتضح منها جليًّا أنّ أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لأعمال الإنسان كلّها ، فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد ، وكل ما ننطق به من كلمات يسجل ، فنحن نعيش أمام (كاميرات) تشتغل دائمًا ، لا تفرّق بين الليل والنهار، وأفعالنا القلبية واللسانية والعضوية كلها تُسجل بدقة تامة ، ولا يسعنا ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية إلّا ان نسلِّم بأنّ قضية كلِّ منّا سوف تقدم أمام محكمة إلهية ، وبأنّ هذه المحكمة هي التي قامت بإعداد هذا النظام العظيم لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها.

فخلاصة المعلومات التي نقلناها من الكتاب المذكور (الإسلام يتحدى) تبيّن أنّ البحوث العلمية اليوم وتجاربها قد أيّدت ما أخبرنا الله به في كتابه بأنّه سبحانه وتعالى عليم وخبير وبصير بأقوالنا وأفعالنا وأسرارنا ، وإنها مسجلة محفوظة في سجل سيعرضها الله علينا يوم الحساب. قال الله تعالى: (وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)(طه: ٧}

وقال الله تعالى: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ)(الأنبياء:١١٠}. وقال تعالى: (إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)(الأحزاب: ٥٤} وقال تعالى : (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)(الملك: ١٣} والله معنا أينما كنا قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلا هُوَ مَعَهُمْ

أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)[المجادلة : ٧]

والله يعلم ما تعنيه حركات الأعين ، ما تقصده من نظرات خائنة محرمة . قال الله تعالى : (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور)[غافر: ١٩]

وقد أخبر القرآن الكريم محمدًا ﷺ أنّ الله سبحانه وتعالى قد سمع الحوار الذي جرى بينه وبين أمرأة جاءت تجادله وتشتكي إليه من زوجها ، قال الله تعالى: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[المجادلة: ١]

قال ابن كثير في تفسيره : قال الإمام أحمد... عن عائشة– رضي الله عنها– قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله ، عز وجل (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا) الى آخر الآية وهكذا.. رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقًا.

والعلم الحديث عندما أكد أنّ الكون يسجل أعمال الإنسان وأقواله ، فإنّ القرآن الكريم قبل ذلك قد عبَّر عن هذا المعنى بلفظ (الاستنساخ) فالله سبحانه وتعالى ، لن يخبر عباده يوم القيامة بما فعلوا في الدنيا بتعداد أفعالهم ، بأن يقول لعبده : فعلت كذا وكذا ، بل يعرضها كما هي أمامهم مستنسخة طبق الأصل ، كما يستنسخ المرء اليوم صورته أو كتابه أو (جنسيته) ونحو ذلك. قال الله تعالى : (هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[الجاثية: ٢٩].

فالله سبحانه وتعالى يوم الحساب سيعرض على عبده ما كان يقول ويعمل كما يعرض ما يسمى (التلفزيون) على الناس صورهم متحركة ناطقة

كما كانت في الواقع التي يمكن تكرار عرضها في أيّ وقت كان حتى بعد أن تمرّ عليها الأعوام وينساها صاحبها.

اللهم اجعلنا من الذين نعبدك كاننا نراك ، فإن لم نكن نراك فإنّك ترانا، اللهم آمين.

الدرس السادس والعشرون

(وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلّا بِالْحَقِّ)

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

اللهم إنا نسألك من فجاة الخير ونعوذ بك من فجاة الشر.

شاع في الدنيا اليوم ن يقتل الإنسان أخاه الإنسان لا لأنّه هو القاتل ، ولكن لكونه أخا القاتل أو أباه او ابنه أو ابن عمه أو واحدّا من عشيرته. فشاع قتل الإنسان بجريرة غيره ، وقد نص القرآن الذي أنزل علينا قبل أربعة عشر قرنًا: (أَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى){النجم: ٣٨}

وهذه من عادات الجاهلية التي ما تزال طائفة من الناس تأخذ بها، وقد بين لنا الإسلام أنّه لا يستحق القتل إلّا ثلاثة : القاتل بغير حق ، والمحصن الزاني، والمرتد عن دينه ، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ : قال: قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّي رسول الله إلّا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة. رواه أبو داود والنسائي.

وعن عائشة رضي الله عها أن رسول الله ﷺ قال: لا يحلّ دم مسلم إلّا بإحدى ثلاث خصال : زانٍ محصن يُرجم ، ورجل قتل متعمدًا فيقتل، ورجل يخرج من الإسلام ، وحارب الله ورسوله ، فيقتل أو يصلب أو ينفى من الأرض.

إذا أردتَ ان تأخذ حقك كاملًا ممن ظلمك فلك أن تردّ عليه بالمثل، فتسبه كما سبك ، وتركله كما ركلك ، وتلطمه كما لطمك ، فإذا زدتَ على ذلك تصبح بهذه الزيادة عند الله معتديًا بعد أن كنتَ معتدى عليك ، وإذا عفوت وصبرت فهو خير لك ، أمّا إذا بلغت الزيادة إلى القتل فتكون قد ارتكبت جريمة تعدُّ من أعظم الجرائم على الإطلاق.

عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء" رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله ، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلّا بالحق، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .رواه البخاري ومسلم وابو داود والنسائي.

وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إذا أصبح إبليس بثّ جنوده وفرقهم ونشرهم في أنحاء الأرض "فيقول من أخذل اليوم مسلمًا ألبسته التاج قال: فيجيء هذا (فيجيء أحد الشياطين إلى إبليس) يقول لم أزل به (أحثّ الرجل المسلم على طلاق زوجته) حتى طلق امرأته فيقول (إبليس مستصغرا عمله) يوشك أن يتزوج من أخرى ، ويجيء هذا (ويجيء شيطان آخر) فيقول لم أزل به حتى عق والديه (فآذاهما وأساء إليهما) فيقول : يوشك أن يبرّهما (ويحسن إليهما) ويجيء هذا (ويجيء شيطان ثالث) فيقول: لم أزل به (بالرجل المسلم) حتى أشرك فيقول أنت أنت (معظمًا فعله) ويجيء هذا (ويجيء شيطان رابع) فيقول (لإبليس) لم أزل به (لم أزل بالرجل المسلم أحثّه على قتل أخيه المسلم) حتى قتل (وسفك دمًا حرامًا) فيقول (معظما عمله) أنت أنت ، ويلبسه التاج . رواه ابن حبان في صحيحه.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : "إنّ من ورطات الأُمور التي لا مخرج (ولا مخلص ولا منجى منها) لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله (وحقه)" رواه البخاري والحاكم وقال صحيح على شرطهما.

وأعظم هذه الورطات أن يقتل الرجل رجلًا مسلمًا مؤمنًا بالله بغير حق او يقتله لسبب لا يوجب القتل ، روى ابن ماجه عن عبدالله بن عمرو قال: رأيت رسول الله يطوف بالكعبة (في حجة الوداع أو في عمرة القضاء ، مخاطبا الكعبة التي هي أعظم شعائر المسلمين) ويقول: ما أطيبكِ وما

أطيب ريحكِ وما أعظمكِ وما اعظم حرمتكِ ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتكِ ماله ودمه.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قُتل بالمدينة قتيل على عهد رسول الله ﷺ لم يعلم من قتله فصعد النبي ﷺ المنبر. فقال: يا أيّها الناس يُقتل قتيل ، وأنا فيكم ولا يعلم من قتله ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرئ (يعني مؤمن) لعذبهم الله إلّا أن يفعل ما يشاء.

وروى الطبراني في الصغير من حديث أبي بكر عن النبي ﷺ قال : لو أنّ أهل السموات والأرض اجتمعوا على قتل مسلم لكبّهم الله جميعًا على وجوههم في النار.

وعن أأي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: لو أنّ اهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبّهم الله في النار. رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

وفي رواية لابن ماجه: ولو أنّ اهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله النار.

قال محقق الترغيب : محمد خليل هراس "قال ابن العربي وثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق والوعيد في ذلك فكيف بقتل الآدمي فكيف بالمسلم فكيف بالتقي الصالح "وقال العزيزي في شرح الجامع الصغير فهو أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله وقال الحفني: فمن قتل مسلمًا يعذب عذابًا أشدّ ممن أزال الدنيا لو فرض ذلك" ذلك لعظم مكانة المسلم والمؤمن عند الله ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ النبي ﷺ قال: لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم . رواه مسلم والنسائي والترمذي مرفوعًا وموقوفًا.

وعن البراء بن عازب ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: لزوال الدنيا (خرابها وفناؤها كلّها) أهْون على الله (وأيسر وأخفّ عنده) من قتل مؤمن بغير حق. رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

وروى النسائي والبيهقي من حديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: قتل المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا.

والمعنى: أنّ الله سبحانه يغضب لقتل المؤمن أشدّ مما يغضب لزوال الدنيا.

وروى البيهقي من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كُتب بين عينيه آيس من رحمة الله.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: من قتل مؤمنًا فاغتبط (وفرح) بقتله لم يقبل الله منه صرفًا ولا عدلًا . رواه أبو داود أي: لا يقبل الله منه توبة ولا فدية، وقيل المعنى: لا يقبل الله منه فريضة ولا نافلة.

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: كل ذنب عسى الله أن يغفره إلّا الرجل يموت مشركًا أو يقتل متعمدًا . رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وذكر ابن كثير في تفسير قوله : (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا){النساء: ٩٣}.

وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول تعالى في سورة الفرقان :(وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا){الفرقان: ٦٨]}

والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا... وقد كان ابن عباس يرى أنّه لا توبة لقاتل المؤمن عمدًا، وقال البخاري : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا المغيرة بن النعمان قال : سمعت ابن جبير قال: اختلف فيها (في هذه الآية) أهل الكوفة (أي اختلفوا (في قاتل المؤمن، ألـه توبة أم لا) قال فرحلتُ إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا

فجزاؤه جهنم) هي آخر ما نزل وما نسخها شيء... (وعن) سعيد بن جبير (أيضًا) قال: سألت ابن عباس عن قوله تعالى : (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ) قال... فجزاؤه جهنم ولا توبة له ، فذكرت ذلك لمجاهد فقال إلّا من ندم... وعن سالم بن أبي الجعد قال: كنّا عند ابن عباس بعد ما كفّ بصره فأتاه رجل فناداه : يا عبد الله بن عباس ما ترى في رجل قتل مؤمنًا متعمدًا؟ فقال: جزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابًا عظيما، قال: أفرأيتَ إن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؟ قال ابن عباس ثكلته أُمُّه وأنّى له التوبة والهدى؟ والذي نفسي بيده لقد سمعت نبيكم ﷺ يقول: ثكلته أُمه قاتل مؤمن متعمدًا.... يأتي المقتول متعلقًا بإحدى يديه متلبسًا قاتله بيده الأخرى (أي: يجيء المقتول يوم القيامة...وقد أخذ وقبض قاتله بيد وحمل رأسه باليد الأخرى) تشخب أوداجه (تسيل عروق عنق المقتول) دمًا حتى يأتي به (حتى يأتي بقاتله) العرش فيقول المقتول لربِّ العالمين : هذا قتلني وفي رواية يقول المقتول : يا رب سلْ هذا فيمَ قتلني؟ فيقول الله عزوجل للقاتل : تعستَ ويُذهب به إلى النار. رواه الترمذي. وحسنه الطبراني في الأوسط وفي رواية أخرى قال: فيهوي في النار سبعين خريفًا ، وكذلك رواه النسائي، وممن ذهب أنّه لا توبة له من السلف : زيد بن ثابت وابو هريرة وعبد الله بن عمرو وابو سلمة بن عبد الرحمن وعبيد بن عمير ، وحسن ، وقتادة ، والضحاك بن مزاحم نقله بن أبي حاتم مستندين في ذلك إلى أحاديث كثيرة منها الحديث المتقدم ذكره : يجيء المقتول متعلقًا بقاتله يوم القيامة... ومنها قال الإمام أحمد... عن أبي إدريس قال: سمعت معاوية ﷺ يقول سمعت النبي ﷺ يقول: كلّ ذنب عسى الله أن يغفره إلّا الرجل يموت كافرًا ، أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا. وقد مرّ مثل هذا الحديث.

والذي عليه الجمهور من سلف الأُمّة وخلفها أنّ القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل ، فإن تاب وخشع وخضع وعمل عملًا صالحًا بدّل

الله سيئاته حسنات وعوَّض المقتول من ظلامته وأرضاه ، إلّا أنّه يشترط في التوبة أن تكون صادقة نصوحًا ، ومع ذلك فإنّ للمقتول على قاتله حقين حقًا في الدنيا وحقًا آخر يوم القيامة ، فأمّا حقه عليه في الدنيا فيطالب به أهله وذووه ، ويكون ذلك إمّا بقتل القاتل أو بدفع دية مغلَّظة ثلاثة أضعاف ، وبأن يدفع هذه الدية القاتل نفسه لا عشيرته ، هذا إن قبل وليّ أمر المقتول بدفع الدية بدلًا من القتل. قال الله تعالى: (وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا){الإسراء: ٣٣}.

وقوله تعالى: (فلا يسرف في القتل) يعني أنّه لا يجوز لوليِّ أمر المقتول أن يمثل بالقاتل بعد قتله أو أن يقتل غير القاتل كأن يقتل ابنه أو أباه او أخاه أو ابن عمه.

وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنّه حق من حقوق الآدميين، فحتى إذا تاب القاتل وتاب الله عنه ، فإنّ من حق المقتول يوم القيامة أن يقبض على القاتل ويأتي به تحت العرش ويقدمه للمحكمة الإلهية ويخاطب المقتول الله سبحانه وتعالى : رب سل هذا لِمَ قتلني؟ فإن كان القاتل قد تاب توبة صادقة وتاب الله عنه ، فإنّ الله سبحانه يفصل بينهما بأن يعطي القاتل للمقتول من حسناته وأعماله الصالحة حتى يوفي المقتول حقّه ، ثم يدخل القاتل الجنة بما فضل وبقي عنده من حسنات، فإذا لم توفِّ وتكفِ حسنات القاتل حق المقتول يعوِّض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها ورفع درجته فيها ونحو ذلك.

ذلك أنّ من رحمة الله ووفائه بما وعد به التائبين أن يعفو الله عن القاتل ولا يدخله النار ؛ لأنه تاب وآمن وعمل صالحًا ومات على ذلك ، لكنّه سبحانه وتعالى من عدالته أنّه إذا كان يعفو عن حقوقه سبحانه فإنّه لا يعفو عن حقوق عباده ، فهذا المقتول له حقٌّ على قاتله فيعطي الله المقتول حقه بأن يأخذ من حسنات القاتل ، فإذا فنيت حسناته قبل أن يوفي حقه ، ولم تبق

عنده من حسنات إلّا الحدّ الأدنى منها ليدخل بها الجنة ، فالله سبحانه عندئذ يرضي المقتول.

تذكر كتب تاريخ الأدب أنّه حين استعرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة ظفر عضد الدولة بوزيره عزّ الدولة أبي طاهر محمد بن تقية فطرحه للفيلة ، فقتله ثم صلبه عند داره بباب الطاق ، وعمره نيف وخمسون سنة ، ولما صُلب رثاه أبو الحسن محمد بن عمران يعقوب الأنباري (ت ٣٢٨هـ) أحد العدول ببغداد بقصيدة مطلعها:

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات لَحقٌّ تلك إحدى المعجزات

وهذه القصيدة تُعدُّ من أعظم المراثي ولم يسمع بمثلها عن مصلوب حتى إنّ عضد الدولة الذي صلبه تمنّى لو كان هو المصلوب وقيلت فيه.

هذه الرواية الأدبية التي حصلت في الدنيا تذكرني بالمشهد الأُخروي حين يقف القاتل والمقتول ليحكم الله بينهما وكيف أنّ المقتول يأخذ من القاتل أفضل أعماله ، حتى يكاد يفلسه من حسناته ولا يفوز من الجنة إلّا بالحدّ الأدنى من درجاتها ، وكيف أنّ الله سبحانه يثني على المقتول ويرفع من شأنه ودرجاته حتى يخيره الله أن يأخذ من قصور الجنة ونعيمها وحواريها ما شاء من أجل أن يرضي المقتول ويعفو عما بقي له من حق على قاتله ، اقول وأنا اتذكر هذا الموقف من مواقف يوم القيامة : إنّه ربّما تمنّى القاتل في هذا الموقف العظيم لو كان هو المقتول ؛ ليفوز اليوم بما فاز به المقتول.

اللهم لا تمتنا قاتلين أو ظالمين ونجنا من فتنة الدنيا واقبضنا اليك غير مفتونين اللهم آمين.

الدرس السابع والعشرون

اعتقاد الأئمّة الأربعة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول وعلى آله وصحبه ،وبعد ، فإنّ كثيرًا من المسلمين يظنون أنّ الأئمة الأربعة الذين عاشوا في القرن الثاني والثالث من الهجرة ، لم يكونوا يعنون بالعقيدة ، وينسبون دائمًا هذا الفضل إلى من جاؤوا بعدهم ممن عاشوا في القرن الثامن من الهجرة .

وبين يديّ الآن كتاب مختصر تحت عنوان : اعتقاد الأئمة الأربعة ، أبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل ، تأليف محمد بن عبدالرحمن خميس ، يذكر المؤلف في المقدمة ((أمّا بعد فقد قمتُ ببحث موسع لنيل درجة الدكتوراه في أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى وقد ضمنت المقدمة تلخيص عقيدة الأئمة الثلاثة : مالك والشافعي وأحمد ، وقد طلب مني بعض الفضلاء إفراد عقيدة هؤلاء الأئمة الثلاثة))

وفيما يأتي بعض ما جاء في هذا الكتاب :

قال ابن تيمية في كتابه ، الإيمان: ((لكن من رحمة الله بعباده أنّ الأئمة الذين لهم لسان صدق كالأئمة الأربعة وغيرهم كانوا ينكرون على أهل الكلام من الجهمية قولهم في القرآن والإيمان وصفات الرب وكانوا متفقين على ما كان عليه السلف)).

من أقوال أبي حنيفة في العقيدة .

قوله : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلّا به ، وكان يكره أن يقول الداعي : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام . ومن أقواله : لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، وهو يغضب ويرضى ، ولا يقال : غضبه عقوبته ، ورضاه ثوابه ٠٠٠ويد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه ، ووجهه ليس كوجوه خلقه ٠٠٠ ولا يقال

: يده قدرته أو نعمته ؛ لأنّ فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، وقال : من قال : لا أعرف ربّي في السماء أم في الأرض فقد كفر ، وكذا من قال : إنّه على العرش ، ولا أدري العرش أفي السماء أم في الأرض ، ومن أقواله : ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلّا بمشيئته ، وقال : الإيمان ، إقرار باللسان وتصديق بالجَنان ، والإقرار وحده لا يكون إيمانًا ، وقال : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . يقول المؤلف: ((قوله في عدم زيادة الإيمان ونقصانه ، وقوله في الإيمان ، إنّه تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، وإنّ العمل خارج عن حقيقة الإيمان ، قوله هذا هو الفارق بين عقيدة الإمام أبي حنيفة في الإيمان ، وبين عقيدة سائر أئمة الإسلام : مالك والشافعي وأحمد وإسحاق والبخاري وغيرهم ، والحق معهم ، وقول أبي حنيفة مجانب للصواب ، وهو مأجور في الحالين ، وقد ذكر ابن عبد البرّ وابن أبي العز ما يشعر أنّ أبا حنبفة رجع عن قوله ، والله أعلم))

من أقوال ابن مالك في العقيدة:

سئل ابن مالك عن صفات الله فقال : أمروها كما كانت ، وسئل ، كيف استوى الله على العرش ، فقال : الكيف منه غير معلوم ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وسئل عمن يقول : القرآن مخلوق ، فقال : إنّه زنديق فاقتلوه ، ومن أقواله : الله في السماء وعلمه في كل مكان ، إيّاكم والبدع ، قيل : يا أبا عبدالله ، وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابه والتابعون لهم بإحسان .

من أقوال الشافعي في العقيدة:

قوله : إن لله وجهًا وقدمًا وعينين وإنّه ليس بأعور ، وإن له أصبعًا ، وإنّ لله صفات لكن ليست كصفاتنا ، لقوله سبحانه : (ليس كمثله شيء) ، ومن أقواله : إذا سمعت الرجل يقول : الاسم غير المسمى أو الشيء غير

الشيء فاشهد عليه بالزندقة ، وإنّ الله تعالى على عرشه في سمائه يقرب من خلقه كيف شاء ، وإنّ الله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا كيف شاء ، ومن أقواله : من حلف بالله أو باسم من أسمائه فحنث فعليه كفارة : ومن حلف بشيء غير الله فحنث فلا كفارة عليه ؛ ذلك أنّه لا يجوز الحلف إلّا بالله ، وسئل عن صفات الله فأجاب بما أجاب به أبو حنيفة ومالك ، وله أقوال أخرى كثيرة عن أهل الكلام من ذلك قوله : ما ناظرتُ أحدًا في الكلام إلّا مرة ، وأنا استغفر الله من ذلك ، وقال رحمه الله : لو أردتُ أن أضع على كل مخالف كتابًا كبيرًا لفعلتُ وليس الكلام شأني ، ولا أحب أن يُنسب إلي منه شيء .

من اقوال الإمام أحمد بن حنبل :

الصلاة والزكاة والحج والبرّ من الإيمان ، والمعاصي تنقص الإيمان ، وسئل عن الإرجاء فقال : نحن نقول : الإيمان ، قول وعمل يزيد وينقص ، إذا زنى وشرب الخمر نقص إيمانه ، ومن أقواله : إنّه لا يفلح صاحب الكلام أبدًا ولا تكاد ترى أحدًا نظر في الكلام إلّا وفي قلبه دغل ولا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبّوا عن السنة

الدرس الثامن والعشرون

الوفاء بالعهد من مبادئ الإسلام

يظهر ذلك من خلال صحابيين يدعى أحدهما عبيد بن أسيد بن جارية ، أو عتبة بن أسيد وكان يكنى بأبي بصير ، وهذا هو اللقب الذي اشتهر به في كتب السيرة ، ولد في مكة من أبوين عربيين من بني ثقيف، وأمّه من بني هاشم جد الرسول ﷺ أسلم في الأرجح إبّان الدعوة العلنية ، وأخفى إسلامه خوفًا من قريش التي كانت من أشدّ معارضي الدعوة ، فلمّا علم قومه بإسلامه سجنوه وظلّ مسجونًا حتى تمكن من الهرب إلى المدينة بعد صلح الحديبية . ويدعى الثاني : العاص بن سهيل بن عمرو بن عبد شمس، وكان يكنى بأبي جندل ، وكان المشهور بهذا اللقب أيضًا في كتب السيرة ، وولد أيضًا في مكة لأبوين عربيين من قريش من بني عامر . وقد أسلم أبو جندل قبل الهجرة النبوية ، وهو كأبي بصير أسلم وأخفى إسلامه وكتمه عن آل بيته ، فلمّا علم أهله بإسلامه سجنوه ، ثم تمكن من الفرار من سجنه والتحاقه بأبي بصير.

صلح الحديبية:

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وبعد معركة بدر وأُحد وغزوة الخندق عزم الرسول ﷺ أن يزور مكة ويؤدي فيها مناسك العمرة ، فلمّا توجه مع صحابته إلى مكة منعته قريش من دخولها وعقدوا معه مفاوضات كان من بنودها أن يرجع الرسول ﷺ إلى المدينة ويأتي مكة معتمرًا في العام المقبل وكان من بنودها أيضًا بند ينصّ وحسبما ثبت في وثيقة الصلح على أنّه من أتى محمدًا من قريش بغير أذن وليِّه ردّه عليهم ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم تردّه عليه.

بعد أن أتم الرسول ﷺ كتابة هذا البند وباقي بنود الصلح طلع على الرسول ﷺ أبو جندل وهو يرسف بالحديد وكان أبوه قد حبسه في مكة ،

فأفلت من سجنه والتجأ إلى الرسول ﷺ يريد الفرار بدينه إليه فلما رآه أبوه صاح يا محمد ردّه إلينا استنادًا إلى ما تم بيننا من معاهدات فرده إلى أهله قائلا يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا ، وإنّا صالحنا القوم وإنّا لا نغدر ولا نخون ، فصاح أبو جندل بأعلى صوته ، يا معشر المسلمين ، أأُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟! .

وعلى وفق شروط المعاهدة أُعيد أبو جندل إلى مكة وحبس مجددًا وقد أثر هذا الموقف المثير في عموم المسلمين الذين كانوا قد خرجوا مع الرسول ﷺ ولم تمض بضعة أشهر على توقيع معاهدة الصلح حتى تمكن أبو بصير ﷺ من الإفلات من سجنه والالتحاق بالرسول ﷺ في المدينة ، ولما كان زعماء مكة يدركون تمامًا أنّ الرسول صلى الله عليع وسلم سينفذ بنود الصلح من دون أيّ تأخير أو تردد كان ، فقد كتب الأخنس بن شريق والأزهر بن عوف كتابًا بعثا به مع مولى لهما ورجل من بني عامر بن لؤي استأجراه ليرد إليهم أبا بصير ، وعندما وصلا إلى المدينة وأخبرا الرسول ﷺ بخبر صاحبيهما ودفعا إليه بكتاب قريش دعا رسول الله على الفور أبا بصير وقال له يا أبا بصير ، إنّ هؤلاء القوم قد صالحونا على ما قد علمتَ ، وإنَّا لا نغدر ولا نخون ، فالحق بقومك ، فقال يا رسول الله ، أتردّني إلى المشركين ليفتنوني في ديني ؟! فقال له الرسول ﷺ : اصبر يا أبا بصير واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين من المؤمنين فرجًا ومخرجًا .

وكما توقع زعماء المشركين فقد استجاب الرسول ﷺ لكتابهم فالتزم ببنود المعاهدة ووفى بها ؛ لأنّ الوفاء بالعهد من أخلاق المسلمين ورسولهم الكريم ، فأمر الرسول ﷺ فورًا أبا بصير بضرورة العودة إلى مكة وفاءً للعهد مع قريش ، فامتثل أبو بصير ﷺ بأمر رسول الله ﷺ ورافق مبعوثي قريش

اللذين كُلِّفا بإعادته إلى مكة ، إلّا أنّ أبا بصير لم يستطع أن يتقبل قضية وصوله إلى مكة وخشي أن يفتنوه عن دينه فتمكن وهو مع القرشيين في منتصف الطريق بين مكة والمدينة أن يقتل أحد حارسيه وهرب منهما ، وجاء الحارس الثاني إلى رسول الله ﷺ فقال : لقد قتل صاحبكم صاحبي . وقد أدرك أبو بصير بأنّه لا مكان له في مكة ولا في المدينة ، فخرج حتى نزل العيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر ، وهي منطقة تكثر فيها الأشجار ، وبعد أن علمت قريش وأهل مكة وباقي القبائل العربية بأمر أبي بصير والمكان الذي التجأ إليه كان كل من يعلن إسلامه منهم ويستطيع الإفلات من قومه يلتجئ إلى العيص ملجأ أبي بصير، وكان أول من التجأ إليه أبو جندل ﷺ بعد أن تمكن الإفلات من سجن أبيه وقومه ، فكثر الملتحقون بأبي بصير ، ثم ألّف أبو بصير ممن التحق به قوة عسكرية تقوم بالاستطلاع والهجوم والقتال ومشاغلة المشركين والتعرض لقوافلهم التجارية ، فلما أدركت قريش خطر هؤلاء على مصالحهم وبعد أن أدركوا أنّهم ليسوا تحت ولاية الرسول ﷺ سارعت للتخلي عن هذا البند وهي صاغرة ؛ لذا أرسلت إلى الرسول ﷺ تطلب منه إيواء أبي بصير وأعوانه ، فلمّا وصل هذا الكتاب إلى رسول الله ﷺ كتب عليه الصلاة والسلام إلى أبي بصير وأبي جندل ليفدا عليه وفيمن معهما . فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي جندل ، وأبو بصير في سكرات الموت ، فمات أبو بصير ﷺ وكتاب رسول الله ﷺ بيده يقرؤه ، فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه .

الدرس التاسع والعشرون

عائشة رضي الله عنها وحديث الإفك

عشر آيات من سورة النور نزلت بحق عائشة رضي الله عنها تبرئها من التهمة التي أشاعها الذين خاضوا مع الخائضين ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج للغزو في سبيل الله أقرع بين نسائه أي : جعل قرعة فيأخذ معه التي وقعت عليها القرعة ، قالت : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي ، وخرجتُ مع رسول الله ﷺ وذلك بعد ما أنزل الله آية الحجاب ، فكنتُ أُحمَل في هودجي فوق جمل ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك أذن الرسول ﷺ بالرجوع ، وقبيل بدء رجوعنا إلى المدينة ابتعدتُ عن أنظار الجيش لأقضي حاجتي بعيدًا عنهم ، فلما عدتُ إلى الموضع الذي كنّا فيه فوضعتُ يدي في صدري فلم أجد قلادتي التي كنتُ أرتديها، فرجعتُ إلى الموضع الذي قضيتُ حاجتي فيه التمس القلادة ، أبحث عنها فتأخرتُ عن اللحاق بالركب ، فحين شرع الركب بالرجوع أقبل نفر من الجيش إلى هودجي فاحتملوه ووضعوه على بعيري الذي كنتُ أركبه وهم يحسبون أنني فيه ، وكانت عائشة رضي الله عنها خفيفة الوزن فلم يحسوا أنها ليست في الهودج ، قالت : فساروا بجملي : ووجدتُ عقدي (قلادتي) بعدما ارتحل الجيش فجئتُ إلى منازلهم فلم أجد أحدا فذهبتُ إلى المنزل الذي كنتُ أنام فيه ، وكنتُ أظنّ أنّ القوم سيشعرون بغيابي ويرجعون إليَّ ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمتُ وكان صفوان بن المعطل قد تخلف هو الآخر عن اللحاق بالجيش حتى أقبل الظلام فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني ، وكان قد رآني قبل الحجاب فاستيقظتُ باسترجاعه ، أي : استيقظتُ حين سمعتُه يقول : لا حول ولا قوة إلّا بالله ، فخمرتُ وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعتُ منه غير تكرار قوله : لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي

العظيم ، فأناخ راحلته (ناقته) فداس على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش والتحقنا به عند الظهيرة فهلك من هلك في شأني ، وكان الذي أشاع الإفك وقاد أمره هو عبدالله بن أُبَي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيتُ آلامًا حين قدمنا المدينة شهرًا ، والناس يخوضون في الإفك وأنا لا أشعر بشيء من ذلك ، إلّا أني أحسستُ أني لم ألق اللطف والرعاية التي عودني عليها الرسول ﷺ حين كان يجدني مريضة ، فلم أجد منه سوى قوله حين يدخل علي : كيف تيكم؟ فكان ذاك الذي يريبني ولم أشعر بما يحدث حولي حتى خرجتُ بعد شفائي من مرضي ، أنا وأم مِسْطَح إلى المواضع التي نقضي فيها حاجاتنا، وكنّا لا نخرج إلى هذه الأماكن إلّا ليلًا وكان ذلك قبل أن نتخذ المواضع المستورة قرب بيوتنا : فسمعتُ أم مِسْطَح تقول : تعس مِسْطَح تعس مِسْطَح ، فقلتُ لها بئس ما قلتِ ، تسبين رجلًا شهد بدرًا ؟! فقالت لي ألم تسمعي ما قال ؟! قلتُ : وماذا قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضًا إلى مرضي ، فلما رجعتُ إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلتُ أتأذن لي أن أذهب إلى بيت أبي وأمّي ؟ فأذن لي رسول الله ﷺ فجئتُ إلى أبي وأمي فقلتُ لأمّي : يا أمتاه ، ماذا يتحدث الناس عني ؟ فقالت يا ابنتي هوّني عليك ، فوالله لقلَّ ما كانت امرأة قط وضيئة جميلة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلّا أكثر عليها الكلام ، قالت : فقلتُ : سبحان الله أو قد يحدث الناس بذلك ؟! قالت : فبكيتُ تلك الليلة حتى أصبحتُ لا ينقطع لي دمع ولا أكتحل بنوم قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وأسامة بن زيد ، حين تأخّر نزول الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله وزوجته ، قالت : فأمّا أسامة بن زيد فقال : يا رسول الله ، إنها أهلك ولا نعلم منها إلّا خيرًا ، أمّا علي ﷺ فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وفي كتب السيرة أنّ رسول الله ﷺ بعد أن استشار عليًّا وقال له ما قال استشار عمر ﷺ فقال له : يا

رسول الله ، من زوَّجكها ؟. فقال : الله ، فقال عمر : أتظنّ أنّ الله دنَّس عليك عرضك ؟! ثم قام رسول الله ﷺ على المنبر يخطب فقال : أيّها الناس ، ما بال عبد الله بن أُبي بن سلول وقوم يؤذونني في أهلي ؟! والله ما وجدتُ منها إلّا خيرًا ، وقد اتهموا رجلًا (صفوان بن المعطل) لم أجد منه إلّا الخير . وظل رسول الله شهرًا يعاني من خوض الخائضين في أحبِّ زوجاته إليه ، قالت : ثم أتاني رسول الله عليه وسلم ، وأنا في بيت والديَّ ، فحين جلس قريبًا مني ، قال : أمّا بعد يا عائشة فإنّه بلغني عنك كذا وكذا ، فإن كنتِ بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنتِ قد ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإنّ العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه ، قالت : فلما قضى رسول الله مقالته انحبس دمعي من شدة الحزن ، فقلتُ لأبي : أجب عني رسول الله فقال : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله ﷺ فقلتُ لأمي : أجيبي عني رسول الله ، فقالت : والله ما أدري ماذا أقول لرسول الله صلى الله عيه وسلم ، فقالت : وأنا فتاة حديثة السنّ لا أقرأ كثيرًا من القرآن ، فقلتُ : سمعتم عني ما سمعتم ثم صدقتم أقاويل الناس حتى استقر ذلك في قلوبكم ، إن قلتُ لكم : إني بريئة لا تصدقونني ، فوالله لا أجد لكم ولي مثلًا إلّا ما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، قالت : ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فراشي ، وكنتُ أعلم علم اليقين أني بريئة وأنَّ الله سبحانه سيبرئني ، ولكن والله ما كنتُ أظنّ أن ينزل الله وحيًا في شأني يُتلى على مرّ الدهور ؛ لأني كنتُ أشعر أني أصغر من أن ينزل الله آيات تثبتُ براءتي ، لكني كنتُ أتوقّع أن يرى الرسول ﷺ في المنام ما يثبت له أني بريئة ، قالت رضي الله عنها : والله ما غادر رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى نزل جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ فأصابه ما كان يصيبه حين ينزل عليه الوحي من التعب حتى إنّه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ، وهو في يوم شات شديد البرد من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت

: فلما أفاق بعد أن تركه الوحي وجدتُ السرور باديًا على وجنتيه ، وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أنّه قال : أبشري يا عائشة ، أمَّا الله عز وجل فقد برأكِ ، قالت : فقالت لي أُمي : قومي إليه فهنئيه ، فقلتُ : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلّا الله عز وجل ، فهو الذي أنزل براءتي ، فأنزل الله تعالى من سورة النور: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالأفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الأثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١١} لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ {١٢} لَوْلا جَاؤُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ {١٣} وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٤} إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ {١٥} وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {١٦} يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {١٧} وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الأيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {١٨} إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالأخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ){النور: ١١ – ١٩ }

الدرس الثلاثون

العدل وحقوق الرعية في الإسلام

لما تولّى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله الخلافة أخذ ينادي رعيته ، أنّه من كانت له مظلمة في عهد الخليفة السابق ، سليمان بن عبدالملك فليرفعها إلي ، فجاء إليه المظلومون فردّ إليهم مظلماتهم مظلمة مظلمة ، ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بإعادة الحقوق إلى أهلها ، بل قيل له إنّ جدّك عمر بن الخطاب كان يأخذ من بيت المال من أموال الفيء ، درهمين كل يوم يسدّ بهما رمقه ويعيل بهما نفسه وعياله ، فخذ أنت ما كان يأخذ ، وهذا شرع أحلّه الله ورسوله لمن يترك عمله ويتولى أمور المسلمين ، فأبى أن يأخذ شيئًا ثم قال : إن جدي عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا عندي من المال الخاص بي ما يكفيني .

وكانت غسان قبيلة عربية عميلة للروم حيث كانت متاخمة لحدودها ، وكان جبلة بن الأدهم آخر ملوك هذه القبيلة ، أسلم جبلة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فقد أراد أن يلتحق بالعرب أبناء قومه ، فبعث عمر بن الخطاب برسالة إليه : أن أقدم إلينا ، ولك ما لنا من الحقوق وعليك ما علينا من الواجبات ، فجاء جبلة إلى الحجاز ومعه خمسمئة فارس تبدو عليهم آثار الأبهة والترف بلباسهم المنسوج بالذهب والفضة.

حضر جبلة موسم الحج ، فداس رجل من قزارة على إزار جبلة ، فغضب جبلة ولطم القزاري ، لطمة قوية هشمت أنفه ، فذهب القزاري إلى عمر يشتكي إليه ليأخذ حقه من ملك الغساسنة الذي أسلم حديثا ، فبعث عمر بن الخطاب ﷺ إلى جبلة ملك غسان برسالة يقول له فيها : ما الذي دعاك إلى أن تلطم أخاك هذه اللطمة المؤلمة ؟! فلما قرأ جبلة الرسالة وسمع

هذا السؤال من خليفة المسلمين عجب من مضمونها ، وأخذته العزة بالإثم وشعر بأنّه قد أهينت كرامته حين علم بأنّه وهو الملك يحاسَب لأنّه لطم أعرابيًّا من البادية ، ثم قال : لولا حرمة هذا البيت لقتلتُ من داس إزاري ، فقال له عمر برسالة بعثها إليه : إمّا أن ترضيه وإلّا اقتصصتُ له منك ، عاقبتك بمثل ما عاقبته ، فدهش جبلة وردّ بقوله مستفهما مستنكرًا : أتقتصّ له مني وأنا ملك ، وهو من سوقة الناس؟! فقال له عمر : إنّ الإسلام ساوى بينكما، قال جبلة الملك : إني رجوتُ أن أكون بعد إسلامي أعزّ مما كنتُ عليه قبل إسلامي ، فكرر عمر قوله : الإسلام ساوى بينكما، فقال جبلّة : إذن أتنصر وأترك الإسلام وأعود نصرانيًّا ، فقال عمر : إذن أضرب عنقك ، وتناحر قوم جبلة وقوم قزارة وأوشكت أن تشتعل بينهم فتنة : فطلب جبلة من عمر أن يمهله إلى غد ، فوافق عمر ، وأجل القضية إلى غد ، فخرج جبلة من المدينة هاربًا متخفيًا ومتسترًا بظلام الليل ، ثم التحق بقيصر ملك الروم فأكرمه هرقل وأغدق عليه الأموال.

هذه العدالة ونحوها لا تتحقق كاملة وبأسمى معانيها إلّا في ظل الإسلام ؛ لأنّه الدين الوحيد في هذه الدنيا الذي يتسم بأنّه دين الله كما أنزله الوحي على رسول الله لم يعتره أي تحريف وأي تبديل كان ، ولأنّه الدين الوحيد الذي سمت وعظمت تربيته لأتباعه ، ففي خلافة عمر ﷺ رفع إليه جندي من جنود المسلمين شكوى مفادها بأنّ قائده أبا موسى الأشعري ، الصحابي الجليل قد ضربه وحلق شعره لعمل لا يستحق هذه العقوبة فبعث عمر ﷺ برسالة إلى أبي موسى الأشعري قائد الجيش ، تتضمن هذه الرسالة : أن يا أبا موسى ، إن كنتَ قد عاقبتَ جنديك أمام حشد من الناس فاقعد له في حشد من الناس ليقتصّ منك ، ليصنع بك ما صنعته به ، وإن كنتَ فعلتَ ذلك به بعيدًا عن أعين الناس فاقعد له ليقتصّ منك في مكان بعيد عن

الناس ، ثم جلس القائد أبو موسى الأشعري ليقتصّ الجندي منه ، فلمّا رآه الجندي جالسًا بين يديه ليأخذ حقه منه ، رفع رأسه إلى السماء ثم قال : اللهم إني قد عفوتُ عنه .

ووقف غداة يوم على باب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ نفر من المسلمين من بينهم : أبو سفيان بن حرب سيد قريش في الجاهلية وأفضلهم نسبا وبلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وقد استأذنوه جميعًا للدخول عليه ، فأذن لبلال بالدخول ثم لصهيب ثم لسلمان وأبو سفيان واقف ثم أذن عمر لغيرهم ، ثم أذن بعد ذلك لأبي سفيان ، فدخل أبو سفيان وهو غضبان من تقديمهم عليه بالإذن فنهره عمر وزجره وقال له : تقدموك في الإسلام فلا جرم أن يتقدموك في الإذن .

وقال إياس بن سلمة : مرّ عمر بن الخطاب ﷺ في السوق ومعه الدرّة (السوط) فضربني بها ضربة أصاب بها طرف ثوبي وقال لي : ابتعد عن الطريق ، فلما كان في العام المقبل لقيني فقال يا سلمة : أتريد الحج ؟ فقلتُ : نعم ، فأخذ بيدي وذهب بي إلى منزله فأعطاني ستمئة درهم من دراهمه الخاصّة لا من بيت المال ، وقال : استعن بها على حجك واعلم أنّها جزاء الضربة التي كنتُ قد ضربتك ، قلتُ : يا أمير المؤمنين إني لا أتذكرها ، فقال عمر : وأنا ما نسيتها .

جاء رجل من أقباط مصر إلى المدينة يشتكي للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ من ابن حاكم مصر وهو ابن الوالي عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين جئتُ أشتكي إليك فقال عمر : ما شأنك ؟ فقال الرجل : تسابق فرسي وفرس محمد بن الوالي عمرو بن العاص فسبقتْ فرسي فرسه ، إلّا أنّ هذا الفوز لفرسي لم يعجبه فاغتاظ وضربني بالسوط وهو يقول : خذها وأنا ابن الأكرمين .

فكتب عمر ﷺ إلى والي مصر عمرو ، فقال : مِن أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي ، إذا جاءك كتابي هذا فأقبل إلي ومعك ابنك محمد .

فدعا عمرو ابنه وقال له : أأحدثتَ شيئا ؟ أجنيتَ جناية ؟ قال : لا ، فقدما المدينة فلما رآهما عمر ﷺ نادى : أين الرجل المصري ؟ فقال : ها أنذا فقال عمر للرجل : خذ الدرة واضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك ، فضربه الرجل المصري حتى اقتصّ منه ، ثم قال له عمر : اجعل هذه الدرة على صلعة أبيه الوالي عمرو بن العاص ، فوالله ما ضربك إلا بجاه سلطانه ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، لقد ضربتُ من ضربني ، وفي هذا المقام قال عمر قولته المشهورة : أيا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟!

ولم ينسَ الإسلام غير المسلمين فقد جعل من حقوقهم عدم إكراههم على ترك دينهم واعتناق الإسلام ، بل دُوِّنتْ حقوقهم في الكتاب والسنة ، لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات باستثناء الواجبات الدينية ، فلا يُكَلَّف الأغنياء من اليهود والنصارى بتأدية الزكاة ؛ لأنّ الزكاة شعيرة إسلامية، والإسلام لا يكره غير المسلم على تطبيق فرض من فرائض الإسلام ، وقد أوصى الإسلام بحمابتهم ، ما داموا في دار الإسلام ولم تظهر منهم عداوة صريحة ، فقد روى نافع عن عمر قال : كان آخر ما تكلم به النبي ﷺ : احفظوني في ذمتي ، ويقصد ، بالذمة ، ذمة غير المسلمين من أهل الكتاب ، كما روي عنه ﷺ قوله : من آذى ذميًّا (يهوديًّا أو نصرانيًّا ، ومن كان في ذمة المسلمين من أيِّ ملّة كانت) أو معاهدا فأنا خصمه يوم القيلمة ، وقوله ﷺ : من آذى لي ذميًّا فقد آذاني

ومن الحقوق التي يتمتع بها الذمي رعايته من الناحية المالية فقد لقي عمر ﷺ يهوديا كبير السن يسأل الناس ، فسأله : لِمَ يشحذ ؟ فقال : الجزية والعجز عن العمل وليس عندي من يعيلني ، فأرسل عمر ﷺ إلى خازن بيت

المال وقال له : انظر هذا وضرباءه فاجعل له ولأمثاله راتبًا كافيًا ليعيلوا به أنفسهم ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم .

وقد كان الوليد بن عبد الملك قد هدم جزءًا كبيرًا من كنيسة يوحنا بدمشق ليقيم عليه امتداد المسجد الأموي ، وحين وُلِّي عمر بن عبد العزيز الخلافة رحمه الله أحسّ نصارى دمشق بعدل عمر فشكوا إليه ما حدث لكنيستهم ، وجد عمر رحمه الله أنّ الجزء الذي اغتصبه الوليد قد دخل في المسجد الأموي وصار جزءًا منه ، إنّ غاية ما يستطيع أن يفعله حاكم عادل في مثل هذه الحالة ، يريد إنصاف من اغتُصِب حقه أن يعوّض له حق المغتَصَب من الناحية المالية ، إلّا أنّ عمر بن عبد العزيز نظر إلى هذه القضية نظرة إسلامية ووزنها بميزان إسلامي ، فأصدر رحمه الله أمرًا يقضي بهدم ذلك الجزء الكبير من المسجد وإعادة الأرض التي اغتُصِبت من الكنيسة إلى الكنيسة . في هذه الأثناء احتج كثير من علماء دمشق المسلمين ، كيف يهدم أمير المؤمنين جزءًا من المسجد ليردّه للنصارى ، وأرسلوا وفدًا لأمير المؤمنين لإقناعه بالعدول عن قراره ، ولكن أمير المؤمنين لم يوافق وأصدر أمرًا جديدًا يحدد فيه اليوم الذي يجب أن يتم فيه الهدم ، وميعاد تسليم قطعة الأرض للنصارى ، فلمّا رأى علماء دمشق إصرار أمير المؤمنين على موقفه المستوحى من وحي الإسلام عقدوا اجتماعًا مع زعماء الكنيسة وتفاوضوا معهم وتنازلوا عن قطعة الأرض .

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رجلًا من الأنصار يدعى طعمة بن أُبَيرِق من بني ظفر بن الحارث سرق درعًا من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه نخالة ، فخرق الجراب فكانت النخالة تتناثر منه طوال الطريق فجاء به عند دار رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، وتركه على بابه وحمل الدرع إلى بيته ، فلما أصبح صاحب الدرع جاء على أثر النخالة إلى دار اليهودي ، فهمّ النبي ﷺ أن يقطع يد زيد

اليهودي : وقبل أن يعاقبه تبيّن أنّ السارق هو طعمة حيث التمست عنده في داره ، فجاء بنوا ظفر وهم قوم طعمة إلى رسول الله ﷺ وسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، وقالوا له : إن لم تفعل افتضح صاحبنا ، فأنزل الله فرآنًا من فوق سبع سماواته تبرئ اليهودي وتدافع عنه ، قال الله تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا) {النساء : ١٠٥}

لم يُعنَ الإسلام بحقوق الناس فحسب من المسلمين وغير المسلمين ، بل تجاوز ذلك إلى حقوق البهائم ، لما بلغ الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو في دمشق أنّ أصحاب العربات والجمالين بمصر يحملون على ظهور الإبل (الجمال) فوق ما تطيق كتب للوالي الذي يحكم مصر الخطاب الآتي :

أمّا بعد ، فقد بلغني أنّ الجمّالين في مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق فإذا جاءك كتابي هذا فامنع أن يحمل على البعير (الجمل) أكثر من كذا رطل .

وتأتيه يوما سلتان كبيرتان مملوءتان من رطب الأردن ، فيسأل : ما هذا ؟ فيقال : هذا رطب بعث به أمير الأردن إليك ، ويعود يسأل : وكيف جيء به ؟ فيقال : له : على دواب البعير، فيهزّ رأسه ويقول : لقد حملتموها فوق طاقاتها ، ثم يأمر ببيع الرطب : وأن يشترى بثمنه علفًا لدواب البعير التي حملته .

وفي إحدى جولاته بدمشق يبصر أناسًا يحملون مقارع في أسفلها حديدة مدببة ينخسون بها دوابّهم ، فما كان من عمر إلّا أن أصدر قرارًا يحرم فيه استخدام هذه المقارع.

وكان لعمر بن عبدالعزيز غلام يعمل على بغل له يأتيه بدرهم كل يوم فجاءه في يوم ما بدرهم ونصف فقال للغلام : ما بالك ؟ لِمَ زاد الأجر ؟ قال : طفتُ به السوق ، قال : لا ولكنك أتعبتَ البغل ، أرحه ثلاثة أيام.

وقد كان لأبي الدرداء جمل يقال له (دمون) فكان إذا استعاروه منه يوصيهم : لا تحملوا عليه إلّا كذا وكذا فإنّه لا يطيق أكثر من ذلك : فلما حضرت أبا الدرداء الوفاة قال : يا دمون لا تخاصمني غدا عند ربي فإني لم أكن أحمل عليك إلّا ما تطيق . رواه ابن عساكر .

وعن المسيب بن دارم قال : رأيتُ عمر بن الخطاب ﷺ يضرب جمّالًا وهو يقول له : حمَّلتَ جملك ما لا يطيق .

وحسن هذه المعاملة الموجهة للبهائم جاءت من الامتثال لتعاليم الإسلام ومبادئه السامية ، جاء في الحديث عن النبي ﷺ ما معناه : إنّ من قتل عصفورًا عمدًا عجَّ إلى الله يوم القيامة يشكو إليه من قتله بغير حق ويقول : ربِّ سَلْ هذا لِمَ قتلني ؟

وقد رأى رسول الله ﷺ وهو يمشي مع أصحابه عصفورة تزقزق وترفرف وتحوم فوق رأسه ﷺ فنادى في أصحابه : مَن فجع هذه في فراخها ؟ أعيدوا إليها فراخها .

وأخبرنا نبينا محمد ﷺ في الحديث الصحيح أنّ امرأة بغيًّا تمتهن الزنا من بني إسرائيل كانت تمشي في فلاة فاشتدّ بها العطش فرأت بئرًا قريبًا منها فنزلت وشربت وارتوت ، فلما خرجتْ من البئر رأت كلبًا يلهث يكاد يموت من شدة العطش ، فقالت في نفسها : إنّ ما أصاب هذا الكلب مثل الذي أصابني ، فحنَّتْ عليه فنزعت موقها ، أي : خلعتْ خُفَّها الذي كانت تنتعله ، فنزلتْ البئر فملأته بالماء وسقتْ به الكلب ، فغفر الله لها جزاء إحسانها لهذا الكلب .

وبلغ من رفق الإسلام بالحيوان أنّه حرَّم على المسلم أن يحمل حيوانين على أن يقاتل بعضهما بعضًا ، وإذا كان الإسلام قد حرّم هذا بين الحيوانات قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا فإنّ الدول الأوربية اليوم باسم الحضارة والمدنية قد أباحته رسميًّا بين البشر فيما يُسمى بالمصارعة الحرّة .

الدرس الحادي والثلاثون

الديمقراطية والإسلام

لا يصح أن ندعي أنّ الإسلام نظام ديمقراطي لسببين :

الأول : أنّ هذا النظام جاء بعد النظام الإسلامي فلا يصح تاريخيا أن ننسب المتقدم إلى المتأخر.

والثاني: أنّ الديمقراطية نظام نشأ على أنقاض مفاهيم غير إسلامية وعلى أساس يصطدم بالعقيدة الإسلامية ، فأصل الديمقراطية منبثق من فكرة أنّ الحاكمية للشعب لا للسلطة ، أي : أنّ الشعب يحكم نفسه بنفسه ؛ لذلك وجب أن يستشار الشعب بصفة عامة عن طريق الانتخابات بالقوانين التي يرغب في أن تحكمه وبالرؤساء الذين يرغب في أن يتولوا أمره ، في حين أن الحاكمية في الإسلام هي لله وحده ، لا للشعب ولا للسلطة ، وبتعبير آخر أنّ المشَرِّع في النظام الديمقراطي هو الشعب ، أمّا في النظام الإسلامي فإنّ المشرع هو الله ، رب الشعب ، وشتان بين شرع الخالق وشرع المخلوق .

والنظام الأصلح الذي تتم فيه العدالة هو نظام الله المتمثل في الإسلام ؛ لأنه سبحانه أعلم من الشعب بما يصلح الناس ، وفي دين الله يتربّى أتباعه حكامًا ومحكومين على تقوى الله ، وهذه التقوى تدفعهم إلى تطبيق العدالة في كل أمور الحياة مما لا تجد هذا في النظم الديمقراطية ، ومن هذه الأمور :

١-يغلب في النظم الديمفراطية أنّ الذين يرشحون أنفسهم للرئاسة يرشحون أنفسهم لها طمعًا في مكاسب دنيوية : الجاه والمال والمنصب وتحقيق رغبات فردية تتأجج في نفوسهم وليس طمعًا في تحقيق العدالة بين الناس ؛ لذلك نجد أن الرواتب المالية التي يتقاضاها رئيس دولة ديمقراطية مغرية جدًّا تكون أعلى من راتب أي موظف كان أضعافًا مضاعفة .

لما تولى أبو بكر ﷺ الخلافة وأصبح رئيسًا للدولة خرج من داره صباحًا وعلى ساعده أبراد (مجموعة من الأكسية) وهو ذاهب إلى السوق ليعمل ويكسب من عمله ليعيل نفسه وأهله، فلقيه عمر ﷺ فقال له : إلى أين تريد ؟ قال : إلى السوق ، قال : تصنع ماذا وقد وُلِّيتَ أمر المسلمين ؟! قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فقال: انطلق يفرض لك أبو عبيدة ، وهو أمين بيت أموال المسلمين ، راتبًا ، فانطلقا إلى أبي عبيدة ، فقال : أَفرضُ لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم ، أي : ليس بقوت أغناهم ولا أفقرهم ، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف إذا أخلقتْ كسوة ، أي : إذا بليت رددتها إلى بيت المال وأخذت غيرها

٢-أعلى درجات الديمقراطية أن يقوم الرئيس باستشارة وزرائه ومساعديه ووجوه رعيته ومثل هذه الديمقراطية وما أنبل منها قد كانت في النظام الإسلامي قبل أن يعرف العالم من شرقه إلى غربه ما معنى الديمقراطية ، وهذ القضية تتجلّى في الإسلام بمصطلح الشورى الذي ورد في نصّ القرآن الكريم ، بل قد جعل هذا المصطلح اسما لسورة من سور القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى في سورة الشورى : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)[الشورى : ٣٨} وقد أمر الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأن يستشير رعيته ، قال الله تعالى : (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[آل عمران : ١٥٩} لذلك كان الرسول صلى عليه يستشير الناس في الأمور التي لم يرد فيها نص قرآني ، فقد استشار مثلًا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في شأن أسرى بدر ، واستشار المسلمين عامة قبيل معركة أحد بعد أن جاءته أنباء خروج المشركين لمقاتلته ، أيبقون في المدينة متحصنين بها أم يخرجون لملاقاتهم ؟ فلما آثروا الخروج لبى طلبهم مع أنّه لم يكن مقتنعا بسداد رأيهم ،

وكان كثيرًا ما يخاطب المسلمين في المواقف الصعبة بمثل قوله : أشيروا علَيَّ أيّها الناس .

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون من بعده ، فلم يكن أحد منهم يفعل شيئًا مما لم ينصّ عليه قرآن ولا سنة إلّا جمع أعيان المسلمين فاستشارهم فيه ، حتى قال عمر ﷺ : لا خير في أمر أُبرِم من غير شورى ، وقد كانت صدورهم رحبة لتقبل آراء الرعية والعمل بها ، فقد نهى عمر بن الخطاب ﷺ عندما كان خليفة أولياء الأمور من أن يطلبوا مهورا غالية عند تزويج بناتهم حتى جعل لها حدودًا ، وقد ذكر ذلك في خطبة من خطبه ، فقاطعته امرأة وذكَّرتْه بأنّ هذا مخالف لكتاب الله وتلتْ عليه قول الله تعالى: (وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلاَ تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً){النساء : ٢٠}، فتقبل ﷺ من هذه المرأة هذا النقد وهذا الاعتراض ثم قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وقدمت بضاعة من اليمن إلى المدينة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب من هذه البضاعة أبراد وهي أكسية تُلبس ففرَّقها عمر ﷺ على رعيته بُرْدًا بردًا ثم صعد المنبر يخطب وعليه حُلّة منها ما يساوي حلة بردين فقال : اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه سلمان الفارسي ﷺ فقال : والله لا نسمع والله لا نسمع ، فقال عمر ﷺ : ولِمَ يا أبا عبدالله ، فقال : سلمان : تفضَّلْتَ علينا بالدنيا فرَّقْتَ علينا بُرْدًا بردًا وخرجتَ تخطب في حلّة منها (أي : في حلة تعدل بُرْدَين) قال عمر : أين عبد الله ؟ فلم يرد عليه أحد ، فقال : أين عبدالله بن عمر ؟ فقال : ها أنذا يا أمير المؤمنين قال : لمن أحد هذين البُرْدَين اللذين علَيَّ ؟ قال : لي ؛ ذلك أنّ عمر بن الخطاب ﷺ كان طوال البدن لم يكفه بُرْد واحد فتبرع ابنه عبدالله فأعطاه برده وحرم ابنه نفسه منه ، فلما علم سلمان منه ذلك ، قال لعمر : أما الآن فقل واخطبْ ونحن نسمع .

وفي كتاب رياض النضرة في مناقب العشرة المبشرة ، أنّ عمر ﷺ خرج ليلًا يتفقد أحوال رعيته وكان يتحرّى الوقت الذي يذهب فيه الناس إلى بيوتهم ويأوون إلى مضاجعهم ويطفئون فيه قناديلهم ، وكان ذلك بصحبة عبدالله بن مسعود ، فرأى وهو يتجوّل في طرق المدينة ضوءًا يشعُّ من دار فاقترب من الدار فسمع أصواتًا فأخذ ينظر من خلال ثقوب الباب ، فحاول الدخول من الباب ولكنه كان موصدًا فتسوّر الجدار ونزل إلى فناء الدار فإذا شيخ كبير السنّ وبين يديه كؤوس الخمر وجارية تغني له ، فقال عمر ﷺ : ما رأيتُ كالليلة أقبح من شيخ ينتظر أجله وهو يعصي ربَّه ؟! ، فرفع الشيخ رأسه فقال : بل ما صنعتَ كان أقبح ، فقال عمر : وكيف كان ذاك ؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن كنتُ قد أخطأْتُ في واحدة فأنت قد أخطأتَ في ثلاث ، فقال عمر : وما هي ؟ قال الشيخ :

ا.لأولى :. أنّك لم تدخل داري. من الباب. بل تسوَّرتَ. الجدار. ،. ولله سبحانه يقول: (وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(البقرة : ١٨٩}

والثانيـــة : أنّـــك تجسَّســـتَ علَـــيَّ والله ســـبحانه يقـــول : (وَلا تَجَسَّسُوا)(الحجرات :١٢}

والثالثة : أنّك دخلتَ داري من دون استئذان ، والله يقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)(النور :٢٧}

فقال عمر للشيخ : صدقتَ ثم خرج عاضًّا على ثوبه وهو يستغفر ربه

ثم هجر المشيخ مجالس عمر حينًا ثم جاءه. وحضر مجلسه يكتنفه الإحساس بالخجل والحياء ، فعرفه عمر فناداه وأجلسه إلى جنبه ثم همس في أذنه ، فقال له بصوت لم يسمعه أحد : والذي بعث محمدًا بالحق ما أخبرتُ أحدًا من الناس بالذي رأيتُ منكَ ولا ابن مسعود ، فقال الشيخ : وأنا والذي

بعث محمدًا بالحق ما عدتُ إلى شرب الخمر منذ ذلك اليوم ، فكبَّر عمر ﷺ أي : صاح : الله أكبر ، والحاضرون لا يدرون لماذا كبَّر

الدرس الثاني والثلاثون

منصب الرئاسة وأموال الرعيَّة في ظلِّ الإسلام

الفرق كبير بين رؤساء يصنعهم القرآن ، ورؤساء تصنعهم نظم بشرية ، ديمقراطية كانت كما تزعم أم دكتاتورية ، فكل من يرشح نفسه للرئاسة في كل دول العالم قديمًا أو حديثًا إنّما يسعى لذلك ؛ لأنه يعد الرئاسة مغنمًا أيما مغنم ، ففيها يسهل جمع الأموال والحصول على أعظم جاه ، في حين أنّ الرؤساء الذين تخرجهم مدرسة القرآن يوقنون بأنَّ الرئاسة تعد مغرمًا ومسؤولية دنيوية وأخروية ؛ لذلك فإنّك لا تجد في ظل الحكم بالإسلام من يرشح نفسه للرئاسة طمعًا بالمال والجاه والشهرة ، وإنّما حرصًا على إقامة العدل بين الرعية وخشية من أن يتولى أمور المسلمين من يسيء إليهم وإلى الإسلام .

فعن عثمان ﷺ قال : رأيتُ في يوم من أيام الصيف الشديدة الحرّ والريح تلفح الوجوه رأيتُ من كوة داري عمر ﷺ يركض في هذا اليوم الملتهب ، فقلتُ له : إلى أين يا خليفة المسلمين ؟ فقال : إبل (جمال) من أموال الصدقة شردتْ وأنا أسعى إلى إرجاعها إلى معاطنها فإني أخشى أن يسألني الله عنها يوم الحساب ، فقلتُ : وفي هذا اليوم وفي هذه الظهيرة التي يلوذ منها الناس بظل بيوتهم ، فطلبتُ منه أن يكلف غيره يطلبها عنه ، فقال : أنا المسؤول عنها وإنّ غيري لا يحمل عني ذنوبي يوم القيامة .

وعن عبدالله بن عمر ﷺ قال ما معناه : اشتريتُ إبلًا (جمالًا) نحيلة هزيلة ثم سقتها إلى المراعي حتى سمنت فجئتُ بها إلى السوق أطلب بيعها قال : فدخل (أبي) عمر السوق فرأى إبلًا سمانًا ، فقال : لمن هذه ؟ فقيل له

: إنّها لعبد الله بن عمر ، فسأل عني ، فجئته أسعى إليه ، فقلتُ ما لك يا أمير المؤمنين؟ ، قال : ما هذه الإبل ؟ قلتُ : إبل أنضاء (هزيلة نحيلة) اشتريتها وبعثتُ بها إلى الحمى (المرعى) أبتغي ما يبتغي الآخرون ، وكذلك قال الحاضرون ، إنّه لم يسرقها ولم يستأثر بعمل لم يعمله المسلمون ؟ فقال عمر ﷺ له وللحاضرين : إنّ هذه الإبل سمنت ؛ لأنّ الناس كانوا يُعنَون بها أكثر من عنايتهم بغيرها ، إنّها سمنت بقولهم : أيّها الناس ارعوا إبل ابن أمير المؤمنبن : اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين ، وكلما دخلتْ مرعى لا يمنعونها بل يقولون : اتركوها إنّها إبل ابن أمير المؤمنين : فهذه الإبل إذن سمنت بجاه منصب رئاسة الدولة ، فرِبْحُ بيعها إذن يجب أن يعود إلى الدولة ، فباعها عمر ﷺ ثم أعطى لابنه رأس ماله ، أي : أعطاه المال الذي اشترى به هذه الإبل عندما كانت هزيلة ، وجعل الربح في بيت مال المسلمين .

وقدم بريد ملك الروم على عمر ﷺ فاستقرضتْ امرأة عمر رضي الله عنها دينارًا واشترت به عطرًا وأشياء مما هو متوافر في بلاد العرب ولا وجود لها في بلاد الروم ، وجعلتها في قوارير وبعثت بها مع البريد إلى امرأة هرقل ملك الروم ، فلما أتاها البريد فرغتْ هذه القوارير وملأتها جواهر ، وقالت لصاحب البريد اذهب بها إلى امرأة الخليفة عمر ، فلمّا وصل البريد إليها فرغتهنّ على البسط فوافق أن دخل عمر ﷺ فقال : ما هذا ؟ فأخبرته ، فأخذ عمر ﷺ الجواهر وباعها ودفع إلى امرأته دينارًا ، وجعل ما بقي من ثمن بيع الجواهر في بيت المال .

ولما تولى عمر بن عبدالعزيز أمر الخلافة ، دخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك وخيَّرها بين حُليِّها الذهبية وثوبها المحلّى بالذهب والمنظوم بالدرر والياقوت ، وبين فراقه ، أي : خيَّرها بين أن تختار هذا الذهب فيطلقها عمر ، وبين أن تبقى زوجة عنده ، وتتخلى عن الذهب والجواهر ،

فقال لها اختاري ، إمّا أن تردي كل ما تملكين من الحُلى الذهبية إلى بيت المال ، وإمّا أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أكون أنا وأنتِ وهذا الذهب في بيت واحد ، فقالت : لا ، بل اختاركَ عليه وعلى أضعافه ، فأمر به ، فحُمل حتى وُضِع في بيت مال المسلمين ، فلما توفي عمر رحمه الله ، وجاء من بعده يزيد ، قال لفاطمة : إن شئتِ رددته إليكِ ، قالت : لا والله ولا أطيب به نفسًا في حياته ، وأرجع فيه بعد موته .

ولأنّ رئيس الدولة في ظل الإسلام يشعر بأنّ الرئاسة مسؤولية دنيوية وأخروية فإنّه يعمل دائمًا بما هو فيه مصلحة الرعية ، كان عمر رضي الله قد فرض راتبًا شهريًّا لكل طفل بلغ عمر الفطام ، فسمع ذات ليلة بكاء صبي فتوجه نحوه فقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى صبيكِ ، ولم تكن تعرفه أنه الخليفة عمر ، فلم تأبه بقوله ، ثم سمع بكاءه مرة ثانية ، فعاد إلى أمّه يقول لها ما قاله في المرة الأولى ، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي ، فأتى إلى أمّه وقال لها : ويحكِ إنك أمّ سوء ، مالي أرى ابنك على هذا الحال لا ينقطع بكاؤه ؟ قالت الأمّ : أيا عبدالله : إني أحاول إفطامه فيأبى ذلك ، فقال عمر : ولِمَ ذاك ؟ قالت : لأنّ عمر لا يفرض مالًا إلّا للمفطوم ، فقال : وكم عمر ابنكِ ؟ قالت : كذا شهر ، فقال : ويحكِ لا تعجليه عن الإفطام ، فلما صلى الصبح انصرف إلى الناس وجعل مناديًا ينادى فيهم : أن لا يعجلوا صبيانهم عن الفطام فإنّا قد قررنا أن نفرض لكل مولود راتبًا من يوم ولادته . ثم أخذ ﷺ يلوم نفسه والدموع تملأ عينيه ويخاطب نفسه : كم صبيًّا قتلتَ يا عمر : ثم أعمّ هذا القرار وبعث به إلى الأقاليم في الآفاق .

الدرس الثالث والثلاثون

الحضارة الإسلامية

أقام المسلمون بفضل تعاليم القرآن حضارة إسلامية استمرت لعدة قرون ، وكانت حضارة عامّة شملت كل مناحي الحياة : السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والأدبية والعلمية ، وفيما يأتي إشارات من جوانب هذه الحضارة في الميدان العلمي.

من الأمور التي تدل على عظم الإسلام وسرعة نقله العرب من كونهم قبائل متناحرة ، لا يخطرون ببال أحد إلى أمة ذات سيادة وقيادة وشأن يحسب لها حساب أنّه في غضون ثلاثة عقود من الزمن استطاع المسلمون أن يبنوا لهم أسطولًا بحريًّا نافس الأسطول البحري الروماني الذي مضى على تأسيسه أكثر من ألف سنة وانتصر عليه انتصارًا مبينًا في معركة مشهورة سُميتْ بمعركة ذات الصواري ، وكان ذلك في عهد عثمان ﷺ سنة ٣٥هـ وكان الأسطول البحري الإسلامي بقيادة عبد الله بن أبي سرح ، والأسطول الروماني بقيادة ابن هرقل .

وفي كتاب صور مشرقة من حضارة بغداد وتحت عنوان : في بغداد استنبطت الكتابة البارزة للعميان قال المؤلف: ((يذكر التاريخ الحديث أنّ رجلا فرنسيًّا اسمه برايل ، كان أعمى لا يبصر استنبط في سنة ١٨٢٩م ... الأسلوب المنسوب إليه لتعليم العميان القراءة والكتابة ، وقد خلَّد اسمه وشرَّف قومه الفرنسيين بهذا الاستنباط الذي أخذت به أمم العالم في تعليم العميان، ولكن من يدري أنّ رجلًا عربيًّا كان أعمى أيضًا لا يبصر اسمه : زين الدين علي بن أحمد الآمدي عاش في حدود سنة ٧٠٠هـ... كان السابق في هذا المضمار وإليه يرجع من دون سواه الفضل كله في ابتداع الكتابة البارزة للعميان))

من كتاب: صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي : تأليف : ميخائيل عواد ، ١٩٨٠م ص ٧٥.

معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا

١-الأندلس: حيث كان الطلاب الأوربيون يدرسون في جامعات الأندلس الإسلامية مختلف العلوم الطبيعية ، فنقلوا علومها إلى بلدانهم ، كما أنّ عددا من الأساتذة المسلمين في فروع العلوم المختلفة قد درَّسوا في بعض الجامعات الأوربية التي أنشأها الأوربيون على طراز الجامعات الإسلامية كجامعة مونبلييه في فرنسا .

٢ -الحروب الصليبية : فعن طريق الحروب التي دارت بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي احتكّ الأوربيون بالمسلمين وتعلموا منهم .

٣-التجارة بين العالمين الإسلامي والأوربي ، وقد دلت التنقيبات أخيرًا على وجود عملات إسلامية في أوربا الشمالية حتى فنلندا .

٤-انتشار الإسلام في فترة ما، في بعض مناطق أوربا الشرقية أو غيرها.

٥-الفتوحات الإسلامية وما نقله الفاتحون من حضارة وعلوم إلى المناطق التي وصلوا إليها .

٦-الرحالة المسلمون الذين طافوا مختلف أنحاء العالم ، ومنها العالم الأوربي وأثرهم في نشر الإسلام وحضارته .

٧-الترجمة : فقد كانت هناك مراكز رئيسة للترجمة في الأندلس وأوربا ، من ذلك مثلًا أنّ جيرارد الكريموني الإيطالي المتوفى سنة ٥٨٣هـ = ١١٨٧م والذي حضر إلى الأندلس لتعلم العربية ومكث في قرطبة خمسين سنة ، ترجم وحده إلى اللاتينية (أصل اللغات الأوربية) واحدًا وسبعين مؤلفًا عربيًّا في مختلف العلوم ، والذين كتبوا عن الحضارة العربية والإسلامية

وأثرها على أوربا ومن المستشرقين أنفسهم كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال :

١–تاريخ العرب ، للدكتور فيليب حتي ، بالاشتراك مع الدكتور أدورد جرجي والدكتور جبور ، بيروت ، ١٩٦٦م.

مما قاله حتي في كتابه هذا ٦٣٣/٢ : ((يقول دوزي المستشرق الهولندي المتوفى ١٨٨٤م إنّ في كل الأندلس لم يكن يوجد رجل أمي بينما لم يكن يعرف القراءة والكتابة في أوربا معرفة أولية إلّا الطبقة العليا من القسس)) ومثل هذا قال بول في كتابه : العرب في إسبانيا ص١١٥.

٢–تاريخ غزوات العرب ، لجوزيف رينو ، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان ، بيروت ١٩٦٦

مما قاله المؤلف في هذا الكتاب ص ٢٩٦ : إنّ الراهب الفرنسي جربرت الذي تقلد مناصب البابوية في الفاتيكان تحت اسم سلفستر الثاني ، قد قضى ثلاث سنوات في الأندلس يَدْرُس على أيدي العلماء المسلمين : الرياضيات والفلك والكيمياء وموضوعات أخرى ، وحينما عاد إلى وطنه ، بعد أن بلغ من العلم مبلغًا ، خُيِّل لعامة فرنسا إذ ذلك أنّه ساحر.

وهذا نفس ما قالته المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٨١ وص ٥٣٤

٣–المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية ، تأليف جوليان ريبرا ، ترجمة الدكتور جمال محمد مرزا .

٤–الإسلام في المغرب والأندلس ، تأليف ليفي بروفنسال، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٥–العرب في إسبانيا ، تأليف ستانلي لين بول ، ترجمة علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠م

٦-بين يدي الآن كتاب بعنوان : (شمس العرب تسطع على الغرب) ، تأليف المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ، ترجمة فاروق بيضون ، وكمال دسوقي ، الطبعة الرابعة ، ببروت ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .

من أقوالها في هذا الكتاب ، تقول في الصفحة ٧٥ ما نصه : ((وكُتِب للخوارزمي الخلود بتأليفه كتابين هامّين في الرياضيات ، حمل الأول منهما ، حساب الجبر والمقابلة ، يضمّ مجموعة ممتعة من المشاكل الرياضية ، وحين ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية في العصور الوسطى ، حمل معه اسمه العربي ، لتصبح كلمة الجبر **Algebra** كلمة عالمية ، تخلد اسم صاحبها .

وكان كتابه الثاني كتابًا تعليميًّا ، صغير الحجم في علم الحساب ... ونُقل هذا الكتاب إلى إسبانية ، وتُرجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، وقد حُمِل الكتاب المترجم إلى الأراضي الألمانية ، وترجع أول نسخة منه ألى عام ١١٤٣م ، وهي مكتوبة بخط اليد ، وموجودة في مكتبة البلاط في فيينا ، ووُجدتْ النسخة الثانية منه في دير سالم **Salem** ، وهي محفوظة الآن بهايدلبرج **Heidelberg** ، ولم يلبث الألمان أنْ جعلوا من الخوارزمي شيئًا يسهل عليهم نطقه ، فأسموه **Algorizmus** ونظموا الأشعار باللاتينية تعليقًا على نظرياته .

وما زالت القاعدة الحسابية **Algorithmus** حتى اليوم تحمل اسمه كعلم من أعلامها ، وعُرف أنصاره في إسبانية وألمانية وانكلترا الذين كافحوا كفاحًا مريرًا من أجل نشر طريقته الرياضية باسم الخوارزميين **Hlgorithmiker** ... فانتشرت الأرقام العربية التسعة ، يتقدمها الصفر في كافة أنحاء أوربّه))

والخوارزمي هو : محمد بن موسى ، أبو عبد الله ، من أهل خوارزم ، رياضي فلكي مؤرخ ، توفي ما بعد ٢٣٢هـ = ما بعد ٨٤٧م ، وعاش إلى ما بعد وفاة الواثق بالله .

وقد جعلت الفصل الثاني ص ٢٢٧ بعنوان : ((مستشفيات مثالية ، وأطباء ، لم ير لهم العالم مثيلًا))

وفي الفصل الثالث ص ٢٤٣ الذي جعلته بعنوان : أحد أعظم أطباء الإنسانية إطلاقًا ، تقول في الأسطر الأولى تحت هذا العنوان ، ما نصه : ((قبل ٦٠٠عام كان لكلية الطب الباريسية أصغر مكتبة في العالم ، لا تحتوي إلّا على مؤلَّف واحد ، وهذا المؤلَّف كان لعربي كبير))

وفي الفصل الرابع ص ٣٦٩ الذي جعلته بعنوان : طلب العلم عبادة ، تقول في الأسطر الأولى من هذه الصفحة ، ما نصّه : ((لقد أوصى محمد كل مؤمن ، رجلًا كان أم امرأة بطلب العلم ، وجعل من ذلك واجبًا دينيًّا ، فهو الذي يقول للمومنين : اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد ، ويرشد أتباعه دائمًا إلى هذا فيخبرهم بأنَّ ثواب التعلم كثواب الصيام ، وأنَّ ثواب تعليمه كثواب الصلاة ، وكان محمد يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف إلى قدرة الخالق ، وكان يرى أنَّ المعرفة تنير طريق الإيمان مردِدًا عليهم : اطلبوا العلم ولو بالصين))

فهي بهذا الكلام تريد أنْ تقول أنَّ سبب تقدم المسلمين في مجالات العلم كافة ، هو أنَّ دينهم كان يأمرهم بذلك

وفي الفصل الثامن ص ٣٩٣ الذي جعلته بعنوان : شعب يذهب إلى المدرسة ، تقول في الفقرة الثانية من هذه الصفحة ما نصّه : ((وبينما كان شارل الأكبر يجهد نفسه في شيخوخته لتعلم القراءة والكتابة ، وبينما أمراء الغرب يعترفون بعجزهم عن الكتابة ، أو القراءة ، وفي الأديرة (الكنائس الكبيرة) يندر بين الكهنة من يستطيع مسك القلم ؛ لدرجة أنَّه عام ١٢٩١م لم

يكن في دير القديس جالينوس من الكهنة والرهبان من يستطيع حلّ الخط ، بينما كان هذا كله يحدث في الغرب ، كانت آلاف مؤلفة من المدارس في القرى والمدن (في البلاد الإسلامية) تستقبل ملايين البنين والبنات ، يجلسون على سجادهم الصغير ، يكتبون بحبر يميل إلى السواد فوق ألواحهم الخشبية ، ويقرؤون مقاطع من القرآن ٠٠٠ وكان الدافع إلى كلّ هذا ، هو رغبتهم الصادقة في أنْ يكونوا مسلمين حقًّا ، كما يجب أنْ يكون المسلم))

ومما قالته في صفحات متفرقة ، وما قاله الدكتور فيليب حتي في كتابه : تاريخ العرب ٦٢٦/٢ ، وستانلي لين بول في كتابه : العرب في إسبانيا ص١١٩ ، حيث تشابهت عباراتهم : أنّه في القرن العاشر الميلادي يوم كانت قرطبة الإسلامية تزهو بشوارعها الممتدة أميالًا عديدة مبلطة ومضاءة بالمصابيح العامّة حتى القرى ، لم يكن في الشارع الرئيس في لندن مصباح عمومي واحد حتى بعد هذا القرن بسبعة قرون ، ولم يكن يستطيع أحد من سكان باريس أن يتخطّى عتبة بيته في يوم مطير حيث سيغوص في الوحل . ومما ذكروه أيضًا : أنّه يوم كانت جامعة أكسفورد في إنكلترا تَعُدُّ الاستحمام عادة وثنية كانت قرطبة قد مرّ عليها زمن طويل متمتعة بالحمامات الرشيقة ، ويوم كانت أوربّا تَعُدُّ المرض قدر الله وقضاءه يجب أن لا يقاوم ، كان المسلمون يتمتعون حتى بالمستشفيات المتنقلة والأجنحة لكل مرض في مستشفيات ذات إمكانيات عالية رفيعة .

ومما ذكروه أيضًا : لقد عاشت أوربا قرونًا عديدة تُدَرَّس في جامعاتها الكتب العربية المترجمة في كافة حقول المعرفة ، حتى أصبحت اللغة العربية ومعرفتها هي الشرط الأساسي للمثقف في أوربّا ، حتى إنّ طلبة جامعة أكسفورد لإتقانهم اللغة العربية كانوا يتهكمون أحيانًا على أستاذهم روجر بيكون إذا أخطأ في ترجمة النصوص العربية إلى لغتهم ، وذكروا أنّ العلم كان قد انتشر في العالم وفي أوربا باللغة العربية مما أدّى إلى تسرّب

كثير من مفردات اللغة العربية في اللغات الأوربية ، وقد رأيتُ المستشرقة الألمانية قد ذهبت لإثبات هذه الحقيقة وتأكيدها في كتابها : شمس العرب ، فذكرت أنّ من اللغات التي تسربت فيها مفردات عربية كثيرة هي اللغة الألمانية ، واستشهدت على ذك بعشرات المفردات اللغوية التي يستعملها الألمان اليوم على أنّها جزء من لغتهم في حين أنّها عربية الأصل والجذور ، ووضعت جدولًا ضمت فيه مفردات ألمانية ، وبجانبها مفردات عربية ، لتظهر تشابه الألفاظ الألمانية مبنى ومعنى بما يقابلها من الألفاظ العربية التي لا يشكُّ أحد في عربيتها .

٧-تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى ، تأليف البروفيسور مونتكمري واط ، ترجمة الدكتور عادل نجم عبو ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

مما قاله هذا المستشرق في كتابه هذا ص٥٦ ((كان الخوارزمي المعروف لدى الباحثين باسم الكورزموس أو الغوارزموس من ألمع الأسماء في حقلي الرياضيات والفلك ، فقد اشتق من اسمه الاصطلاح العلمي : لوغاريتم ، وقد عمل الخوارزمي في بيت الحكمة خلال عصر المأمون وتوفي بعد سنة ٨٤٦ على أية حال كان لأعمال الخوارزمي الرياضية الأثر الأكبر إذ يمكن اعتبار أحد مؤلفاته المؤسس لعلم الجبر، وإنّ كلمة الجبر مشتقة في الحقيقة من عنوان ذلك الكتاب))

وقال ص٥٧((ومن بين الرياضيين الآخرين الذين ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية : النيريزي المعروف لدى الأوربيين باسم أناريتوس المتوفى عام ٩٢١م والعالم الشهير ابن الهيثم المعروف لدى الأوربيين باسم الهازن المتوفى ١٠٣٩م٠٠٠فقد وصل إلينا من أعماله أكثر من خمسين كتابًا وبحث وأفضلها كتابه المعروف : كتاب المناظرة والذي ترجم إلى اللاتينية))

وقال ص ٦٣((وكتاب قانون الطب لابن سينا حيث ترجم إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ، واستمر مسيطرًا على دراسات الطب في أوربّا حتى نهاية القرن التاسع عشر على الأقل ، وكانت هناك ست عشرة طبعة منه خلال القرن الخامس عشر ، وعشرون طبعة في القرن السادس عشر ، وأكثر من ذلك في القرن السابع عشر ، وكذلك كان هناك عدد لا يُعَدُّ ولا يحصى من التعليقات عليه في اللاتينية والعبرية واللغات الأخرى))

٨-حضارة العرب للمستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦م.

وهذا المستشرق كان قد طاف العالم الإسلامي والعربي وعند رجوعه إلى بلاده فرنسا ألَّف كتابه المذكور وطبع باللغة الفرسية أول مرة سنة ١٨٨٨م ثم ترجم إلى اللغة العربية سنة ١٩٤٧م

مما قاله هذا المستشرق في كتايه هذا ص ٢٧٤ وص ٥٨٢: ((بينما كانت هذه حال أوربا كانت الكتابة في الأندلس تضمّ مئات الآلاف من الكتب في مختلف حقول المعرفة الإنسانية ، كان فيها نصيب العلوم البحتة ربما قريبا من الآداب والفنون٠٠٠ولم يصلنا من هذه الثروة إلّا أقل من القليل ، ذهبت بين الحرق والغرق وبعضها استحوذ عليها الغرب ونقلوه إلى بلادهم ومنه ما أصابه التلف ، ويكفي أن نذكر أنّ بعد سقوط غرناطة وفي حوالي سنة ٩٠٥هـ = ١٥٠٠م قام الكردينال خمينس، مطران طليطلة ، ورأس الكنيسة الإسبانية بجمع ما أمكن جمعه من المخطوطات العربية واحتفل بحرقها))

وقال ص٥٦٨ ((وإلى بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصارى ٠٠٠لطلب العلم ونذكر منهم جربرت الذي صار بابا سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني ، والذي أراد أن ينشر في أوربا ما تعلمه فعدَّ الناس عمله من الخوارق واتهموه بأنّه باع روحه للشيطان ، ولم يظهر في أوربا قبل الخامس

عشر من الميلاد عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب وعلى كتب العرب وحدهاعوَّل روجر بيكون ، وليونارد ٠٠٠وأرنولد ، وريمون لول ، وسان توما ، وألبرت الكبير ٠٠٠الخ قال مسيورينان : إنّ ألبرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء ، وإنّ سان توما مدين في جميع فلسفته لابن رشد))

وقال ص ٥٦٩ ((وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيّما الكتب العلمية ، مصدرًا وحيدًا تقريبا للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون ، ويمكننا أن نقول : إنّ تأثير العرب في بعض العلوم ، كعلم الطب مثلًا ، دام إلى أيامنا ، فقد شُرِحتْ كتب ابن سينا في (جامعة) مونبلييه في أواخر القرن الماضي ، وبلغ تأثير العرب في جامعات أوربا من الاتساع ما شمل منه بعض المعارف ٠٠٠كالفلسفة مثلًا ، فكان ابن رشد الحجة البالغة في الفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد))

الدرس الرابع والثلاثون

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

تُعدُّ الشمس نجمًا من النجوم الاعتيادية ، تبعد عنا تسعين مليون ميل ، ويستغرق ضوؤها حتى يصل إلينا ثماني دقائق ، وهي أكبر حجمًا من الأرض بمليون ومئتي ألف مرة ، وتبلغ درجة حرارتها الداخلية عشرين مليون درجة ، وتسيطر الشمس بقوة جاذبيتها على الكواكب التي تدور حولها ومن ضمنها الأرض فتجعلها تسير في الفضاء حيثما سارت ، فتكون للأرض ثلاث حركات : الأولى ، دورانها حول نفسها الذي ينشأ منه الليل والنهار ، والثانية ، دورانها حول الشمس الذي تنشأ منه الفصول الأربعة ، والثالثة، سيرها مع الشمس حيث سارت ، وتبلغ سرعة الشمس في الفضاء : ٢٢٠كم في الثانية، وتساوي ١٤٠ميل في الثانية. فالأرض ، وإن كانت تعود إلى نفس موضعها بعد مرور سنة كاملة من حيث موقعها واتجاهها من الشمس إلّا أنّها ستكون ، ضمن المجوعة الشمسية ، في مكان آخر من الكون ، وهذا يعني ، ونحن نعيش فوق الأرض ، لا نبقى في مكاننا بل نتحول عنه في كل ساعة مسافة ٥٠٤ آلاف ميل ، وفي كل يوم مسافة (١٢) مليون و(٩٦) ألف ميل ، ونبتعد عن مكاننا في كل سنة : ٤٤١٥٠٤٠٠٠٠ (أربعة آلاف وأربعمئة وخمسة عشر مليون وأربعين ألف ميل) ، وفي كل شهر نقطع في الفضاء مسافة تساوي تقريبًا أربعة أضعاف المسافة الممتدة ما بين الأرض والشمس ، فنحن في كل يوم وفي كل سنة في مكان ولا نعود إليه حتى قيام الساعة.

هذه الشمس بقيت محافظة على حجمها وكتلتها وحرارتها ومنذ وجودها قبل ملايين السنين مع أنّها تفقد في الدقيقة الواحدة ٢٥مليون طن من المادة لتتحول إلى طاقة ضوئية وحرارية.

وكلّ نجم من النجوم التي نراها ليلًا ، والتي لا نراها يعد شمسًا مثل شمسنا ، منها ما هو بحجم شمسنا أو أصغر منها بقليل ، ومنها ما هو أكبر حجما من شمس نهارنا بمئة مرة أو ألف مرة أو مليون مرة ، ومن هذه الشموس لو وضعتْ مكان شمسنا لأصبحت الأرض رمادًا في لحظات من شدة حرارتها، ولشغلت لكبر حجمها الفضاء الممتد بين الشمس والأرض ، بل لأصبحت الأرض داخلة ضمن قطرها .

وشمسنا هذه تشع قي الثانية من الطاقة النووية ما يعادل طاقة ملايين من القنابل الذرية التي صنعها الإنسان ، وفي هذه السماء شموس تشع الواحدة منها من هذه الطاقة في الثانية الواحدة ما تشعه شمسنا في سنة كاملة .

ويذكر علماء الفلك أنّ في السماء ١٣٠ مليون شمس (نجم) بيد أنّ بعضهم يشكك في هذا الرقم ، ويصرح بأنّ عدد الشموس لا يمكن حصرها ، ويقول : وإذا كان لا بد لنا أن نقدر عددها فإنّنا لا نغالي إذا قلنا : إنّ عدد الشموس (النجوم) بقدر عدد ذرات الرمال في المحيطات ،

وإذا كانت هذه النجوم التي منها ما هو أكبر من الشمس ملايين المرات تبدو صغيرة كالمصابيح ، فإنّما كان ذلك لبعدها عنا ، ويقاس بعدها بالسنين الضوئية ، فالقمر مثلًا يبعد عنّا ٢٤٠ ألف ميل ، والضوء تبلغ سرعته ١٨٦ ألف ميل في الثانية ، فهذا يعني أنّ الضوء يصل القمر في أقلّ من ثانيتين ؛ لأن الضوء في خلال (٢) ثانية يقطع مسافة طولها =٢في ١٨٦ و = ٣٧٢ ألف ميل ، وتبعد الشمس عنّا حوالي (٩٠) مليون ميل ، وهي مسافة يقطعها الضوء في نحو ثماني دقائق ، ولهذا نقول : إنّ الشمس تبعد عنّا ثماني دقائق ضوئية ، وتُعدُّ الشمس أقرب النجوم إلينا ، وأقرب نجم بعدها ، وهو نجم الشعرى ، يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، أي : إذا كان ضوء الشمس يصل إلينا في غضون ثماني دقائق ، فإنّ ضوء هذا النجم لا

يصل إلينا إلا بعد انقضاء أربع سنوات ، والإنسان حين صعد إلى القمر بأسرع صاروخ صنعه وامتلكه فإنّه استغرق ثلاثة أيام حتى هبط على سطحه في حين أنّ الضوء يصل إليه في أقل من (٢) ثانية ، فإذا كان الصاروخ الأمريكي استغرق ثلاثة أيام ليقطع المسافة التي يقطعها الضوء في ثانية ونصف الثانية ، فكم سيستغرق هذا من الزمن حتى يستطيع أن يقطع المسافة التي يقطعها الضوء في أربع سنوات ليصل إلى أقرب نجم ؟ قدرها علماء الفلك ، بأنّ الإنسان إذا أراد أن يصعد إلى هذا النجم الذي هو أقرب النجوم بالصاروخ الذي صعد به إلى القمر ، فإنّه يستغرق (٢) مليون سنة حتى يصل إليه ، أي : تستغرق هذه الرحلة أربعة ملايين سنة صعودًا ونزولًا ، وهناك نجوم تبعد عنّا مئة سنة ضوئية ، وأخرى تبعد عنّا ألف سنة ضوئية ، وكان علماء الفلك يعتقدون بأنّ أعلى النجوم تبعد عنّا مليون سنة ضوئية، إلّا أنّ المراصد الحديثة رصدت أخيرًا نجومًا تبعد عنّا (١٢) بليون بليون سنة ضوئية، والبليون = مليون في مليون ، أي : أنّ الإنسان لو استطاع أن يصنع صاروخًا تبلغ سرعته سرعة الضوء وأراد أن يصعد إلى تلك النجوم فإنّه لا يستطيع أن يصل إليها إلّا بعد (١٢) بليون بليون سنة ، ليت شعري كم سيستغرق من القرون والدهور إذا أراد أن يصعد إلى تلك النجوم بالصاروخ الذي صعد به إلى القمر ؟!

ومن المعلوم أنَّ صوت المذيع الصادر من الإذاعات ، يتحول إلى موجات كهرومغناطيسية ، فيسير بسرعة الضوء في جميع الاتجاهات ، فينتقل من مصدر انطلاقه ، ويصل إلى أبعد منطقة من الأرض في خلال ثانية ؛ ولهذا نسمع صوت المذيع الصادر من أبعد بلد عنَّا في اللحظة نفسها ، لكنَّه لو كانت هناك إذاعة فوق نجم الشعرى ، الذي هو أقرب النجوم إلينا ، يبث المذيع فيها ما يحدث فوق هذا النجم من وقائع ، فإنَّ صوت هذا المذيع وأخباره ، لا تصل إلينا إلّا بعد أربع سنوات ؛ ولهذا فنحن حين نرى

هذا النجم الساطع في الليل ، فإنَّنا لا نراه على ما هو عليه الآن ، بل على ما كان عليه قبل أربع سنوات ، وكذلك إذا كانت هناك إذاعة فوق نجم يبعد عنَّا مليون سنة ضوئية ، فإنَّ أخبار مذيعها لا تصل إلينا إلّا بعد مرور مليون سنة ، ونحن حين نرى هذا النجم ليلًا ، فإنَّنا لا نراه على ما هو عليه في الوقت الحالي ، بل على ما كان عليه قبل مليون سنة ، وقد مرَّ أنَّ في السماء نجومًا تبعد عنَّا بليون بليون سنة ضوئية ، أي : قد نرى الآن نجومًا لا وجود لها ؛ لأنَّه قد تكون هذه النجوم قد اندثرت قبل عشرات السنين ، إلّا أنَّ صورها لا تزال تسير في الفضاء ، وقد سمعت قبل سنوات من مختلف الإذاعات أنَّ الفلكي العالمي فلان شاهد في مرصده شيئًا مذهلًا ، وهو ينظر من خلاله إلى أعماق السماء ؛ إذ رأى نجمًا ينفجر انفجارًا هائلًا ، ثم تلاشى خلال دقائق ، ثم صرح بأنَّ هذا الانفجار الهائل قد حدث في هذا النجم قبل عشرين سنة ، وقد شاهده الآن بعد وصول صورته إلى الأرض خلال هذه المدة .

ويقول علماء الفلك : إنّ السماء تحتوي على مئات الآلاف من المجرات ، وكل مجرة تضم مئات الآلاف من النجوم ، وقد ذكر لي أحد زملائي التدريسيين من المولعين بقراءة الكتب الفلكية ، أنّه توصل إلى التعرف إلى السماوات السبع كما وردت في القرآن الكريم ، فذكر أنّ ثمة سبع طبقات من المجرات في السماء بعضها فوق بعض ، وكل طبقة تضم آلاف المجرات التي آخرها وأعلاها التي تبعد نجومها عنا (١٢) بليون بليون سنة ضوئية ، وهذا ما توقعه وهو مخالف لما جاء في القرآن الكريم قال الله تعالى في سورة (تبارك) : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {١} الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ {٢} الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ {٣} ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ

الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ {٤} وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ){الملك: ١ – ٥}

فقوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ) يفيد أنّ السماء الدنيا هي وحدها من دون السماوات السبع قد زينها الله بالنجوم ، فالنجوم التي على بعد (١٢) بليون بليون سنة ضوئية داخلة ضمن السماء الدنيا ، من هنا يتبين عظم حجم سمائنا ، وقد جاء في الأثر أنّ هذه السماء على عظم وسعها هي بالقياس إلى السماء الثانية التي فوقها كقطرة في بحر، والسما، الثانية تبدو بهذا الحجم بالقياس إلى السماء الثالثة ، وهكذا دواليك إلى السماء السابعة ، وقد جاء في الحديث النبوي أن السماوات السبع مجتمعة هي بالقياس إلى عرش الرحمن كحلقة مرمية في صحراء . أعرفتَ الآن أيها الإنسان قدر الرحمن ؟! أأعرفت قدر قوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون){الزمر: ٦٧}

في التسعينات من القرن الماضي عُنيتِ الإذاعات الغربية بنشر خبر فضائي عن توجه مذنب إلى كوكب المشتري ، والمشتري أكبر حجمًا من الأرض بكثير ، فراح الفلكيون يرصدونه ؛ ليسجلوا صورة ارتطامه بهذا الكوكب ، ومن الأخبار التي سمعتها في حينها ، أنَّ هذا المذنب أحدث بكوكب المشتري حال اصطدامه به حفرة ، بقدر حجم الكرة الأرضية ، فيا ليت شعري ، ماذا سيحلُّ بنا لو وجه الله ، سبحانه ، هذا المذنب نحو الأرض التي نعيش فوقها ؟!

فما بال هذا الإنسان يخشى إنسانًا حقيرًا مثله ، ولا يخشى الله ؟! وما بال ابن آدم يكيل قنطارًا من الشكر والثناء لمن يقدم له قطميرًا من الفضل ، ولا يشكر الله ، صاحب الفضل كله ؟! جاء في الحديث القدسي ، يقول الله ، تبارك وتعالى : أخلق ويُعْبَدُ غيري ، أرزق ويُشْكَرُ غيري

المصادر والمراجع

-الإسلام في المغرب والأندلس ، تأليف ليفي بروفنسال، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ، ومحمد صلاح الدين حلمي، القاهرة ، ١٩٥٦م.

-الإسلام في أفريقيا للشيخ إبراهيم النعمة

-الإصابة في تمييز الصحابة ، لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ) إعداد خالد عبد الفتاح شبل . الطبعة الثالثة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م .

-أصول الدين الإسلامي للدكتور رشدي محمد عليان ، والدكتور قحطان عبد عبد الرحمن الدوري

- الألسنية: علم اللغة الحديث، تأليف ميشال زكريا، دكتوراه في الألسنية من جامعة باريس .

-البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)، حقق أُصوله، الدكتور عبد الرزاق المهيدي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

- بدائع الفوائد لابن قيّم الجوزية (ت:٧٥١هـ) إدارة الطباعة المنيرية، الناشر دار الكتاب العربي، بيروت (د- ت).

-البداية والنهاية ، للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت : ٧٧٤هـ) اعتنى بهذه الطبعة ووثقها عبد الرحمن اللادقي ، ومحمد غازي بيضون ، الطبعة العاشرة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ١٤٢٨هـ=٢٠٠٧م.

-تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى ، تأليف البروفيسور مونتكمري واط ، ترجمة الدكتور عادل نجم عبو ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م .

-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للإمام الحافظ المؤرخ أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد عثمان بن قيماز الذهبي (ت : ٧٨٤هـ) تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م

-شمس العرب تسطع على الغرب ، تأليف المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه ، ترجمة فاروق بيضون ، وكمال دسوقي ، الطبعة الرابعة ، ببروت ، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م .

-تاريخ العرب ، للدكتور فيليب حتي ، بالإشتراك مع الدكتور أدورد جرجي والدكتور جبور ، بيروت ، ١٩٦٦م.

-تاريخ غزوات العرب ، لجوزيف رينو ، ترجمة وتعليق شكيب أرسلان ، بيروت ١٩٦٦م .

-تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ، لأبي علي محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ، قدم له واعتنى به وخرج أحاديثه رائد بن صبري بن أبي علقة ، بيت الأفكار الدولية (د-ت) .

-الترغيب والترهيب ، من الحديث الشريف ، للإمام الحافظ زكي الدين بن عبد القوي المنذري ، حققه أبو عبد الرحمن المكي ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة ، الرياض ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م .

-تفسير القرآن العظيم ، لعماد الدين أبي الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، دار المعرفة، بيروت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م..

-جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ، ضبط وتعليق محمود شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م.

-الجامع لأحكام القرآن ، لمحمد بن أحمد القرطبي (ت: ٦٧١هـ) الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٨٧هـ- ١٩٧٦م.

-حضارة العرب للمستشرق الفرنسي الدكتور غوستاف لوبون ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٦م
-دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح
-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لأبي الفضل محمود الآلوسي البغدادي (١٢٢٧هـ) ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٢٦هـ = ٢٠٥م .
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للسهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار النصر للطباعة القاهرة ١٩٦٧م.
-زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، وضع حواشيه، أحمد شمس الدين ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م.
-زواج النبي ، صلى الله عليه وسلم ، للشيخ الداعية محمود غريب
-سنن أبي داود ، لأبي داود سلمان بن الأشعث السجستاني ، (ت : ٣٧٥هـ) اعتنى به بيت الأفكار الدولية (د-ت) .
- السيرة النبوية لابن هشام (ت : ٢١٣هـ) وضع حواشيه ، وخرج أحاديثه فؤاد بن علي حافظ ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م
-شبهات حول الإسلام ، لمحمد قطب
-صحيح مسلم بشرح الإمام النووي (ت :٦٧٦هـ) المسمى : المنهاج
-صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي : تأليف : ميخائيل عواد
- صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النووي المتوفى ٦٧٦هـ المسمى : المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا ، الطبعة الثانية عشرة ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م

– صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي : تأليف : ميخائيل عواد ، ١٩٨٠م
–العرب في إسبانيا ، تأليف ستانلي لين بول ، ترجمة علي الجارم ، القاهرة ، ١٩٦٠م .
–العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب
–علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحي الصالح
–عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، بدر الدين محمود بن احمد العيني، إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي، (د–ت).
–غيث النفع في القراءات السبع للسفاقسي (ت : ١١١٨هـ) ، تحقيق أحمد محمود عبد السميع الشافعي الحفيان ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م .
–فتح الباري شرح صحيح البخاري ، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، الطبعة الثانية ، دمشق ، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .
–فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ) مطبعة البابي الحلبي، مصر ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
–فقه السنة ، لسيِّد سابق
–في ظلال القرآن ، لسيِّد قطب
–الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري (ت:٥٢٨هـ) ، رتبه وضبطه وصححه ، محمد عبد السلام شاهين ، الطبعة الثالثة ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.

-اللباب في علوم الكتاب ، لأبي جعفر عمر بن عادل الدمشقي الحنبلي المتوفى بعد سنة ٨٨٠هـ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأُولى ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
-مباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي الصالح
-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي (ت:٥٤٦هـ) تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
-مجلة التربية الإسلامية ، أعداد منها في الستينات ، والسبعينات ، والتسعينات من القرن الماضي .
-المرأة في القرآن الكريم ، لعباس محمود العقاد
-مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)، المطبعة البهية ١٣٥٣هـ= ١٩٣٤م - ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م.
-محمد في المدينة تأليف المستشرق مونتكمري واط ترجمة شعبان بركات
-المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية ، تأليف جوليان ريبرا ، ترجمة الدكتور جمال محمد مرزا .
-الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت:٤٦٨هـ) تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
-مصادر أخرى ، سمعية / شخصية ، وإذاعية ، وقنوات فضائية تلفزيونية ، وأقراص مسجلة ، وإنترنت .

المحتويات

الدرس الأول : (إنَّ علينا جمعه وقرآنه)	٤
الدرس الثاني : نزول القرآن على سبعة أحرف	١٩
الدرس الثالث : تدوين الحديث البوي	٢٩
الدرس الرابع : تعدد الزوجات في الإسلام	٣٩
الدرس الخامس : زواجه صلى الله عليه من عائشة رضي الله عنها	٤٩
الدرس السادس : زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها	٥٤
الدرس السابع : تعدد زوجاته ﷺ	٦٤
الدرس الثامن : (للذكر مثل حظ الأنثيين)	٧٥
الدرس التاسع : شهادة المرأة	٨٢
الدرس العاشر : (الرجال قوّامون على النساء)	٩٠
الدرس الجادي عشر : الغاية من تشريع الحدود الإسلامية	١٠٠
الدرس الثاني عشر : السرقة وحدها في الإسلام	١٠٦
الدرس الثالث عشر : حدّ الزنا بين رحمة الإسلام وعظم التربية	١١٤
الدرس الرابع عشر : أول فتنة في الإسلام ، استشهاد عثمان ﷺ	١٢١
الدرس الخامس عشر : (لا إكراه في الدين) ولماذا الفتوحات الإسلامية	١٣١
الدرس السادس عشر : حكمة النسخ في الإسلام	١٤٣
الدرس السابع عشر : الرقيق في الإسلام	١٤٩
الدرس الثامن عشر : الجواري في الإسلام	١٥٩

الدرس التاسع عشر : قوة هذا الدين	١٦٣
الدرس العشرون : من آثار هذا الدين في نفوس أتباعه	١٦٩
الدرس الحادي والعشرون : فريضة الصلاة في الإسلام	١٧٤
الدرس الثاني والعشرون : شهادة أهل التوراة والإنجيل	١٨١
الدرس الثالث والعشرون : (أفي الله شك)	١٨٧
الدرس الرابع والعشرون : من معاني الحج في الإسلام	١٩٤
الدرس الخامس والعشرون : (وكل شيء أحصيناه كتابا)	٢٠٢
الدرس السادس والعشرون : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق)	٢٠٩
الدرس السابع والعشرون : اعتقاد الأئمة الأربعة	٢١٦
الدرس الثامن والعشرون : الوفاء بالعهد من مبادئ الإسلام	٢١٩
الدرس التاسع والعشرون : عائشة رضي الله عنها وحديث الإفك	٢٢٢
الدرس الثلاثون : العدل وحقوق الرعية في ظل الإسلام	٢٢٦
الدرس الحادي والثلاثون : الديمقراطية والإسلام	٢٣٣
الدرس الثاني والثلاثون : منصب الرئاسة وأموال الرعية في ظل الإسلام	٢٣٧
الدرس الثالث والثلاثون : الحضارة الإسلامية	٢٤٠
الدرس الرابع والثلاثون : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)	٢٤٩
المصادر والمراجع	٢٥٤

السيرة العلمية :

-الاسم : عبد الجبار فتحي زيدان ذنون صوفي علي الحمداني.

-محل وتاريخ الولادة : الموصل/١٩٤٧م ، محلة الشفاء ، قرب دورة قاسم الخياط .

-أنهيتُ دراستي الابتدائية ، في المدرسة القحطانية ، سنة ١٩٦٢ .

-أنهيتُ دراستي المتوسطة ، في متوسطة الحرية ، سنة ١٩٦٥م .

-أنهيتُ دراستي الإعدادية ، في الإعدادية المركزية ، القسم العلمي ، سنة ١٩٦٧م

-خريج كلية التربية الملغاة / قسم اللغة العربية /جامعة بغداد ، حصلتُ على شهادة البكالوريوس في هذه الكلية بدرجة جيد جدًّا ، سنة ١٩٧٢م .

-عُيِّنتُ مدرسًا في ثانوية قيّارة في ١٩٧٣/١٠/٩م ، ثم نُقلتُ بعدها إلى متوسطة كَرَمْلِيسْ ، ثم ثانوية قره قوش ، ثم متوسطة المثنى ، فمتوسطة أبي بكر الصديق ، وبعد حصولي على شهادة الماجستير، تم نقلي إلى معهد إعداد المعلمات سنة ١٩٨٩م .

-حصلتُ على شهادة الماجستير في اللغة العربية ، بدرجة جيد جدًّا عالٍ يرسالتي الموسومة (المشاكلة بين واو الحال وواو المصاحبة في النحو العربي) بتاريخ ١٩٨٨/١٢/٢٠م جامعة الموصل / كلية الآداب ، بموجب الأمر الجامعي المرقم ٣١٩/١١/٣ في ١٩٨٩/١/٩م

-حصلت على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية ، بدرجة امتياز ، بأطروحتي الموسومة ((ما) في القرآن الكريم /دراسة نحوية) في ١٩٩٧/٨/٢٦م ، بموجب الأمر الجامعي العدد ٣/١١/٢ع٧٢ بتاريخ ١٩٩٧/٩/١٦م

-تم نقل خدماتي إلى وزارة التعليم العالي ، وباشرتُ التدريس بكلية المعلمين في ١٩٩٧/٣/١٩م ، التي هي كلية التربية الأساسية حاليا

-كُلِّفتُ بالخطابة من لدن وزارة الأوقاف ، وكان عدد الجوامع التي صعدتُ فيها على منابرها ، خمسة عشر جامعًا ، وأول خطبة خطبتها كانت في جامع الطالب/حي الرفاعي ، في الأسابيع الأولى من افتتاحه ، سنة ١٩٨٧م ، وأكثر خطبي كانت في جامع يونس النحوي المعروف بجامع شيخ الشط ، وآخرها كانت في جامع العطاش/كوكجلي ، ثم تركتُ المنبر سنة ٢٠٠٠م

-بقيت أعمل تدريسيًّا بكلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل ، ومحاضرًا في الدراسات العليا ، ومناقشًا ومشرفًا لرسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه . في قسم اللغة العربية في الكلية المذكورة ، حتى أُحلتُ إلى التقاعد بتاريخ ٢٠١٢/٦/٥م .

-ترقيتُ إلى الأستاذية بتاريخ ٢٠١٢/٦/٣م

موبايل : ٠٧٧٠٢٠٥٠٠٥٠

فايبر : ٠٧٧٠٢٠٥٠٠٥٠

فيسبوك : البروف النحوي

للمؤلف :

١-الله والتقدم المادي عند الإنسان رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٤٦ لسنة ١٩٧٧م

٢-اغتنم شبابك في طاعة الله ، الطبعة الأولى ، مطبعة أسعد بغداد ١٤٠٥هـ =١٩٨٥م ، رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد٢٩٩ لسنة ١٩٨٥م .

٣-فضل الصلاة وحكم تاركها في الكتاب والسنة ، أو رسالة إلى تارك الصلاة ، الطبعة الأولى ، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٨٥م رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٥٦٦ لسنة ١٩٨٦م .

وهذه الكتب الثلاثة نفدت نسخها ولم أُعد طبعها ؛ لأنَّها لم تكن وقتئذ مسجلة على قرص ، أو مخزونة في حاسبة .

٤-إعجاز القرآن الكريم . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد٨٠٢/ لسنة ٢٠٠٩م وهو كتاب منهجي كنتُ أدرِّسه لطلاب المرحلة الرابعة في قسم التربية الإسلامية / كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل / أعددتُه حسب المنهج الذي قرّرتْه عمادة الكلية المذكورة .

٥-مواعظ إسلامية . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٣ لسنة ٢٠٠٩م

٦-دروس إسلامية . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٤ لسنة ٢٠٠٩م

٧-بين الماضي والحاضر / قصائد إسلامية . وهي من نظمي وشعري ، يضمّ ثماني قصائد ، رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٥ لسنة ٢٠٠٩م

٨-المشاكلة بين واو الحال وواو المصاحبة في النحو العربي . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٦ لسنة ٢٠٠٩م

٩-(ما) في القرآن الكريم / دراسة نحوية . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٧ لسنة ٢٠٠٩م

١٠-دراسات في النحو القرآني . . رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ببغداد/٨١١ لسنة ٢٠٠٩م

١١-من مزاعم النحاة . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/٨٠٨ لسنة ٢٠٠٩م

١٢-النصب على نزع الخافض والتضمين من بدع النحاة والمفسرين ، رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق ببغداد/ ١٧٣٢ لسنة ٢٠١٠م .

١٣-(ظنَّ) وأخواتها والتضمين في القرآن الكريم . وقد دمجتُ هذا الكتاب في الكتاب السابق

١٤- الوجوه الدخيلة في كتب الوجوه والنظائر ، لفظ (الذكر) نموذجًا ،

مع بحث صغير بعنوان : لغة القرآن فوق نحو النحاة رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/ ١٧٩٨ لسنة ٢٠١١م

وقد جعلتُ الموضوع الأول من هذا الكتاب ضمن أحد مواضيع التمهيد في كتابي : لا وجوه ولا نظائر ، تحت عنوان دراسة نموذجية ، وجعلتُ كلامي في الموضوع الثاني ضمن التمهيد في كتابي : من مزاعم النحاة .

١٥–لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/ ٨٣٢ لسنة ٢٠١٤م

١٦–اختلاق الأوجه والمعاني في كتب حروف المعاني . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/ ٨٣٣ لسنة ٢٠١٤م

١٧–طرائق اختلاق الوجوه في كتب الوجوه . . رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد/ ٨٣٤ لسنة ٢٠١٤م

١٨– الأضداد في القرآن الكريم